الأصوات اللغوية

تأليف
الدكتور ابراهيم أنيس

الطبعة الخامسة
١٩٧٥

الناشر
مكتبة الأنجلو المصرية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة هذه الطبعة

يبدو أن الدراسة الصوتية للغة قد أخذت طريقها إلى كلياتنا الجامعية وئيدة الخطا ، وأن الدارسين الآن يقبلون عليها فى ثقة واطمئنان إلى عظيم جدواها فى البحث اللغوى . بل لاتقتصر هـــذه الدراسة الآن على طلاب اللغات بكليات الآداب ، فقد جاوزتهم إلى مجالات أخرى لم تـكن تتجه إليها من قبل . فأدخلت فى معهد التدريب الإذاعى ، وكان لى حظ تأسيسها فى هـذا المعهد ، رغبة فى أن يقف المذيع أو المذيعة على أمثل الطرق للنطق بأصوات اللغة ، ومعرفـة طبيعة كل صوت وكيفية إصـداره ، والسيطرة على جهاز النطق سيطرة تامة .

كذلك بدأ بعض المتخصصين من طلاب الطب فى الأذن والأنف والحنجرة يلتمسون فى أحيان كثيرة طرفاً من دراسة الأصوات اللغوية، ومعهم أيضاً طلاب الصوت فى كليات العلوم والهندسة .

وإزاء هذه النهضة المباركة فى بلادنا أشعر بالغبطة والسرور لأن كتابى « الأصوات اللغوية » كان أول كتاب يؤلف باللغة العربية فى هذه الدراسة ، وظهر لأول مرة منذ أكثر من ربع قرن .

ولـما هممنا بالقيام بهذه الطبعة الرابعة توفرت على تنقيح بعض نصوص الـكتاب وإضـافة كثير ممـا هـدانا إليه البحث فى مجمع اللغة العربية بوصفى عضواً فيه ، من مقالاتى التى نشرت فى مجلته أو بحوثى التى ألقيتها فى مؤتمراته السنوية .

والله أسأل أن ينفع بهذا الجهد العلمى ، أبناءنا فى كل البلاد العربية إنه سميع مجيب الدعاء ؟

إبراهيم أنيس

بسم الله الرحمن الرحيم

حين ظهر هذا الكتاب للمرة الأولى سألني بعض أهل العلم عما إذا كنت قد اتصلت بالجهود العلمية التي قام بها القدماء من علماء العربية في الدراسات الصوتية للغة ، وذلك للوقوف على مدى ما تتفق فيه آراؤهم مع النظريات الحديثة .

ويبدو أن بعض هؤلاء السائلين لم يقنعوا بتلك الإشارات التي جاءت في ثنايا هذا الكتاب ومنها يستدل على أن كتب القدماء كانت محل النظر والبحث في أثناء التأليف . ولعلهم كانوا يتوقعون هنا عرضاً للأصوات مماثلا لذلك الذي روى عن القدماء ، ولكننا آثرنا أن نسلك مسلكا مستقلا في علاج أصوات اللغة ، يجمع بين آراء القدماء والمحدثين ، ويقارن بينها كلما دعت الضرورة إلى هذا .

ولما تبين لنا أن كثيراً من الدارسين الآن يجدون بعض الغموض في كلام القدماء ويعسر عليهم فهمه ، وأنهم يقنعون بترديد أقوالهم في نفس الألفاظ والعبارات ، دون وقوف حقيقي على مغزاها ومرماها ، رأينا أن نضيف في هذه الطبعة فصلا يتضمن أهم ما عن لنا من ملاحظات على دراسة القدماء لأصوات اللغة، وحاولنا فيه شرح مصطلحاتهم وتعريفاتهم في صورة واضحة جلية على ضوء الدراسة الحديثة للأصوات اللغوية .

ويستطيع الطالب بعد الرجوع إلى هذا الفصل فهم النصوص القديمة التي جمعنا منها نماذج متعددة تمثل ما جاء في كتب القدماء من عصور مختلفة

بين القرنين الثاني والتاسع من الهجرة ، راجين بعدها أن يجد كل دارس طريقه ممهداً للاطلاع على جهود القدماء من علماء العربية والاستعانة بها في بحثه . والله ولي التوفيق ؟

إبراهيم أنيس

يناير سنة ١٩٦١

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

سبحان من خص الإنسان بالنطق المبين ، فسما به فوق المخلوقات الأخر والصلاة والسلام على أفصح من نطق بالعربية ، وبعد :

فهذا كتاب فى دراسة قد تبدو حديثة فى بلادنا ، ولكنها ازدهرت وتأصلت بين من يعنون بالبحث اللغوى فى أوربا . وقد يحب بعض القراء أن يسمى ماتعرضت له فى هذا الكتاب بالبحث « الفوناتيكى » Phonetics ولكنى أوثر أن أنسبه إلى فرع « الفونولوجى » Phonology ، لأن (الفوناتيك) يعنى بالأصوات الإنسانية شرحاً وتحليلا ، ويجرى عليها التجارب دون نظر خاص إلى ما تنتمى إليه من لغات ، ولا إلى أثر تلك الأصوات فى اللغة من الناحية العملية . فهو لهذا عالمى ، كونت له هيئة عالمية تكشف لنا كل يوم عن أصوات إنسانية كانت مجهولة . أما فرع (الفنولوجى) فيعنى كل العناية بأثر الصوت اللغوى فى تركيب الكلام نحوه وصرفه ، ولهذا يمكن أن يطلق عليه علم الأصوات الذى يخدم بنية الكلمات وتركيب الجمل فى لغة من اللغات .

على أن الفرعين قد يلتقيان فى ميدان واحد ، ويشتركان معاً فى البحث فى عدة نقط . فحدودهما متشابكة ، يصعب تحديد الفواصل بينهما تحديداً دقيقاً .

ومن المحدثين من يميز بين الاصطلاحين تميزاً آخر فيجعل الأول

منهما خاصاً بالناحية الوصفية ، والثانى بالناحية التاريخية وما اشتملت عليه من تطورات . وهناك فريق ثالث على رأسهم De Saussure يعكسون التسمية ويجعلون الاصطلاح الأول للبحث التاريخى والآخر للبحث الوصفى .

وقد كان للقدماء من علماء العربية بحوث فى الأصوات اللغوية شهد المحدثون أنها جليلة القدر بالنسبة إلى عصورهم . وقد أرادوا بها خدمة اللغة العربية والنطق العربى ،ولاسيما فى الترتيل القرآنى . ولقرب هؤلاء العلماء من عصور النهضة العربية واتصالهم بفصحاء العرب كانوا مرهفى الحس ،دقيقى الملاحظة ، فوصفوا لنا الصوت العربى وصفاً أثار دهشة المستشرقين وإعجابهم . غير أن المتأخرين منهم قد اكتفوا بترديد كلمات المتقدمين دون فهم لها أو نظر فيها ، فقد أصاب بعض هذه الأصوات تطور لم يلحظوه ولم يفطنوا إليه ، ووقفوا بهذا حيث وقف القدماء ، لم يستكملوا تلك البحوث القيمة ، بل رووها مبتورة حيناً وممسوخة حيناً آخر .

فلما كان العصر الحديث واتصلت ثقافتنا بثقافات أوربا ، ورأينا لعلماء اللغات فيها تلك التجارب الصوتية التى يخيل للناظر إليها أنها نوع من السحر بدأ بعض أعضاء البعثات اللغوية يعنون بهذا الأمر ، ويحاولون الانتفاع به فى خدمة اللغة العربية .

وكتابى هذا وإن كان الأول من نوعه فى اللغة العربية ، لا أدعى له الكمال فى كل نواحيه ، وإنما أعده مجهوداً متواضعا أبغى به نشر طرف من هذه الثقافة اللغوية بين من يعنون بالبحث اللغوى فى مصر راجياً أن ينتفع به طلاب الجامعات المصرية والمعاهد العالية فى دراساتهم اللغوية ؟

إبراهيم أنيس

الفصل الأول

(١)

ظاهرة الصوت

الصوت ظاهرة طبيعية ندرك أثرها دون أن ندرك كنهها . فقد أثبت علماء الصوت بتجارب لا يتطرق إليها الشك أن كل صوت مسموع يستلزم وجود جسم يهتز ، على أن تلك الهزات لا تدرك بالعين فى بعض الحالات . كما أثبتوا أن هزات مصدر الصوت تنتقل فى وسط غازى أو سائل أو صلب حتى تصل إلى الأذن الإنسانية .

والهواء هو الوسط الذى تنتقل خلاله الهزات فى معظم الحالات ، فخلاله تنتقل الهزات من مصدر الصوت فى شكل موجات حتى تصل إلى الأذن . وسرعة الصوت كما قدرها العلماء هى حوالى ٣٣٢ متراً فى الثانية . وكان علماء الطيران يطمحون فى أن يصلوا بسرعة طائراتهم إلى مثل سرعة الصوت حتى تمكنوا من هذا أخيراً .

وتتوقف شدة الصوت أو ارتفاعه على بعد الأذن من مصدر الصوت ، فعلى قدر قرب الأذن من ذلك المصدر يكون وضوح الصوت وشدته ، كما تتوقف شدة الصوت على سعة الاهتزازة ، وهى المسافة المحصورة بين الوضع الأصلى للجسم المهتز وهو فى حالة السكون وأقصى نقطة يصل إليها الجسم فى هذه الاهتزازة . فعلى قدر اتساع هذه المسافة يكون علو الصوت ووضوحه . هذا ويساعد على شدة الصوت أو علوه اتصال مصدره بأجسام رنانة ، ولهذا شدت الأوتار الموسيقية على ألواح أو صناديق رنانة ليقوى الصوت ويتضح . أما درجة الصوت Pitch

فهى المقياس الموسيقى الذى يدركه من له إلمام بفن الموسيقى . ويقسم السلم الموسيقى إلى درجات هي مايرمز لها فى الموسيقى الأوربية بالرموز :

do, re, mi, fa, sol, la, si

دو رى مى فا صول لا سى

أما سلم الموسيقى الشرقية فلايزال موضع خلاف بين موسيقيينا • والصوت قد يكون عميقاً وهو الذى يسميه الموسيقيون بالقرار ، كما قد يكون رفيعاً حاداً . وعلى قدر انتقال الصوت فى السلم الأوربى من do إلى si يقل عمقه أو تزداد حدته فتختلف درجته تبعاً لهذا . وصاحب الأذن الموسيقية يستطيع بسهولة التفرقة بين شدة الصوت ودرجته . ويمكن المرء أن يلحظ هـذه التفرقة حين يكون أمام آلة « الراديو » يستمع إلى أحد المغنين يغنى لحناً ذا درجات موسيقية خاصة ، فإذا أدار المستمع زراً خاصاً ارتفـع الصوت أو انخفض أى تغيرت شـدة الصوت دون أن يؤثر هـذا فى درجات الصوت للحن ; فهى هى لم يصبها أى تغير .

ودرجة الصوت كما برهن علماء الأصوات تتوقف على عدد الاهتزازات فى الثانية: فإذا زادت الاهتزازات أو الذبذبات على عدد خاص ازداد الصوت حدة وبذا تختلف درجته • وعدد الاهتزازات فى الثانية يسمى فى الاصطلاح الصوتى التردد . فالصوت العميق عدد اهتزازاته فى الثانية أقل من الصوت الحاد .

أما نوع الصوت فهو تلك الصفة الخاصة التى تميز صوتاً من صوت وإن اتحدا فى الدرجة والشدة• وهكذا نستطيع أن نميز صوت الكمنجة من العود رغم احتمال اتحادهما فى الدرجة والشدة . وتلك هى الصفة التى تميز صوتاً إنسانيا من صوت آخر . وكثير من الناس يستطيعون التمييز بين أصوات أصدقائهم فى « التليفون » بمجرد نطقهم ببضع كلمات . ويكيف نوع الصوت أو صفته عدة عوامل سنعرض لها فيما بعد .

(٢)

الصوت الإنسانى

هو كـكل الأصوات ينشأ من ذبذبات مصدرها فى الغالب الحنجرة لدى الإنسان . فعند اندفاع النفس من الرئتين يمر بالحنجرة فيحدث تلك الاهتزازات التى بعد صدورها من الفم أو الأنف ، تنتقل خلال الهواء الخارجى على شـكل موجات حتى تصل إلى الأذن . ولـكن الصوت الإنسانى معقد ؛ إذ يتركب من أنواع مختلفة فى الشدة ومن درجات صوتية متباينة ، كما أن لـكل إنسان صفة صوتية خاصة تميز صوته من صوت غيره من الناس . فليس صوت الإنسان فى أثناء حديثه ذا شدة واحدة أو درجة واحدة ، بل هو متعدد الشدة والدرجة وهو مع هـذا أيضاً ذو صفة خاصة تميزه من غيره من أصوات الناس . فالإنسان حين يتـكلم تتغير درجات صوته عند كل مقطع تقريبا . والبون بين درجات الصوت عندالغناء أبعد منه عندالـكلام ، على أنه فى الغناء الأوربى أبعد منه فى الغناء العربى .

ومصدر الصوت الإنسانى فى معظم الأحيان هو الحنجرة أو بعبارة أدق الوتران الصوتيان فيها . فاهتزازات هذين الوترين هى التى تنطلق من الفم أو الأنف ثم تنتقل خلال الهواء الخارجى .

وتتوقف درجة صوت المرء على سنه وجنسه ، فالأطفال والنساء أحد أصواتاً من الرجال . وذلك لأن الوترين الصوتيين فى الأطفال والنساء أقصر وأقـل ضخامة ، ويؤدى هذا إلى زيادة فى سرعتهما وعدد ذبذباتهما فى الثانية . والطفل حين يصل إلى البلوغ يتضخم وتراه الصوتيان فجأة كما يطولان . ويترتب على هذا عمـق فى صوته يجعله أقرب إلى الرجال منه إلى النساء ، لأن عدد ذبذبات الوترين الطويلين الضخمين أقـل كثيراً . وضخام الأجسام

من الناس هم عادة عميقو الأصوات ، هذا وصوت الرجل عرضة للتغير فى درجته بين الخمسين والستين من عمره .

وقد لاحظ علماء التشريح أن الوترين الصوتيين فى الخصى أقصر وأقل ضخامة ، مما أدى إلى تلك الظاهرة الشائعة بين الخصيان ، وهى أن أصواتهم أشبه بأصوات النساء ، لأن عملية الخصاء قبل سن البلوغ تضمر الوترين الصوتيين .

ويتكلم الإنسان فتختلف درجة صوته عند معظم المقاطع ؛ ولكن يندر أن يكون تغيير درجة الصوت فى أثناء الكلام فجائياً ، بخلاف الغناء .

وطول الوتر الصوتى فى الإنسان البالغ حوالى ٢٣ مليمتراً ، ويمتد أحياناً إلى ٢٧ مليمتراً . وعدد الذبذبات فى الحنجرة كما قدرها جمهور العلماء يتراوح فى الغناء بين ٦٠ ذبذبة فى الثانية ومئات الذبذبات ، ولكنه فى الكلام المبين الواضح لاتكاد تجاوز الذبذبات مئتين أو مايقرب من هذا .

ومن الحقائق العلمية التى تدعو إلى الدهشة والعجب أن علماء التشريح لم يلحظوا أى فرق مادى بين حناجر النوع الإنسانى . فحنجرة الإنسان ذى الصوت الرخيم الذى يسحر الألباب والعقول لا تكاد تختلف عن حنجرة فلاح بسيط من الناحية التشريحية . فليس فى حنجرة المطرب أى عنصر مادى تمتاز به على حنجرة غيره من الناس ، وإنما الفرق فى الموهبة التى اختص بها وهى سيطرته على عملية التنفس فهو أقدر من غيره على تنظيم تنفسه والسيطرة على الهواء المندفع من الرئتين والقدرة على تكييفه وإخضاعه لنظام خاص فى جريانه من الرئتين حتى يصدر من الفم أو الأنف . هذا هو كل شىء فى الغناء أو مايسمى جمال الصوت. وقليل من الناس يستطيعون السيطرة على تنفسهم وإخضاعه لإرادتهم كما يفعل المغنون. فالمغنى يستطيع بعد شىء من المران طبعاً أن يملك زمام تنفسه وأن يحدد عدد ذبذبات الوترين الصوتيين كما يشاء ؛ وبذلك ينوع فى درجات صوته كما يوحى إليه فنه . ومن تلك الدرجات الصوتية المتباينة يتكون مجموعة منسجمة من الأصوات ،

هى التي اصطلحنا على تسميتها بالغناء الجميل • وعنصر المران ضرورى للمغنى ، ولكن الاستعداد الشخصى هو العنصر الأساسى فى جمال الصوت • وتسرف الكثرة الغالبة من الناس فى عملية التنفس أو لا تحسن استغلالها ، فيضيع النفس سدى ولا تنتظم له حال • ولا غرابة فى هذا فليس كل الناس مغنين أو أصحاب أصوات جميلة منسجمة •

ويمكن أن نلخص العوامل التى تؤثر فى درجات الصوت الإنسانى فيما يلى :

(ا) السيطرة على الهواء المندفع من الرئتين وتحديد نسبة مايندفع منها مع التنفس ، وتنظيم هذا حسب الإرادة •

(ب) مرونة عضلات الحنجرة ، فعلى قدر هذه المرونة تتوقف درجة الصوت فكلما ازدادت مرونته كثرت الذبذبات وازداد الصوت حدة .

(حـ) طول الوترين الصوتيين يؤثر فى درجة الصوت تأثيراً عكسياً ، بمعنى أنه كلما طال الوتران الصوتيان قلت الذبذبات ، وترتب على قلتها عمق الصوت حتى يصل فى بعض الحالات إلى ما يسميه الموسيقيون بالقرار .

(د) ولكن نسبة شد الوترين تؤثر تأثيراً مطرداً فى درجة الصوت • فالصوت المنبعث من ذبذبة وترين مشدودين شداً محكماً يكون صوتاً حاداً كصوت المغنيات، فى حين أن غلظ الوترين فى الرجال يقلل من نسبة هذا التوتر ، مما يجعل درجة الصوت عند الرجال عميقة لأن عدد الذبذبات أقل .

أما شدة الصوت الإنسانى فتتوقف إلى حد كبير على سعة الرئتين ونسبة ضغط الهواء المندفع منهما . هذا إلى توقفها أيضاً على تلك الفراغات الرنانة المضخمة للصوت وهى التى يمر خلالها الهواء بعد الحنجرة ، ففراغ الحلق وفراغ الفم والفراغ الأنفى كلها تستغل فى تضخيم الصوت ومنحه صفته الخاصة به التى تميزه من غيره من الأصوات . فهى بمثابة تلك الصناديق المجوفة التى تشد عليها أوتار الكمنجة أو العود . لأن أصوات الحنجرة وحدها ضعيفة ، ولكنها

تقوى بمرورها فى تلك الفراغات الرنانة . واختلاف حجم هذه الفراغات بين الناس يجعل أصواتهم المختلفة متميزة . رغم أن تلك الفراغات لا تكاد تؤثر فى درجات أصواتهم، فقد تكون متحدة الدرجات ، أى أن عدد الذبذبات فى الحنجرة واحدة ولكن مرور تلك الذبذبات خلال الفراغات يكسبها لوناً خاصاً بها يساعدنا على تمييز أصوات الأصدقاء من غيرها .

(٣)

كيف بدأ الصوت اللغوى

هذا بحث طويل اضطربت فيه أقوال القدماء والمحدثين ولا نحب أن نعرض له هنا بإسهاب، ولكنا سنكتفى بالمرور به مراً سريعاً تاركين بحث النظريات المختلفة بصدد نشأة الكلام لمجال آخر .

لقد أجمع المحدثون (*) على أن مرحلة الكلام عند الإنسان متأخرة إذا قيست بتطوره فوق سطح البسيطة . وهم يرجحون أن الإنسان الأول قد حاول النطق فى عصوره الحجرية ، وكان الدافع الأول لهذا النطق مجرد المصادفة . فقد نمت فيه قوة السمع قبل قوة النطق ، فسمع الأصوات الطبيعية حوله ، ولكنه لم يقلدها فى هذه المرحلة، لأن هذا يفترض له حينئذ قدرة عقلية لم يستطع المحدثون أن يتصوروها للإنسان فى هذه المرحلة من حياته . فتقليده للأصوات الطبيعية حوله مرحلة متأخرة ، جاءت بعد أن حاول هو النطق أولا . ولم يكن لنطقه الأول غرض خاص يرمى إليه بل كان عفوا أو إن شئت فقل غرزياً . وليس يعنينا أن نقف هنا طويلا ، وإنما الذى نحاول أن نتصوره، هو إنسان يستغل أصوات نفسه وأصوات المظاهر الطبيعية فى حاجاته الأولية ، كالجاذبية الجنسية إلى أليفه ، أو محاولة صد الأعداء عنه ، وحفظ النوع .

(*) انظر مقالا المؤلف حول نشأة الكلام فى صحيفة دار العلوم العدد الرابع السنة التاسعة ، وكذلك كتابه « دلالة الألفاظ » .

وحفظ النوع يدعو إلى تكوين حياة اجتماعية يتصل فيها النوع الإنسانى بعضه ببعض ، كما يدعو إلى الالتجاء إلى كل الوسائل لحماية النسل وبناء الوطن . فالحياة الاجتماعية منذ نشأة الإنسان هى التى ساعدت إلى حد كبير على نمو لغته ولكن العامل الأكبر لرقى هذه اللغة وبلوغها ما بلغت ، هو ما امتاز به الإنسان من ذكاء لم يشركه فيه غيره من الحيوانات . فكثير من الحيوانات تعيش حياة اجتماعية ، ولها من الحناجر ما تستطيع به التصويت بأنواع متباينة من الأصوات ، ولكنها لم تستطع أن تنطق كما نطق الإنسان ، لأنها لم توهب القدرة العقلية الكافية أو الاستعداد الفطرى لتكون من تلك الأصوات لغة لها . فلا غرابة إذن أن سمى القدماء الإنسان حيواناً ناطقاً ، مريدين بهذا أنه حيوان ذكى ذو قوة عقلية خارقة . وقد أظهر التشريح كبراً فى حجم المخ الإنسانى ولا سيما الجزء الخاص بالكلام منه . وقد ساعده ذكاؤه على ترجمة الأصوات وتفسيرها ثم تقليدها . وأدى كل هذا فى آخر الأمر إلى تكون لغته ذات القواعد والأصول .

والغناء الإنسانى لمجرد الطرب متأخر الوجود عن الكلام أو النطق . وربما كان الغناء أول الأمر لمجرد الجاذبية الجنسية ولفت نظر الأليفة ، ثم تطور فأصبح لإشباع رغبة فنية فى الإنسان . حتى الحيوانات التى تغنى يندر ألا يكون لها غرض خاص من غنائها . فالبلبل الذى يصدح فى الغابات يرمى بغنائه إلى اجتذاب أليفه . ولا نكاد نعثر فى عالم الحيوان على واحد منها يغنى لمجرد إشباع رغبته فى الغناء ، دون أن يكون له غرض خاص يرمى إليه ، لأن حياة الحيوان شاقة مفعمة بالمآسى والجهاد فليس لديه فرصة فراغ يقضيها فى مجرد لهو أو طرب . وربما كان الإنسان وحده دون سائر الحيوانات هو الذى يستغل اللسان والحنك والشفتين فى تكييف صوته على النحو الذى نألفه .

(٤)

أهمية السمع فى إدراك الصوت اللغوى

تصدر الأصوات من الإنسان فتنتقل أولا خلال الهواء الخارجى على شكل موجات حتى تصل إلى الأذن الإنسانية ، ومنها إلى المخ فتترجم هناك وتفسر . فالسمع هو الحاسة الطبيعية التى لابد منها لفهم تلك الأصوات .

ولقد سبق السمع فى نموه ونشأته نمو الكلام والنطق . والسمع أقوى من الحواس الأخرى وأعم نفعاً للإنسان من النظر مثلا فى تمييز المرئيات ، ومن الشم فى التعرف على الروائح . ومزايا السمع يمكن إدراكها مما يلى :

١ — إن إدراك الأصوات اللغوية عن طريق السمع يدع سائر الأعضاء حرة طليقة ، فيمكن الانتفاع بها فى ضروريات الحياة الأخرى . فالتفاهم بالإشارة يحرم الإنسان من يديه وأطرافه فلا تستغل فى وظائفها الأصلية التى خلقت لها ، هذا إلى أن الالتجاء إلى السمع يعرف النظر إلى وظيفته الأصلية دون حاجة إلى التعبير بالنظر عما يختلج فى النفس .

٢ ـ والسمع يدرك الأصوات من مسافة قد لا يستطيع النظر عندها إدراكها . فحين تحول موانع من جبال ووديان لا يستطيع المرء أن يستغل حاستى النظر والشم ، ولكنه يدرك رغم ذلك الأصوات واتجاهاتها . هذا إلى أن الصوت قد ينتقل ضد التيارات الهوائية بخلاف الشم الذى تذهب به الرياح أينما اتجهت .

٣ — والسمع حاسة تستغل ليلا ونهاراً ، وفى الظلام والنور ، فى حين أن المرئيات لا يمكن إدراكها إلا فى النور .

وأخيراً وليس آخـــراً استطاع الإنسان أن يدرك عن طريق تلك المقاطع الصوتية التى نسميها كلاماً ، أفكاراً أرق وأسمى ممـــا قد يدركه بالنظر

الذى مهما عبر فتعبيره محدود المعانى غامضها ، اللهم إلا عند الشعراء ذوى الخيال الخصب الذين يستلهمون أفكاراً سامية من نظرات الحسان . فاختلاف درجات الصوت وتعددها ، وكذلك اختلاف شدته ونوعه ، كل هذا ساعد على تكون النطق الإنسانى الذى نهض به فوق المخلوقات . وقد عبر عن هذا Romanes بكلمته المأثورة « لو لم يوهب الإنسان مقدرة النطق والإفصاح عما يخالج نفسه لكان من المحتمل ألا ينهض فوق أحط أنواع القردة » .

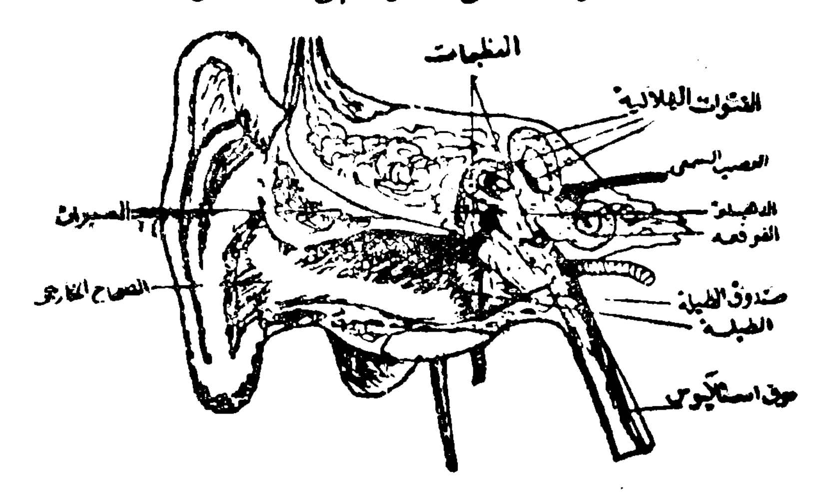
وليس علينا لندرك فضل السمع إلا أن نقارن بين ما يمكن أن يصل إليه إنسان فقد بصره ، من رقى عقلى وبين آخر أصم . فالنبوغ كثير الاحتمال بين العمى ، فى حين أنه نادر بين الصم وإن كانوا مبصرين .

وربما لم يستغل الإنسان حاسة السمع الاستغلال الكافى فى العصور القديمة ، ولكنه الآن ، وبعد اكتشاف الراديو ، أمكن أن يصبح السمع وسيلة من أهم وسائل التثقيف الشعبي والمتع النفسية ؛ بل إن ما أصابه الإنسان الحديث من تقدم فى المخترعات التى يتمتع بها السمع الإنسانى لأجل من تقدمه فى أية ناحية أخرى .

والأصل فى الفهم والإفهام أن يكون عن طريق تلك الوسيلة الطبيعية ، التى هى عماد كل نمو عقلى وأساس كل ثقافة ذهنية ، تلك الوسيلة التى أشار إليها ابن خلدون فى مقدمته بكلمته المشهورة حين قال « السمع أبو الملكات اللسانية » . وليست الكتابة إلا وسيلة ناقصة لتصوير اللغات ، فيها من الرموز ما لا حاجة إليه ، كما ينقصها كثير من الرموز حتى يمكن أن يكون تصويرها للغة صحيحاً دقيقاً ، ثم هى مع هذا حديثة النشأة إذا قيست بنشأة النطق الإنسانى ، صنعها الإنسان ولم يتقن صنعها . ولا تزال تلك الرموز الكتابية بمثابة الجسد الهامد حتى يبعث فيها النطق حياة . ويتنبأ لنا العصر الحديث بمستقبل نفقد فيه الكتابة قدرها ، ويصبح فيه التفاهم بين من بعدت بينهما الشقة عن طريق التسجيل الصوتى ، نملى على آلة التسجيل ما نشاء فوق أسلاك

أو أشرطة نبعث بها إلى من نحب ، فإذا وضعها فى آلة الاستقبال وأدار الآلة سمع نفس الصوت ونفس الكلمات ونفس المقاطع التى أملاها المراسل دون تحريف أو تصحيح ودون تزوير أو خداع كأنما هو يجالسه ويتحدث إليه . وليس مثل هذا المستقبل فيما أعتقد ، ببعيد .

وأداة السمع الطبيعية هى الأذن . وهى معقدة التركيب يقسمها علماء التشريح إلى ثلاثة أقسام : الأذن الخارجية ، وتتركب من صيوان الأذن وصماخها وتنتهى الأذن الخارجية بما يسمى عادة بطبلة الأذن . ثم يلى هذا الأذن الوسطى التى فيها عظيمات ثلاث صغيرة تسمى عادة بالمطرقة والسندان والركاب . أما الأذن الداخلية ففيها أعضاء السمع الحقيقية ، لانتشار ألياف العصب السمعى بأجزائها ، وفى الأذن الداخلية السائل الذى يسمى السائل التيهى وفيه تنغمس الأعصاب السمعية



(شكل ١) أجزاء الأذن

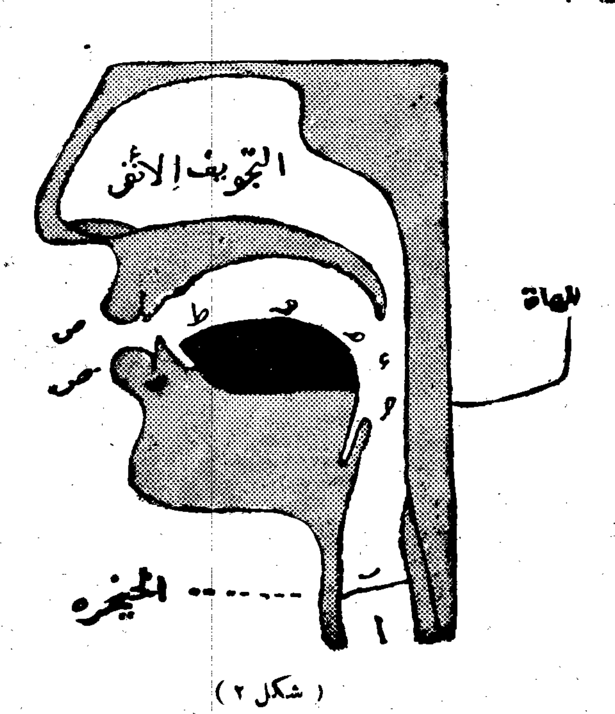
فحين تحدث الأصوات تموجات فى الهواء الخارجى ، يستقبلها الصوان ثم تمر فى القناة السمعية الخارجية الى أن تصل الى الغشاء الطبلى ، فيهتز اهتزازات مناسبة لتلك التموجات ، وتصل هذه الاهتزازات إلى الأذن الداخلية بواسطة العظيمات الثلاث ، ثم تسرى هذه الاهتزازات فى السائل التيهى ، وتحدث به تموجات مناسبة لها ، فتنبه أطراف الأعصاب المغموسة فيه ، وتنقل هذه الأعصاب ما تشعر به أطرافها إلى المراكز السمعية فى المخ ، وعند ذلك ندرك الأصوات المختلفة ونتعرف على اتجاهاتها .

الفصل الثانى

(١)

أعضاء النطق

قبل أن نعرض لدراسة الأصوات اللغوية وما تتركب منه ، لا بد من شرح أعضاء النطق وأجزائها المتباينة. وإن نظرة واحدة إلى الشكل الآتى لتوضح تلك الأعضاء .



(شكل ٢)

(ا) القصبة الهوائية . (ب)موضع الوترين الصوتيين
(حـ) فتحة المزمار . (د) الحلق .
(هـ و ط) اللسان: أقصاه ووسطه وطرفه

(م ع س) الحنك الأعلى : أقصاه ووسطه وأصول الثنايا .

(ى) الأسنان عليا وسفلى .　　　(ص) الشفتان عليا وسفلى .

١ — القصبة الهوائية :

وفيها يتخذ النفس مجراه قبل اندفاعه إلى الحنجرة . وقد كان يظن قديماً أن لاأثر لها فى الصوت اللغوى ، بل هى مجرد طريق للتنفس ، ولكن البحوث الحديثة برهنت على أنها تستغل فى بعض الأحيان كفراغ رنان ذى أثر بين فى درجة الصوت ، ولاسيما إذا كان الصوت عميقاً .

٢ — الحنجرة :

لقد عد القدماء والمحدثون هذا العضو الأداة الأساسية للصوت الإنسانى لأنها تشتمل على الوترين الصوتيين اللذين يهتزان مع معظم الأصوات هزات منتظمة أمكن عدها فى الثانية ، وترتب على معرفة عدد تلك الهزات الحكم على درجة الصوت .

والحنجرة عبارة عن حجرة متسعة نوعا ومكونة من ثلاثة غضاريف الأول أو العلوى منها ناقص الاستدارة من خلف وعريض بارز من الأمام ويعرف الجزء البارز منه بتفاحة آدم،أما الغضروف الثانى فهو كامل الاستدارة ؛ والثالث مكون من قطعتين موضوعتين فوق الغضروف الثانى من خلف .

والوتران الصوتيان هما رباطان مرنان يشبهان الشفتين ، يمتدان أفقيا من الخلف إلى الأمام حيث يلتقيان عند ذلك البروز الذى نسميه بتفاحة آدم . أما الفراغ الذى بين الوترين فيسمى بالمزمار . وفتحة المزمار تنقبض وتنبسط بنسب مختلفة مع الأصوات ، ويترتب على هذا اختلاف نسبة شد الوترين واستعدادهما للاهتزاز ، فكلما زاد توترهما زادت نسبة اهتزازهما فى الثانية ، فتختلف تبعا لهذا درجة الصوت . وللمزمار غطاء يسمى عادة لسان المزمار وظيفته الأصلية أن يكون بمثابة صمام يحمى طريق التنفس فى أثناء عملية البلع .

٣ — الحلق :

وهو الجزء الذى بين الحنجرة والفم . وهو فضلا عن أنه مخرج لأصوات لغوية خاصة ، يستغل بصفة عامة كفراغ رنان يضخم بعض الأصوات بعد صدورها من الحنجرة .

٤ — اللسان :

تعود القدماء أن ينسبوا النطق إلى هذا العضو بصفة خاصة ، ولا غرابة فى هذا ، فاللسان عضو هام فى عملية النطق ، لأنه مرن وكثير الحركة فى الفم عند النطق ، فهو ينتقل من وضع إلى آخر فيكيف الصوت اللغوى حسب أوضاعه المختلفة . وقد قسمه علماء الأصوات إلى ثلاثة أقسام : الأول منها أول اللسان بما فى ذلك طرفه ، والثانى وسطه ، والثالث أقصاه .

٥ — الحنك الأعلى :

هو العضو الذى يتصل به اللسان فى أوضاعه المختلفة . ومع كل وضع من أوضاع اللسان بالنسبة لجزء من أجزاء الحنك الأعلى تتكون مخارج كثير من الأصوات . وينقسم الحنك الأعلى إلى أقسام عدة هى : الأسنان ، ثم أصولها ، ثم وسط الحنك أو الجزء الصلب منه ، ثم أقصى الحنك أو الجزء اللين منه ثم اللهاة .

٦ — الفراغ الأنفى :

وهو العضو الذى يندفع خلاله النفس مع بعض الأصوات كالميم والنون . هذا إلى أنه يستغل كفراغ رنان يضخم بعض الأصوات حين النطق .

٧ — الشفتان :

للشفتين وظيفة ملحوظة مع بعض الأصوات ، فهما تنفرجان حيناً وتستديران أو تنطبقان حيناً آخر ، وهكذا نلحظ تغييراً فى شكل الشفتين أثناء النطق وتختلف عادات المتكلمين فى استغلال حركة الشفتين والانتفاع بهما .

فمن الشعوب من تتميز عادات النطق لديهم بكثرة الحركة فى الشفتين ، ومنهم من يقتصدون فى هذا ، كالعرب بوجه عام ، أو الناطقين باللغة العربية .

تلك هى أعضاء النطق التى يشار إليها دائماً فى دراسة الأصوات وعملية النطق . على أنه من الواجب أن يضاف إليها عضو آخر لا يقل أهمية إن لم يكن أكثر منها أهمية وهو الرئتان . فبغير الرئتين لا تكون عملية التنفس وبغير التنفس لا يكون الكلام ، بل لا تكون الحياة نفسها . فبعض الأعضاء التى سبقت الإشارة اليها قد يصيبه اضطراب أو خلل ، ومع هذا فتظل عملية النطق تؤدى فى صورة من الصور ، ولكن الرئتين لا يمكن الاستغناء عنها فى النطق .

وعملية التنفس عادة تتكون من شهيق وزفير ، أى إدخال الهواء وإخراجه والمرء حين يكون صحيحاً معافى لا يكاد يشعر بهذه العملية ، كما أنه لا يسمع لها صوتاً ، لأن مجرى الهواء معها يكون خالياً من أية عقبة تعترضه . فإذا كان المرء مصاباً بزكام أو برد فقد يسمع خشخشة لتنفسه . وكذلك قد يحدث للنائم أن أقصى حنكه الأعلى يصيبه نوع من التراخى ، يترتب عليه ذلك الصوت الذى نسميه شخيراً . وهذا النوع من الأصوات ليس من موضوع بحثنا فى قليل أو كثير ، ولكننا نبغى البحث فى الأصوات المقصودة التى لنا إرادة فى صدورها وهى التى تتكون من تغيير وضع أحد تلك الأعضاء الآنفة الذكر فى أثناء مرور النفس إلى خارج الفم .

(٢)

جهر الصوت وهمسه

إن انقباض فتحة المزمار وانبساطها عملية يقوم بها المرء فى أثناء حديثه ، دون أن يشعر بها فى معظم الأحيان . وحين تنقبض فتحة المزمار يقترب الوتران الصوتيان أحدهما من الآخر فتضيق فتحة المزمار ، ولكنها تظل تسمح بمرور

النفس خلالها . فإذا اندفع الهواء خلال الوترين وهما فى هذا الوضع يهتزان اهتزازاً منتظما ، ويحدثان صوتاً موسيقياً تختلف درجته حسب عدد هذه الهزات أو الذبذبات فى الثانية ، كما تختلف شدته أو علوه حسب سعة الاهتزازة الواحدة . وعلماء الأصوات اللغوية يسمون هذه العملية بجهر الصوت . والأصوات اللغوية التى تصدر بهذه الطريقة أى بطريقة ذبذبة الوترين الصوتيين فى الحنجرة تسمى أصواتاً مجهورة فالصوت المجهور هو الذى يهتز معه الوتران الصوتيان .

ولاختبار جهر الصوت يمكن أن تجرى إحدى التجارب الآتية :

(ا) حين نضع الأصبع فوق تفاحة آدم ثم ننطق بصوت من الأصوات وحده مستقلا عن غيره من الأصوات . ولا يتأتى هذا إلا بأن نشكل الصوت موضع التجربة بذلك الرمز الذى يسمى السكون مثل «بْ» . ويجب الاحتراز من الإتيان قبله بألف وصل كما كان يفعل القدماء من علماء الأصوات ، لأن الصوت حينئذ لا يتحقق فيه الاستقلال الذى هو أساس التجربة الصحيحة . فإذا نطقنا بالصوت وحده وكان من المجهورات نشعر باهتزازات الوترين الصوتيين شعوراً لا يحتمل الشك .

(ب) وكذلك حين نضع أصابعنا فى آذاننا ثم ننطق بنفس الصوت وهو وحده مستقلا عن غيره نحس برنة الصوت فى رؤوسنا .

(حـ) والتجربة الثالثة هى أن يضع المرء كفه فوق جبهته فى أثناء نطقه بالصوت موضع الاختبار فيحس برنين الصوت ، وذلك الرنين هو صدى ذبذبة الوترين الصوتيين .

وعكس الجهر فى الاصطلاح الصوتى هو الهمس . فالصوت المهموس هو الذى لا يهتز معه الوتران الصوتيان ولا يسمع لهما رنين حين النطق به . وليس معنى هذا أن ليس للنفس معه ذبذبات مطلقاً وإلا لم تدركه الأذن ، ولكن المراد بهمس الصوت هو صمت الوترين الصوتيين معه ، رغم أن الهواء فى أثناء اندفاعه

من الحلق أو الفم يحدث ذبذبات يحملها الهواء الخارجى إلى حاسة السمع فيدركها المرء من أجل هذا .

والأصوات الساكنة [1] consonants المجهورة فى اللغة العربية كما تبرهن عليها التجارب الحديثة هى ثلاثة عشر : ب ج د ذ ر ز ض ظ ع غ ل م ن . « يضاف إليها كل أصوات اللين [2] Vowels » بما فيها الواو والياء .

فى حين أن الأصوات المهموسة هى إثنا عشر : ت ث ح خ س ش ص ط ف ق ك ه .

وقد يخيل المرء حين ينظر إلى عدد كل من المجهورات والمهموسات أن نسبتهما متعادلة فى الكلام ، ولكن الحقيقة غير ذلك ، لأن العدد لايعنينا بقدر مايعنينا نسبة شيوع كل منها فى الكلام . فالكثرة الغالبة من الأصوات اللغوية فى كل كلام مجهورة ، ومن الطبيعى أن تكون كذلك وإلا فقدت اللغة عنصرها الموسيقى ورنينها الخاص الذى نميز به الكلام من الصمت والجهر من الهمس والإسرار . فالحنجرة هى أداة الصوت الأساسية وما يتكون فى غيرها من أصوات إنسانية لايكون كلاماً مسموعاً واضحاً ذا درجات موسيقية منسجمة يمكن ضبطها وقياسها .

وقد برهن الاستقراء على أن نسبة شيوع الأصوات المهموسة فى الكلام لاتكاد تزيد على الخمس أو عشرين فى المائة منه ، فى حين أن أربعة أخماس الكلام تتكون من أصوات مجهورة .

ولم يقف النطق الإنسانى عند مرحلة الصياح بأصوات مجهورة أو مهموسة ذات درجات صوتية متباينة ، طوراً تعلو وطوراً تنخفض ، بل تطورت إلى كلمات مستقلة تكونت منها لغات ذات قواعد وأصول . وبذلك امتاز نطقه عن غناء الطيور وأصوات الحيوانات . وقد رمزت تلك الكلمات وهى مركبة فى صورة جمل إلى خير مايدور فى الذهن الإنسانى من أفكار فعبرت عن سريرة نفسه

(١) اصطلاح لما يسمى بالحروف . وسيأتى شرح هذا .

(٢) اصطلاح لما يسمى بالحركات .

واستغلت كأداة بين أبناء جنسه ، يضمنها مكنون أفكاوه خيرها وشرها أيضاً .

ولبعض الأصوات المجهورة فى اللغة العربية نظائر مهموسة مثل د ذ ز ض ع غ التى نظائرها المهموسة على الترتيب الآتى هى : ت ث س ط ح خ ومن الأصوات ماهو مجهور ولامهموس [1] له فى العربية الفصيحة مثل ب ج ر ظ ل م ن . ومنها ما هو مهموس ولامجهوز له : مثل ش ص ف ق ك ه . واختلاف الأوضاع التى تتخذها أعضاء النطق يولد أنواعاً لاحصر لها من الأصوات اللغوية بعضها شديد والآخر رخو .

(٣)

شدة الصوت ورخاوته

تصور معى قناة صغيرة تنحدر فيها المياه مسافة ما قبل أن تصب مياهها فى بحيرة أو بركة ، وتصور أن مجرى هذه القناة يختلف فى طبيعة أرضه ، فهى فى مكان منه صخرية وفى آخر منه جيرية وفى ثالث أرض رخوة سهلة التآكل . ويترتب على مثل هذه الطبيعة الأرضية أن نرى المسافة بين شاطئى القناة تضيق حينا وذلك فى الجزء الصخرى وتتسع نوعاً ما فى الجزء الجيرى ثم تزداد اتساعا فى الأرض الرخوة الطينية . فإذا تتبعنا مجرى القناة واستمعنا إلى الماء فى جريانه وجدنا له خريراً شديداً يكاد يكون صخباً حين يضيق مابين الشاطئين، ثم لا نكاد نسمع له خريراً حين تتسع المسافة بينهما ، بل ينساب انسياباً هادئاً رفيقاً ، فإذا تصورنا مع هذا أن مشروعا هندسياً قضى ببناء هويس فى جهة من جهات هذا المجرى يفتح ويغلق فى سرعة لا تكاد تجاوز نصف الثانية ، سمعنا للماء حينئذ أصواتاً انفجارية متتابعة ، نتيجة انحباس الماء وانطلاقه فى فترات متوالية سريعة جداً .

---

(١) قد توجد تلك النظائر المجهورة أو المهموسة فى اللهجات العربية الحديثة كما سنبين

ومثل مجرى الماء على هذه الصور الخيالية مثل مجرى النفس فى أثناء الكلام نراه يضيق حيناً فنسمع لمروره صفيراً أو حفيفا، ويتسع حيناً فلا نكاد نسمع له حفيفاً، وقد ينحبس فى مكان ما لحظة سريعة جداً بعدها ينطلق بقوة وهنا نلحظ له انفجاراً ودوياً، وهكذا تتكون ثلاثة أنواع من الأصوات: تلك التى يضيق معها مجرى النفس، والتى يتسع لها المجرى، وأخيراً تلك التى يحدث النفس معها انفجاراً أو ما يشبه الانفجار.

فحين تلتقى الشفتان التقاء محكماً فينحبس عندهما مجرى النفس المندفع من الرئتين لحظة من الزمن بعدها تنفصل الشفتان انفصالا فجائياً، يحدث النفس المحبس صوتاً انفجارياً، هو ما نرمز إليه فى الكتابة بحرف الباء. فهذا النوع من الأصوات الانفجارية هو ما اصطلح القدماء على تسميته بالصوت الشديد وما يسميه المحدثون انفجارياً « Plosive ».

وليس ضرورياً أن يكون انحباس النفس بالتقاء الشفتين، بل قد ينحبس النفس فى مخارج عدة، كأن يلتقى طرف اللسان بأصول الثنايا التقاء محكماً فلا يسمح بمرور الهواء لحظة قصيرة من الزمن، بعدها ينفصل العضوان فيندفع الهواء المحبوس فجأة ويحدث صوتاً انفجارياً هو الذى نرمز إليه بالدال أو التاء، وكذلك قد ينحبس الهواء بالتقاء أقصى اللسان بأقصى الحنك الأعلى ثم ينفصلان فجأة فيحدث الهواء المندفع صوتاً انفجارياً نرمز إليه بالكاف أو الجيم القاهرية.

فكل من هذه الأصوات « الباء الدال التاء الكاف أو الجيم القاهرية » صوت شديد، والصفة التى تجمع بينها هى انحباس الهواء معها عند مخرج كل منها انحباسا لا يسمح بمروره حتى ينفصل العضوان فجأة ويحدث النفس صوتا انفجاريا.

والأصوات العربية الشديدة كما تؤيدها التجارب الحديثة هى:

ب ت د ط ض ك ق « والجيم القاهرية » . أما الجيم العربية الفصيحة

فيختلط صوتها الانفجارى بنوع من الحفيف يقلل من شدتها ، وهو مايسميه القدماء بتعطيش الجيم .

أما الأصوات الرخوة فعند النطق بها لاينحبس الهواء انحباسا محكما ، وإنما يكتفى بأن يكون مجراه عند المخرج ضيقا جداً ويترتب على ضيق المجرى أن النفس فى أثناء مروره بمخرج الصوت يحدث نوعا من الصفير أو الحفيف تختلف نسبته تبعا لنسبة ضيق المجرى . فمثلا حين يتصل أول اللسان بأصول الثنايا بحيث يكون بينهما فراغ صغير جدا ولكنه كاف لمرور الهواء نسمع ذلك الصفير الذى نعبر عنه بالسين أو الزاى . وكل صوت يصدر بهذه الوسيلة اصطلح القدماء على تسميته بالصوت الرخو . وهذه الأصوات يسميها المحدثون بالأصوات الاحتكاكية « Fricatives » ، وعلى قدر نسبة الصفير فى الصوت تكون رخاوته . وعلى هذا فأكثر الأصوات رخاوة تلك التى سماها القدماء بأصوات الصفير وهى السين والزاى والصاد . وإذا انسع الفراغ نسبيا بين العضوين الملتقيين قلت نسبة الصفير وحينئذ يمكن تسميته حفيفا بدلا من صفير . فعند النطق بالفاء مثلا تلتقى الشفة السفلى بالأسنان العليا تاركة بينهما فراغا كافيا لمرور الهواء ، ويحدث الهواء حينئذ نوعا من الحفيف يجعلنا نعد الفاء صوتاً رخواً أيضاً .

على أنه رغم التقاء العضوين مع بعض الأصوات قد يجد النفس له مسرباً يتسرب منه إلى الخارج وحينئذ يمر الهواء دون أن يحدث أى نوع من الصفير أو الحفيف ، ويلاحظ هذا مع اللام والنون والميم والراء . ولعل هذا هو الذى دعا القدماء إلى تسمية هذه الأصوات الأربعة بالأصوات المتوسطة ، أى التى ليست انفجارية ولا احتكاكية .

والمحدثون من علماء الأصوات قد برهنوا بتجاربهم على أن هذه الأصوات الأربعة تكون مجموعة خاصة لا هى بالشديدة ولا الرخوة وسموها Liquids أى الأصوات المائعة . أما تسميتها بالأصوات المتوسطة فليست تعنى أكثر من

أنها تخالف النوعين ، أى أنها ليست بالشديدة ولا الرخوة . وقد زاد القدماء على هذه الأصوات الأربعة « العين » فعدوها صوتاً متوسطا أيضاً . ولقلة التجارب الحديثة التى أجريت على أصوات الحلق لا نستطيع أن نرجح صحة هذه الصفة « للعين » بل نتركها لتجارب المستقبل لتبرهن عليها .

والأصوات الرخوة فى اللغة العربية كما تبرهن عليها التجارب الحديثة هى « مرتبة حسب نسبة رخاوتها » : [1] س ز ص ش ذ ث ظ ف هـ ح خ ع .

ولبعض الأصوات الشديدة نظائر رخوة : فالدال صوت شديد نظيره الرخو الزاى أو الذال ، والتاء صوت شديد نظيره الرخو السين أو الثاء ؛ والباء صوت شديد نظيره الرخو الفاء ، والطاء صوت شديد نظيره الرخو الصاد ، والضاد صوت شديد نظيره الرخو تلك الظاء العامية الشائعة فى نطقنا الآن ؛ والكاف صوت شديد نظيره الرخو الشين ، والجيم القاهرية صوت شديد نظيره الرخو الجيم الشامية الكثيرة التعطيش ، والقاف صوت شديد نظيره الرخو الخاء .

ومعنى التناظر هنا إما اتحاد المخرج بين كل من الصوتين المتناظرين أو قرب المخرجين أحدهما من الآخر . فمخرج الدال يكاد يكون هو مخرج الزاى ، ولا فرق بين الصوتين إلا فى أن النفس مع الدال ينحبس عند المخرج فيحدث انفجاراً ، وينطلق مع الزاى فيحدث صفيراً . انطق إذن بأى صوت شديد تجد النفس معه ينحبس فى مكان ما من المجرى ، فإذا استطعت السماح لهذا النفس المنحبس أن ينطلق ببطء ، نتج النظير الرخو . ولهذا لا ندهش حين نجد الكلمة الواحدة ينطق بها فى بعض اللهجات العربية القديمة مشتملة على صوت شديد ، وفى لهجات أخرى مشتملة على نظيره الرخو .

(١) الياء والواو حكم خاص سنعرض له فيما بعد .

ويجب ألا نخلط بين مخرج الصوت ومجراه . فالمخرج نقطة معينة فى المجرى عندها يتكون الصوت ، وعندها يضيق المجرى أو يتسع حسب طبيعة الصوت وصفته ، أما المجرى فهو طريقه من الرئتين حتى يندفع خارج الفم أو الأنف .

(٤)

الأصوات الساكنة وأصوات اللين

لقد كان من نتائج تحليل المحدثين للأصوات اللغوية أن قسموها إلى قسمين رئيسيين سموا الأول منهما Consonants والثانى Vowels ، ويمكن تسمية القسم الأول بالأصوات الساكنة والثانى بأصوات اللين [1] .

وأساس هذا التقسيم عندهم هو الطبيعة الصوتية لكل من القسمين . فالصفة التى تجمع بين كل أصوات اللين « Vowels » هى أنه عند النطق بها يندفع الهواء من الرئتين ماراً بالحنجرة ، ثم يتخذ مجراه فى الحلق والفم فى ممر ليس فيه حوائل تعترضه فتضيق مجراه كما يحدث مع الأصوات الرخوة ، أو تحبس النفس ولا تسمح له بالمرور كما يحدث مع الأصوات الشديدة . فالصفة التى تختص بها أصوات اللين هى كيفية مرور الهواء فى الحلق والفم وخلو مجراه من حوائل وموانع .

فى حين أن الأصوات الساكنة إما ينحبس معها الهواء انحباساً محكماً فلا يسمح له بالمرور لحظة من الزمن يتبعها ذلك الصوت الانفجارى ، أو يضيق مجراه فيحدث النفس نوعاً من الصفير أو الحفيف . وترتب على اختلاف كيفية مرور الهواء فى حالتى النطق بالأصوات الساكنة وأصوات اللين أن المحدثين لاحظوا أن الأصوات الساكنة على العموم أقل وضوحا فى السمع من أصوات اللين . فأصوات اللين تسمع من مسافة عندها قد تخفى الأصوات

---

(١) يجب التمييز بين اصطلاحنا وما عناه الصرفيون بحرف اللين . ويسمى بعض الدارسين أصوات القسم الأول بالصامتة ، وأصوات القسم الثانى بالصائتة .

الساكنة أو يخطأ فى تمييزها . فالفتحة مثلا « وهى صوت لين قصير » تسمع بوضوح من مسافة أبعد كثيراً مما تسمع عندها الفاء . ولهذا عد الأساس الذى بنى عليه التفرقة بين الأصوات الساكنة وأصوات اللين أساساصوتيا ، وهو نسبة وضوح الصوت فى السمع . فنى الحديث بين شخصين بعدت بينهما المسافة قد يخطىء أحدهما سماع صوت ساكن ، ولكنه يندر أن يخطىء سماع صوت لين ، وكذلك الحال فى الحديث بالتليفون .

وليست كل أصوات اللين ذات نسبة واحدة فى الوضوح السمعى ؛ بل منها الأوضح . فأصوات اللين المتسعة أوضح من الضيقة ، أى أن الفتحة أوضح من الضمة والكسرة. كما أن الأصوات الساكنة ليست جميعها ذات نسبة واحدة فيه ؛ بل منها الأوضح أيضاً ، فالأصوات المجهورة أوضح فى السمع من الأصوات المهموسة .

والوضوح السمعى الذى بنيت عليه التفرقة بين الأصوات الساكنة وأصوات اللين ، هو تلك الصفة الطبيعية فى الصوت لا المكتسبة من طول أو نبرة [1] . فصوت اللين أوضح بطبعه من الصوت الساكن .

ومن النتائج التى حققها المحدثون أن اللام والميم والنون أكثر الأصوات الساكنة وضوحا ، وأقربها إلى طبيعة أصوات اللين . ولذا يميل بعضهم إلى تسميتها « أشباه أصوات اللين » . ومن الممكن أن تعد حلقة وسطى بين الأصوات الساكنة وأصوات اللين . ففيها من صفات الأولى أن مجرى النفس معها تعترضه بعض الحوائل ، وفيها أيضاً من صفات أصوات اللين أنها لا يكاد يسمع لها أى نوع من الحفيف ، وأنها أكثر وضوحا فى السمع .

وهكذا نرى أن أساس التقسيم مرجعه فى آخر الأمر كيفية مرور النفس فى المجرى ، فكأن المجرى ينقسم إلى مناطق متميزة ، الفرق بينها لا يعدو أن يكون

(١) أنظر الفصل السادس فى معنى طول الصوت ومعنى النبر .

فرقاً في درجة الاتساع ؛ فمنطقة ينحبس عندها النفس وهى منطقة الأصوات الشديدة ، وأخرى يضيق فيها المجرى ضيقا تختلف نسبته فهناك الضيق وهناك الأضيق ويكون هذا مع الأصوات الرخوة ، فإذا اتسع المجرى وخرج عن النسبة المعينة لهذه الأصوات الرخوة دخلنا إلى منطقة أصوات اللين التى تبدأ بالأصوات المتوسطة وتنتهى بالفتحة وألف المد ومعها يكون المجرى أوسع ما يكون .

وأصوات اللين فى اللغة العربية هى ما اصطلح القدماء على تسميته بالحركات من فتحة و كسرة وضمة ، و كذلك ما سموه بألف المد ، وياء المد ، وواو المد ، وما عدا هذا فأصوات ساكنة .

الفصل الثالث

(١)

مقاييس أصوات اللين

عنى المحدثون من علماء الأصوات اللغوية بالبحث فى أصوات اللين وضبطها، بصرف النظر عما تنتمى إليه من لغة خاصة ، لأنهم لاحظوا أنها تختلف من لغة إلى أخرى اختلافاً يجعل محاولة النطق بلغة أجنبية عسيراً يحتاج إلى مران كبير . فنسبة الخلاف بين أصوات اللين فى اللغة الإنجليزية والفرنسية كبيرة ، تجعل نطق الإنجليزى للغة الفرنسية شاقاً مشوباً بلهجة غريبة ثقيلة على آذان الفرنسيين ، وكذلك العكس بالعكس .

وأصوات اللين فى كل لغة كثيرة الدوران والشيوع، وأى انحراف عن أصول النطق بها يبعد المتكلم عن الطريقة المألوفة بين أهل هذه اللغة . فأقل انحراف فى نطقنا لأصوات اللين فى اللغة الإنجليزية ، يجعل نطقنا كمصريين لهذه اللغة غريبا لا تستسيغه الأذن الإنجليزية .

لذلك كان من أوجب الأمور التى يلجأ إليها متعلم هذه اللغة بيننا أن يحاول تقليد النطق بهذه الأصوات كما ينطق بها أبناؤها .

ومن أعقد الصعوبات التى يصطدم بها المصرى فى تعلم اللغة الإنجليزية أصوات اللين الإنجليزية وكيفية النطق بها صحيحة كما ينطق بها الإنجليز أنفسهم . فالأجنبي حين ينطق بلغة غير لغته يتعثر فى نطق أصوات اللين ولا يحسن النطق بها إلا بعد مران طويل وجهد كبير لأسباب منها :

١ — أن الفروق بين أصوات اللين فى اللغات بصفة عامة ، كبيرة . ولا تكاد تشترك لغة من اللغات مع أخرى فى كيفية النطق بأصوات اللين بل إن لهجات اللغة الواحدة لتختلف فيها اختلافا يميز كل لهجة من هـذه اللهجات . فليست أصوات اللين فى لهجات اللغة الإنجليزية ذات طريقة واحدة فى نطقها ، وكذلك الحال فى الفرنسية والعربية وهكذا .

٢ — وضوح أصوات اللين فى السمع إذا قيست بالأصوات الساكنة يجعل أى انحراف فى نطق الأولى أبين فى السمع ، نابياً فى الأذن ، يبعد بالمتكلم عن النطق الصحيح .

٣ — نسبة ورود أصوات اللين وشيوعها فى كل كلام ، كبيرة جداً ، تبرز الخطأ فيها وتجسمه .

نعم أن هناك فروقاً بين الأصوات الساكنة فى معظم اللغات ؛ ولكنها ليست من الوضوح أو الشيوع بحيث تقف حجر عثرة فى نطق الأجنبى عن اللغة ، كما يحدث عند النطق بأصوات اللين . هذا إلى أن الأصوات الساكنة سهل ضبطها متى تحدد مخرجها . وفى معظم الأحيان تشترك اللغات فى كثير منها ، فمعظم الأصوات الساكنة فى اللغة الفرنسية تماثل إلى حد كبير نظائرها فى اللغة العربية .

لهذا لم يعن المحدثون بوضع أقيسة عامة للأصوات الساكنة فى اللغات البشرية ، كما عنوا بها فى بحث أصوات اللين . فقد اكتفوا بوصف مخرج الصوت الساكن وكيفية النطق به فى اللغات التى يراد تعلمها . وفى معظم الأحيان كان هذا الوصف ينطبق تمام الانطباق على وصف نفس الصوت فى لغة المتعلم .

فهناك فرق دقيق بين نطق « التاء » فى كل من اللغتين الإنجليزية والفرنسية ، إذ مخرجها فى اللغة الأولى من طرف اللسان حين يلتقى بأصول الثنايا العليا ، فى حين أن مخرجها فى الفرنسية هو طرف اللسان حين يلتقى بالأسنان العليا نفسها ، ولكن هذا الفرق الدقيق بين « التاء » فى كل من اللغتين لم يكن عقبة كبيرة فى

نطق الفرنسي للانجليزية ، أو العكس ؛ بل برهنت التجارب على أنه يسهل التغلب عليه مع قليل من المران . وهكذا أمكن أن يقال إن الفروق بين الأصوات الساكنة فى اللغات ليست من الأهمية بحيث تضطرنا إلى وضع مقاييس مضبوطة لها فى كل لغة؛ بل يكفى لدراستها فى كل لغة وصف مخارجها وصفا دقيقا .

لهذا كله اضطر المحدثون فى تجاربهم أن يستنبطوا مقاييس عامة لأصوات اللين ، بها تقاس أصوات اللين فى كل لغة وتنسب إليها . ولم يتخذوا فى هذه المقاييس لغة خاصة يجعلونها أساسا ، بل اتخذوا تلك المقاييس من عدة لغات مشهورة ؛ بحيث يندرج تحتها أى صوت لين فى أية لغة من اللغات . ومتى أمكن المتعلم إتقان النطق بهذه المقاييس العامة سهل عليه أن ينسب إليها أصوات اللين فى اللغة التى يريد تعلمها .

وأول من عنى بهذه المقاييس بروفسر « دانيال جونز » فى جامعة لندن إذ استطاع بعد تجارب دقيقة وبحوث متواصلة أن يخرج لنا تلك المقاييس العامة لأصوات اللين ، وسجلها فوق اسطوانات هى الآن فى متناول كل من يبغى تعلمها .

وقد بدأ عمله بأن حدد الموضع الذى يمكن أن يصعد إليه أول اللسان نحو الحنك الأعلى ، بحيث يكون الفراغ بينهما كافيا لمرور الهواء ، دون أن يحدث فى مروره أى نوع من الحفيف . فأقصى ما يصل إليه أول اللسان متجها نحو الحنك الأعلى بحيث لا يحدث الهواء المار بينهما أى نوع من الحفيف ، يعد موضعا مضبوطا بين أصوات اللين وقد رمز له بالرمز (i) وهو ما يشبه الكسرة الرقيقة فى اللغة العربية حين يكون قصيراً ، ويشبه ما يسمى بياء المد حين يكون طويلا . وقد عد المحدثون هذا الصوت أول مقياس لأصوات اللين ، لتحدد موضعه ؛ إذ لو صعد أول اللسان نحو الحنك أكثر من هذا ، سمع الحفيف الذى يخرج به صوت اللين إلى محيط الصوت الساكن الذى نسميه (الياء) ؛ فالفرق بين (الياء) وصوت اللين (i) الطويل ، هو أن موضع الأول أقرب إلى الحنك الأعلى ، والفراغ الذى

بين اللسان والحنك معها أضيق منه فى حالة صوت اللين (i) . ويترتب على هـذا أننا نسمع بعض الحفيف مع « الياء » .

وذلك لأن ضيق المجرى عن القدر المعين المحدد لأصوات اللين يخرج بالصوت عن منطقتها إلى منطقة الأصوات الساكنة . فما سماه القدماء بياء المد فى مثل « كريم وقتيل » يشبه إلى حد كبير المقياس الأول الذى يرمز له فى علم الأصوات بالرمز (i) حين يكون هذا المقياس طويلا أى حين يطول زمن النطق به ، أما حين يقصر زمن النطق به فهو قريب الشبه بالكسرة المرققة . فإذا أردنا الانتقال إلى ياء المد التى هى فى مثل « كريم » والتى تقع فى منطقة أصوات اللين ، إلى الياء العادية التى تـكون فى مثل « بيت » ، أمـكن هذا بتضييق الفراغ بين اللسان والحنك الأعلى .

وتـكون المقياس الثانى بأن هبط اللسان إلى أقصى ما يمكن أن يصل إليه فى الفم ، بحيث يستوى فى قاع الفم ، مع انحراف قليل فى أقصى اللسان نحو أقصى الحنك ، فتحدد لنا بهذا مقياس آخر ، يرمز إليه عادة بالرمز (*a*) ، وهو ما يشبه الفتحة المفخمة فى اللغة العربية حين يـكون قصيراً ، ويشبه مايسمى بألف المـــد المفخمة حين يـكون طويلا . وبين أقصى ما يصل إليه اللسان فى صعوده نحو الحنك الأعلى وأقصى ما يصل إليه فى هبوطه بقاع الفم ، استنبط المحدثون ثلاث مراحل عند كل منها يتـكون صوت لين خاص . فاللسان فى هبوطه من وضع (i) إلى وضع (*a*) يمر بمواضع ثلاثة ، رمز لها بالتدريج (e ɛ a)[1] .

وقد اتخذ علماء الأصوات المحدثون ثلاث مراحل أخرى تلى الصوت (*a*) ، ناظرين فى هذه المرة إلى نسبة صعود أقصى اللسان نحو الحنك . فآخر ما يصل إليه أقصى اللسان فى صعوده نحو أقصى الحنك ، ليـكون الفراغ بينهما من السعه ،

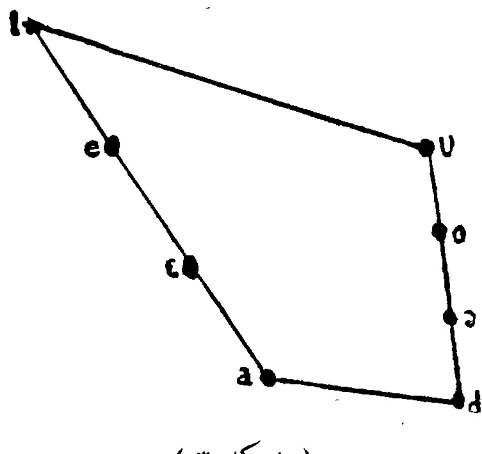
---

(١) اقرأ الرموز من اليمين

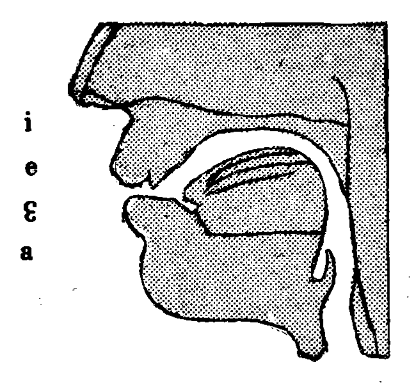
بحيث لا يحدث الهواء أى نوع من الحفيف ، هو المقياس الأخير لأصوات اللين ، وهو ما يرمز إليه بالرمز (u) ، وهو الذى يشبه الضمة المرققة فى اللغة العربية حين يكون قصيراً ، ويشبه ما يسمى بواو المد حين يـكون طويلا . فإذا زاد صعود أقصى اللسان نحو أقصى الحنك ، أحدث الهواء فى أثناء مروره نوعاً من الحفيف ، وأنتج ذلك الصوت الذى نسميه بالواو . فالفرق بين الواو وصوت اللين (u) الطويل ، وهو أن الفراغ بين أقصى اللسان وأقصى الحنك مع الأولى ضيق ، إذا مر خلاله الهواء أحدث نوعاً من الحفيف ، فإذا قورنت الواو العادية التى فى مثل « يوم » بما يسمى بواو المد فى مثل « يقول » ، وجدنا مع نطق الواو العادية نوعاً من الحفيف يجعلها تنتمى إلى الأصوات الساكنة . ويعزى هـذا الحفيف إلى ضيق الفراغ بين أقصى اللسان والحنك عن القدر المحدد لأصوات اللين ويرمز عادة للمرحلتين اللتين بين a ، u بالرمزين الآتيين على الترتيب : ɔ o .

وبهذا يتكون لنا ثمانية مقاييس تبدأ بصوت اللين (i) وتنتهى بصوت اللين (u) وتوضع عادة مدرجة فى شكل كالآتى :

ويتضح موضع اللسان بالنسبة للحنك الأعلى فى الأصوات الأربعة(a ɛ e i) بملاحظة الشكل الآتى :

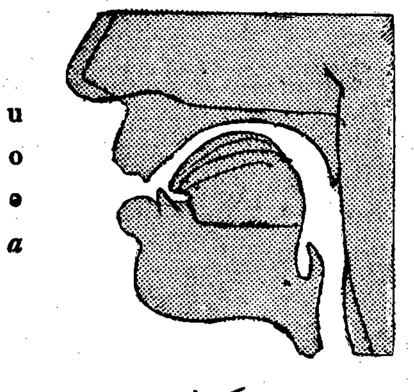


(شـكل ٣)



(شكل ٤)

كما يتضح موضعه فى الأصوات الأربعة التى تليها (u o e a) بملاحظة الشكل :



(شكل ٥)

ولقد تحددت الآن الدرجة الصوتية لكل من هذه المقاييس الثمانية : فعرفت بالتجربة أعداد الذبذبات فى الوترين الصوتيين مع كل منها ، مما زادها تحديداً ودقة .

وقد قيست أصوات اللين فى كل اللغات بهذه المقاييس الثمانية ، وانتخب المحدثون عدة كلمات من لغات متباينة اشتملت كل كلمة منها على أحد هذه المقاييس :

فالصوت الأول i ممثل تمثيلا حسناً فى الكلمة الفرنسية	si
والصوت الثانى e » » » » » »	thé
والصوت الثالث ɛ » » » » » »	même
والصوت الرابع a » » » » » »	la
والصوت الخامس *a* » » » » » »	Pas
والصوت السادس e » » » » » الألمانية	sonne
والصوت السابع e » » » » » الفرنسية	rose
والصوت الثامن u » » » » » الألمانية	gut

هذا إلى أن كثيراً من شركات التسجيل الفونوغرافى ، قد سجلت مقاييس أصوات اللين فوق اسطوانات يرجع إليها طالب اللغات ، فيسمعها ويحاول تقليدها حتى يتقنها ، ويتأكد من موضع اللسان مع كل منها . فإذا قاس عليها صوت لين فى لغة من اللغات لم يحتج إلى جهد كبير فى التعرف على الصوت . وأشهر هذه الاسطوانات رقم ٨٠٤ .B فى أكسفورد ولندن .

ورغم أن الأساس فى تكوين هذه المقاييس ، هو موضع أول اللسان بالنسبة للحنك الأعلى ، أو موضع أقصى اللسان بالنسبة لأقصى الحنك ، رغم أن هذا هو الأساس ، قد لاحظ المحدثون أن شكل الشفتين يختلف مع كل من هذه المقاييس ، وتأثر الشفتين مع كل هذه المقاييس أمر لا يصح إغفاله فى وصفها . فالشفتان مع الأصوات (a ɛ e i) منفرجتان ، وليس فيها استدارة أوبروز أما فى حالة الأصوات (*a* ɔ e u) فتبدأ الشفتان فى الاستدارة حتى تصلا إلى أقصى ما تصل إليه من كمال فى الاستدارة مع الصوت u .

أما ما يمكن أن يتفرع من هذه المقاييس الثمانية من أصوات اللين فى اللغات ، فأمر يحتاج إلى مؤلف خاص ، ولا نحب أن نعرض له هنا ، بل سنحاول فقط أن ننسب إليها أصوات اللين فى اللغة العربية كما ينطق بها المجيدون

من القراء فى عصرنا هذا . لأن ما يمكن أن ينطق به الإنسان من أصوات اللين يجاوز الخمسين صوتاً ، وإن كان الموجود فعلا فى اللغات المتباينة ، أقل من هذا العدد كثيراً .

ورغم أن جميع أصوات اللين تشترك فى صفات خاصة ، أهمها أنها كلها مجهورة وأن مجرى الهواء معها لا تعترضه حوائل فى مروره ، بل يندفع فى الحلق والفم حراً طليقاً ، رغم اشتراكها فى مثل هذا ، قد قسمها العلماء إلى مجاميع متجانسة . فحين نظروا إلى نسبة صعود اللسان نحو الحنك أمكنهم أن يقسموا أصوات اللين إلى مجموعتين : المجموعة الأولى تشمل أصوات اللين الضيقة close وأفراد هذه المجموعة هى i u وما قرب منهما . لأن اللسان مع كل منهما يبلغ فى صعوده نحو الحنك أقصى ما يمكن للنطق بصوت لين .

والمجموعة الثانية هى أصوات اللين المتسعة Open وأفرازها (*a*) وما قرب منها . لأن اللسان معها يبلغ أقصى ما يمكن أن يصل إليه من هبوط فى قاع الفم ، والفراغ بين اللسان والحنك حينئذ يكون أوسع ما يمكن فى هذا الوضع .

ولهذا التقسيم أهمية خاصة فى تطور الأصوات سنلحظها فيما بعد .

أما إذا نظر إلى جزء اللسان الذى يصعد أو يهبط ، فيمكن تقسيم أصوات اللين إلى مجموعتين رئيسيتين :

١ — أصوات لين أمامية : وأفرادها i a وما بينهما لأنه فى تكون هذه الأصوات ، نلحظ أن أول اللسان هو الذى يصعد نحو الحنك الأعلى ، أو يهبط نحو قاع الفم .

٢ — أصوات لين خلفية : وأفرادها *a* u وما بينها ، لأن أقصى اللسان هو الذى يصعد ويهبط حين النطق بها .

(٢)

أصوات اللين فى اللغة العربية

أصوات اللين مع أنها عنصر رئيسى فى اللغات ومع أنها أكثر شيوعاً فيها ، لم يعن بها المتقدمون من علماء العربية . فقد كانت الإشارة إليها دائما سطحية ، لا على أنها من بنية الكلمات ، بل كعرض يعرض لها ، ولا يكون منها إلا شطراً فرعيا. ولعل الذى دعا إلى هذا أن الكتابة العربية منذ القدم ، عنيت فقط بالأصوات الساكنة فرمزت لها برموز. ثم جاء عهد عليها أحس الكتاب فيه بأهمية أصوات اللين الطويلة ، كالواو والياء الممدودتين ، فكتبوها فى بعض النقوش والنصوص القديمة ، وظلت الحال هكذا حتى وضعت أصوات اللين القصيرة التى اصطلح القدماء على تسميتها بالحركات فى العصور الإسلامية . فالكتابة التى ليست إلا وسيلة ناقصة للتعبير عن الأصوات اللغوية ، صرفت القدماء عن أهمية أصوات اللين فلم يرمز لها برموز فى صلب الكلمات .

وقد أشار ابن جنى فى كتابه « سر صناعة الإعراب » إلى هذه الأصوات فى قوله « اعلم أن الحركات أبعاض لحروف المد واللين وهى الألف والواو والياء . فكما أن هذه الحروف ثلاثة فكذلك الحركات ثلاث وهى الفتحة والكسرة والضمة. وقد كان متقدمو النحاة رحمهم الله تعالى يسمون الفتحة الألف الصغيرة والكسرة الياء الصغيرة والضمة الواو الصغيرة ، وقد كانوا فى ذلك على طريقة مستقيمة . ألا ترى أن الألف والياء والواو اللواتى هن حروف توام كوامل ، قد تجدهن فى بعض الأحوال أطول وأتم منهن فى بعض ، وذلك إذا وقعت بعدهن الهمزة والحرف المدغم نحو (يشاء) و (دابة) ، وهن فى كلا الموضعين يسمين حروفا كوامل . فإذا

جاز ذلك فليست تسمية الحركات حروفاً صغاراً بأبعد فى القياس منه. ويدلك على أن الحركات أبعاض لهذه الحروف أنك متى أشبعت واحدة منهن حدث بعدها الحرف الذى هى بعضه. إلا أن هذه الحروف التى يحدثن لإشباع الحركات لا يكن إلا سواكن لأنهن مدات والمدات لا يحركن أبداً » .

هذا مارواه ابن جنى، ومنه نرى أن بعض القدماء قد أحس كما يحس المحدثون بأن الفرق بين الفتحة ومايسمى بألف المدّ لا يعدو أن يكون فرقاً فى الكمية . وكذلك الفرق بين ياء المد وواو المد إذا قورنتا على الترتيب بالكسرة والضمة ، ليس إلا فرقاً فى الكمية ، فما يسمى بألف المد هى فى الحقيقة فتحة طويلة ، وما يسمى بياء المد ليست إلا كسرة طويلة ، وكذلك واو المد تعد من الناحية الصوتية ضمة طويلة ، فكيفية النطق بالفتحة وموضع اللسان معها يماثل كل المماثلة كيفية النطق بما يسمى ألف المد ، مع ملاحظة فرق الكمية بينهما .

ونستنتج مما رواه ابن جنى أن أصوات اللين التى اعترف بها القدماء ، هى فى الحقيقة ثلاثة فقط ، بصرف النظر عن طول[1] الصوت وقصره ، فلا يغير هـذا من حقيقته . وتلك الأصوات هى ماتسمى عادة بالفتحة والكسرة والضمة ، فكلما أشرنا هنا إلى أصوات اللين القصيرة فى اللغة ، لانعنى أكثر مما سماه القدماء بالفتحة والكسرة والضمة . أما طول الصوت فسنعرض له فيما بعد .

وحين نذكر اللغة العربية نشير إلى الحالة التى رويت لنا فى القراءات القرآنية كما يتلوها مجيدو القراءات فى مصر الآن ، إذ ليس لدينا من وسيلة نؤكد بها كيفية النطق بهذه الأصوات فى العصور القديمة سوى عن طريق التلاوة المتواترة ، لأن أصوات اللين فى اللهجات العربية الحديثة ، قد أصابها

---

(١) يفرق عادة بين صوت اللين الطويل والقصير فى الكتابة الفوناتيكية بأن يوضع أمام الطويل نقطتان هكذا : a: .

تطور كبير ، وهى تختلف فى مصر عنها فى الشام والعراق ، وليس هنا مجال بحثها فى هذه البيئات العربية . بل لعل أصوات اللين تختلف بعض الشيء حتى فى القراءة القرآنية الشائعة الآن فى كل بيئة من هذه البيئات العربية. فأصوات اللين فى قراءة المصرى ، تختلف قليلا عنها فى قراءة الشامى وهكذا .

والنموذج الذى نبنى عليه حكمنا على أصوات اللين فى اللغة العربية هو نطق المجيدين للقراءات القرآنية فى مصر ، غير ناظرين إلى أصوات اللين المختلفة فى لغة الكلام بمصر ، لأنها تختلف باختلاف اللهجات المصرية الحديثة .

فالفتحة والكسرة والضمة وما يتفرع عنها من حروف مد، هى أصوات اللين العربية التى أشار إليها القدماء، غير أنهم فى ثنايا مؤلفاتهم قد ذكروا لبعضها أنواعاً أخرى .

ولكن القدماء قد ضلوا الطريق السوى حين ظنوا أن هناك حركات قصيرة قبل حروف المد ، فقالوا مثلا إن هناك فتحة على التاء فى « كتاب» وكسرة تحت الراء فى (كريم) ، وضمة فوق القاف فى (يقول) ! ! والحقيقة أن هذه الحركات القصيرة لا وجود لها فى تلك المواضع ، فالتاء فى (كتاب) محركة بألف المد وحدها ، والراء فى (كريم) محركة بياء المد وحدها ، والقاف فى « يقول » محركة بواو المد وحدها . ويظهر أن الكتابة العربية فى صورتها المألوفة من وضع فتحة على التاء فى « كتاب » وكسرة تحت الراء فى (كريم)وضمة فوق القاف فى (يقول) قد جعلت القدماء يتوهمون وجود حركات قصيرة فى مثل هذه المواضع .

ولذلك توهم ابن جنى فى سر الصناعة أن هنال فتحة ممالة نحو الضمة قبل ألف التفخيم فى كلمة (الصلاة) ، وعدها نوعاً فرعياً من أنواع الفتحة .

وكان واجب ابن جنى أن يقصر الأنواع الفرعية لأصوات اللين على ما يأتى:

١ — تلك الفتحة المشوبة بالكسرة وهى التى فى إمالة ما قبل تاء التأنيث كما

فى قراءة الكسائى لكلمة مثل (رحمة) حين الوقوف عليها .

٢ — ألف المد حين تمال تصبح مشوبة بالكسرة كما فى قراءة (ربا) بالإمالة . ولا فرق بين هذا النوع والنوع الأول إلا فى الكمية .

٣ — مايسمى بألف التفخيم ، وهى ألف مد ممالة نحو الضم كما فى قراءة بعض القراء لكلمة « الصلاة » .

٤ — ياء المد الممالة نحو الضم ، وذلك هو ما سماه النحاة بالإشمام حين ينطق بعض العرب بالفعل المبنى للمجهول فى مثل قيل وبيع .

ويظهر أن تلك الأنواع الفرعية التى أشار إليها ابن جنى كانت شائعة فى اللهجات العربية القديمة ، وإن لم ينسبها ابن جنى لقبائلها من سوء الحظ .

وقد أفاض القراء فى وصف إمالة الفتحة نحو الكسرة، وخصصوا لهذا فصولا طويلة ، كما وضعوا لها أحكاما وشروطاً ، وموضع كل هذا كتب القراءات . فالقراء إذن عنوا بنوع واحد من أنواع الفتحة قصيرها وطويلها ، لكثرة شيوعه فى اللهجات العربية . بل لقد قسموا إمالة الفتحة إلى الكسرة ، إلى قسمين كلاهما جائز فى القراءة ، جار على ألسنة العرب : وهما الإمالة الشديدة أى التى تصبح الفتحة فيها أقرب إلى الكسرة ، وإمالة خفيفة وهى نوع من الفتحة ممالة إلى الكسرة ، ولكنها فى إمالتها تكون أقرب إلى أصلها وهو الفتح منها إلى الكسر .

وقد نسب القراء الفتح إلى لهجة الحجاز ، والإمالة إلى أهل نجد من تميم وقيس وأسد .

ومحاولة قياس أصوات اللين كلها ، كما رواها ابن جنى ، بتلك المقاييس العامة التى أشرنا إليها من قبل ، يتطلب بحثاً خاصاً فى اللهجات العربية القديمة أحسب أن المستقبل كفيل به .

أما نسبة الـكسرة كما نسمعها من قراء مصر حين يلتزمون قراءة حفص ، فهى تشبه كل الشبه ذلك الصوت الذى يرمز إليه بالرمز (i) ؛ غير أنه حين تتأثر بأصوات التفخيم (الصاد. الضاد. الطاء .الظاء) وربما أيضا (الخاء. الغين. القاف) نلاحظ ميل هذا الصوت قليلا نحو ذلك المقياس الذى يرمز إليه بالرمز (e) . ويحدث هذا بصفة خاصة مع أصوات الإطباق (الطاء . الظاء ، الضاد . الصاد). وهذا التغير فى صوت اللين غير مقصود لذاته؛ بل يحتمه انتقال اللسان من وضعه الأمامى الضيق إلى ماتتطلبه أصوات الإطباق من صعوده نحو الحنك الأعلى متخذاً شكلا مقعراً [١] .

فإذا قيست الفتحة العربية بمقاييس أصوات اللين ، وجدناها قريبة الشبه بذلك المقياس الذى يرمز إليه بالرمز (a) ولـكنها لاتنطبق عليه تمـام الانطباق ويتجه هذا الصوت قليلا نحو المقياس الذى يرمز إليه بالرمز(*a*) حين تتأثر الفتحة بأصوات التفخيم .

أما الضمة العربية فهى تنطبق تمام الانطباق على المقياس الذى يرمز إليه بالرمز (u) غير متأثرة بالأصوات المستعلية .

أما أصوات اللين الممالة فنـكتفى هنا بقياس الفتحة الممالة نحو الـكسرة ، وتلك هى اللغة الشائعة فى اللهجات العربية قديمها وحديثها ، والتى استحقت كل العناية من جمهور القراء .

فإذا كانت الإمالة شديدة ، أمـكن أن تـكون الفتحة قريبة الشبه بالمقياس (e) ، أما فى الإمالة الخفيفة فيظهر أن الفتحة حينئذ تشبه إلى حد كبير المقياس ε .

والفتحة بأنواعها تعد من أصوات اللين المتسعة ، إلا إذا كانت ممـالة إمالة شديدة . أما الضمة والـكسرة فهما من أصوات اللين الضيقة . ولهذا التقسيم أهميته فيما يعرض لهذه الأصوات من الظواهر اللغوية ، إذ نلاحظ فى معظم

---

(١) انظر شكل ٧ الذى يوضح موضع اللسان مع أصوات الإطباق .

الأحيان أن ما يجرى على الضمة يجرى على الكسرة لأن كلا منهما صوت لين ضيق، بخلاف الفتحة فهى قسم مستقل له ظواهره الخاصة .

(٤)

أشباه أصوات اللين

هناك صوتان بين الأصوات اللغوية يستحقان دائماً أن يعالجا علاجاً خاصاً لأن موضع اللسان معهما قريب الشبه بوضعه مع أصوات اللين ؛ ومع هذا فقد دلت التجارب الدقيقة على أننا نسمع لهما نوعاً ضعيفاً من الحفيف ، وهذان الصوتان هما ما اصطلح علماء العربية على تسميتهما بالياء والواو فى مثل (بيت،يوم) . ففى تكون « الياء » نلحظ أن اللسان يكون تقريباً فى موضع النطق بصوت اللين (i) ؛ غير أن الفراغ بين اللسان ووسط الحنك الأعلى حين النطق بالياء يكون أضيق منه فى حالة النطق بصوت اللين (i) ؛ مما يترتب عليه أننا نسمع ذلك النوع الضعيف من الحفيف . فالياء لأنها تشتمل فى النطق بها على حفيف ، يمكن أن تعد صوتاً ساكناً . أما إذا نظر إلى موضع اللسان معها فهى أقرب شبهاً بصوت اللين (i) ، لهذا اصطلح المحدثون على تسمية الياء بشبه صوت اللين .

وكذلك الواو لا فرق بينها وبين الضمة (u) إلا فى أن الفراغ بين أقصى اللسان وأقصى الحنك فى حالة النطق بالواو أضيق منه فى حالة النطق بالضمة (u) ؛ فيسمع للواو أيضا نوع ضعيف من الحفيف جعلها أشبه بالأصوات الساكنة . أما حين ينظر إلى موضع اللسان معها ، فيمكن أن نعدها شبه صوت اللين (u) .

فالياء والواو هما المرحلة التى عندها يمكن أن ينتقل الصوت الساكن إلى صوت لين .

والحقيقة أن الياء صوت انتقالى، أى أنها تتكون من موضع صوت اللين (i) ثم تنتقل بسرعة إلى موضع آخر من أصوات اللين. وكذلك الواو يبدأ تكونها من موضع صوت اللين (u) ثم ينتقل اللسان بسرعة إلى موضع صوت لين آخر.

فكل من الياء والواو صوت انتقالى. ومن أجل هذه الطبيعة الانتقالية، ولقصرهما وقلة وضوحهما فى السمع إذا قيسا بأصوات اللين، أمكن أن يعدا من الأصوات الساكنة.

فللياء والواو طبيعة مزدوجة، ولذا آثرنا علاجهما علاجاً خاصا. ويعرض لكل من هذين الصوتين ظواهر لغوية كثيرة، أشهرها أنهما قابلان للتحول إلى أصوات لين خالصة. فمخرج الياء كما تحققه التجارب الحديثة ينطبق إلى حد كبير على وصف القدماء له. أما مخرج الواو فليس الشفتين فقط كما ظن القدماء؛ بل هو فى الحقيقة من أقصى اللسان حين يقترب من أقصى الحنك، غير أن الشفتين حين النطق بها تستديران، أو بعبارة أدق تكمل استدارتها. وقد ذكرنا آنفا أن الشفتين تتأثران بنطق أصوات اللين، فهما منفرجتان مع أصوات اللين الأمامية ومستديرتان مع أصوات اللين الخلفية. فكما تتأثر الشفتان بنطق الياء فتنفرجان معها، تتأثران أيضا بنطق الواو فتستديران معها، ولعل وضوح استدارة الشفتين مع الواو هو الذى جعل القدماء ينسبون مخرج الواو إلى الشفتين.

وهذا هو الذى جعل أصحاب القراءات حين يتحدثون عن نوع من القراءة سموه «الإشمام» يشيرون إلى إمكان الدلالة على الضمة بحركة الشفتين. فالمتعلم حين يقرأ على أستاذ مبصر قوله تعالى «رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير» لا ينطق بالضمة التى فى كلمة «فقير»، وإنما يشير إلى وجودها باستدارة شفتيه ليشعر أستاذه أنه يدرك أن هذه الكلمة رغم الوقوف عليها بالسكون، تشكل بالضم فى حالة الوصل. فالإشمام فى القراءة يرى ولا يسمع، ولا يراعي الإشمام بطبيعة الحال إلا حين يكون هناك قارىء وسامع مبصر.

الفصل الرابع

(١)
الأصوات الساكنة ومخارجها وصفاتها

سبق أن شرحنا معنى الصوت الساكن، ولحسن الحظ لا تحتاج هذه الأصوات إلى مقاييس كتلك التي احتاجت إليها أصوات اللين ؛ إذ ليس هناك بين صوتين كالميم والتاء مثلا، سلسلة من الأصوات كما لاحظنا فى حالة صوتى اللين i ، a فهناك سلسلة أخرى من أصوات اللين متدرجة بين الصوتين a ، u وقد لاحظنا قبلا ، تدرج أصوات اللين من المقياس الأول i إلى المقياس الثامن u . فأصوات اللين مرتبطة بعضها ببعض ، فى حين أن الأصوات الساكنة مستقلة بعضها عن بعض، ويكوّن كل منها وحدة قائمة بذاتها تفرق بينها المخارج وطريقة النطق . ولابد إذن فى شرح الأصوات الساكنة أن يؤخذ كل صوت على حدة ، وفى لغته . واختلاف أفراد البيئة الواحدة فى النطق بالأصوات الساكنة لا يكاد يدرك، ولذلك لا تكاد تعنى الدراسات الصوتية بمثل تلك الفروق الضئيلة التى تختلف من شخص لآخر بين أفراد البيئة الواحدة . هذا ومن السهل أن نشرح الأصوات الساكنة ممثلة فى كلمات لغة من اللغات ويكون الاعتراض عليها فى هذا الشرح أقل كثيراً مما لو شرحت أصوات اللين بهذه الطريقة . فالتاء فى جميع اللغات اللاتينية الأصل (كالفرنسية والإيطالية والأسبانية) نطقها يكاد يكون متحداً؛ بل هو أيضا نفس نطق التاء فى اللغة العربية ، فى حين أن هذه اللغات المتباينة يندر أن تتحد فى صوت لين. على أنه فى حالة اختلاف بعض الأصوات الساكنة من لغة

لأخرى أو من لهجة لاخرى ، نجد الفرق واضحاً متميزاً لايحتاج إلى عناء كبير فى التعرف عليه . لهذا نؤثر هنا علاج الأصوات الساكنة فى اللغة العربية على حسب مخارجها ، وكيفية النطق بها ؛ دون الإشارة إلى مقارنتها بنظائرها فى لغات أخرى ، ودون نسبتها إلى مقاييس عامة كما كان الحال فى شرح أصوات اللين العربية :

الأصوات الشفوية .

الباء « B »

صوت شديد مجهور . يتكون بأن يمر الهواء أولا بالحنجرة ، فيحرك الوترين الصوتيين ، ثم يتخذ مجراه بالحلق ثم الفم حتى ينحبس عند الشفتين منطبقتين انطباقاً كاملا . فإذا انفرجت الشفتان فجأة سمعنا ذلك الصوت الانفجارى الذى يسمى بالباء . فالمنطق بالباء تنطبق الشفتان أولا حين انحباس الهواء عندها ، ثم تنفرجان فجأة فيسمع صوت الباء .

وقد حرص القدماء على الجهر بهذا الصوت وهو مشكل بذلك الرمز المسمى بالسكون ، فأضافوا إليه صوت لين قصير جداً يشبه الكسرة وسموا تلك الظاهرة بالقلقلة ، حرصاً منهم على إظهار كل مافى هذا الصوت من جهرفلا يختلط بنظيره المهموس الذى يرمز إليه فى الكتابة الأوربية بالرمز p ، لأن مهموس الباء ليس صوتاً أساسياً من أصوات اللغة العربية .

الميم « m »

صوت مجهور لاهو بالشديد ولا بالرخو ؛ بل مما يسمى بالأصوات المتوسطة . ويتكون هذا الصوت بأن يمر الهواء بالحنجرة أولا فيتذبذب الوتران الصوتيان ، فإذا وصل فى مجراه إلى الفم هبط أقصى الحنك ، فسد مجرى الفم فيتخذ الهواء مجرى فى التجويف الأنفى ، محدثا فى مروره نوعاً من الحفيف لايكاد يسمع . وفى أثناء تسرب الهواء من التجويف الأنفى تنطبق الشفتان

تمام الانطباق . ولقلة ما يسمع للميم من حفيف اعتبرت فى درجة وسطى بين الشدة والرخاوة، لأن خاصية الأصوات الشديدة هى الانفجار حين النطق بها ، وخاصية الأصوات الرخوة هى نسبة الحفيف الذى قد يصل فى بعض الأصوات الرخوة إلى صفير ، كما فى السين والزاى ... الخ .

الصوت الشفوى الأسنانى :

وهو الفاء فقط « f » . والفاء العربية صوت رخو مهموس ، يتكون بأن يندفع الهواء ماراً بالحنجرة دون أن يتذبذب معه الوتران الصوتيان ، ثم يتخذ الهواء مجراه فى الحلق والفم حتى يصل إلى مخرج الصوت وهو بين الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا . ويضيق المجرى عند مخرج الصوت ، فنسمع نوعاً عالياً من الحفيف هو الذى يميز الفاء بالرخاوة . وليس للفاء العربية نظير مجهور كذلك الذى نشهده فى معظم اللغات الأوروبية والذى يرمز له فيها بالرمز (V) .

المجموعة الكبرى من الأصوات المتقاربة المخارج:

أفراد هذه المجموعة هى : (الذال الثاء الظاء. الدال الضاد التاء الطاء اللام النون الراء . الزاى السين الصاد) ووجه الشبه بين كل هذه الأصوات هو أن مخارجها تكاد تنحصر بين أول اللسان (بما فيه طرفه) والثنايا العليا (بما فيها أصولها) . على أنه رغم تقارب مخارجها ، تفرق بينها صفات صوتية متباينة تحتم علينا تقسيمها إلى مجاميع فرعية يشترك أفرادها فى المخرج ، أو بعبارة أدق يكاد يتحد مخرج كل من أفراد تلك المجاميع الفرعية .

وتشترك أفراد هذه المجموعة الكبرى فى ظواهر لغوية سنعرض لها فيما بعد. وتلك الظواهر مضافا إليها قرب المخارج، كان مبرراً كافياً لضم أفراد هذه المجموعة فى محيط واحد .

أما المجاميع الفرعية التى تنقسم إليها هذه المجموعة الكبرى فهى :

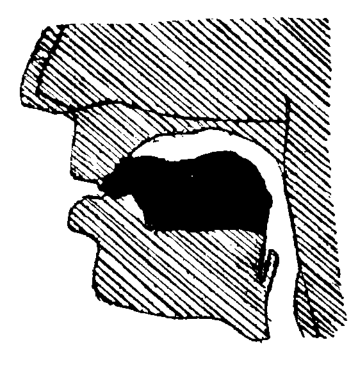
(١) الذال . الثاء الظاء .

وقد اصطلح القدماء على تسمية هذه الأصوات باللثوية ، ولا يعنينا هنا البحث عن سر هذه التسمية العجيبة بقدر ما يعنينا معرفة مخرج كل منها وصفته .

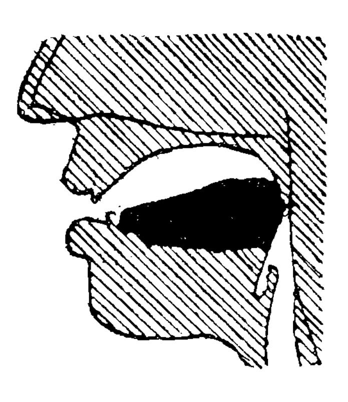
فالذال . صوت رخو مجهور ، يتكون بأن يندفع معه الهواء ماراً بالحنجرة فيحرك الوترين الصوتيين ، ثم يتخذ الهواء مجراه فى الحلق والفم حتى يصل إلى مخرج الصوت ، وهو بين طرف اللسان وأطراف الثنايا العليا ، وهناك يضيق هذا المجرى فنسمع نوعا قوياً من الحفيف .

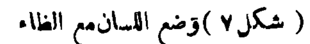
ولا فرق بين الذال والثاء إلا فى أن الثاء صوت مهموس لا يتحرك معه الوتران الصوتيان . فالذال إذن صوت مجهور نظيره المهموس هو الثاء .

أما الظاء: فهى صوت مجهور كالذال تماماً ؛ ولكن هذا الصوت يختلف عن الذال فى الوضع الذى يأخذه اللسان مع كل منهما ، فعند النطق بالظاء ينطبق اللسان على الحنك الأعلى آخذا شكلا مقعراً كما يلاحظ فى الشكلين الآتيين اللذين يمثلان موضع اللسان مع كل من الذال والظاء .



(شكل ٦) وضع اللسان مع الذال





(شكل ٧) وضع اللسان مع الظاء

ففى حالة النطق بالظاء يرتفع طرف اللسان وأقصاه نحو الحنك ويتقعر

وسطه كما هو واضح فى الشكل ، كما يرجع اللسان إلى الوراء قليلا . ولذلك اعتبر القدماء الظاء أحد أصوات الإطباق .

(ب) الدال ، الضاد ، التاء ، الطاء .

والصفة التى تجمع بين هذه الأصوات الأربعة عدا اتحاد مخارجها ، هى الشدة . فعند النطق بكل منها ينحبس الهواء عند المخرج ، فإذا انفصل العضوان المكونان للصوت سمع ما يشبه الانفجار ، مما يميز هذه الأصوات بالشدة .

فالدال : صوت شديد مجهور ، يتكون بأن يندفع الهواء ماراً بالحنجرة فيحرك الوترين الصوتيين ، ثم يأخذ مجراه فى الحلق والفم حتى يصل إلى مخرج الصوت فينحبس هناك فترة قصيرة جداً لالتقاء طرف اللسان بأصول الثنايا العليا التقاء محكماً . فإذا انفصل اللسان عن أصول الثنايا سمع صوت انفجارى نسميه بالدال فالتقاء طرف اللسان بأصول الثنايا يعد حائلا يعترض مجرى الهواء ، ولا يسمح بتسربه حتى ينفصل العضوان انفصالا مفاجئاً يتبعه بعد ذلك الانفجار .

الضاد : الضاد كما ننطق بها الآن فى مصر لاتختلف عن الدال فى شىء سوى أن الضاد أحد أصوات الإطباق . فعند النطق بها ينطبق اللسان على الحنك الأعلى متخذاً شكلا مقعراً ، كما يرجع إلى الوراء قليلا (شكل ٧) .

فالضاد الحديثة صوت شديد مجهور يتحرك معه الوتران الصوتيان ، ثم ينحبس الهواء عند التقاء طرف اللسان بأصول الثنايا العليا . فإذا انفصل اللسان عن أصول الثنايا سمعنا صوتا انفجاريا هو الضاد كما ننطق بها فى مصر .

ويستدل من وصف القدماء لهذا الصوت على أن الضاد كما وصفها الخليل ومن نحوا نحوه ، تخالف تلك التى ننطق بها الآن . فالضاد الأصلية كما وصفت فى كتب القراءات أقل شدة مما ننطق بها الآن ، إذ معها ينفصل العضوان

الـكونان للنطق انفصالا بطيئاً نسبياً ، ترتب عليه أن حل محل الانفجار الفجائى انفجار بطىء نلحظ معه مرحلة انتقال بين هذا النوع من الأصوات وما يليه من صوت لين ، فإذا نطق بالضاد القديمة وقد وليتها فتحة مثلاً، أحسسنا بمرحلة انتقال بين الصوتين ، تميز فيها كل منهما تميزاً كاملا .

هذا إلى أن الضاد كما وصفها القدماء كانت تتـكون بمرور الهواء بالحنجرة، فيحرك هذا الحرف الوترين الصوتيين ثم يتخذ مجراه فى الحلق والفم ، غير أن مجراه فى الفم جانبى — عن يسار الفم عند أكثر الرواة أو عن يمينه عند بعضهم، أو من كلا الجانبين كما يستفاد من كلام سيبويه . ويظهر أن الضاد القديمة كانت عصية النطق على أهالى الأقطار التى فتحها العرب ، أو حتى على بعض القبائل العربيـة فى شبه الجزيرة ، مما يفسر تلك التسمية القديمة « لغة الضاد »، كما يظهر أن النطق القديم بالضاد كان إحدى خصائص لهجة قريش .

والذى نستطيع تأكيده هنا هو أن الضاد القديمة قد أصابهـا بعض التطور حتى صارت إلى ما نعهده لها من نطق فى مصر ، وأن هذا التطور كان قد تم فى عهد ابن الجزرى ، أى فى القرن الثامن الهجرى . فهو يقول فى كتابه التمهيـد إن المصريين وبعض المغاربة ينطقون بالضاد المعجمة طاء مهملة ، وسيتضح لنا هـذا القول حين نتحدث عن الطاء .

ولا يزال العراقيون حتى الآن وبعض البدو ينطقون بنوع من الضاد يشبه إلى حد ما الظاء، كما يشبه إلى حد كبير ذلك الوصف الذى روى لنا عن الضاد القديمة. والذين مارسوا التعليم فى بلاد العراق يذكرون كيف يخلط التلاميذ هنـاك بين الظاء والضاد .

والضاد القديمة كما أتخيلها يمـكن النطق بها بأن يبدأ المرء بالضاد الحديثة ثم ينتهى نطقه بالظاء ، فهى إذن مرحلة وسطى فيها شىء من شـدة الضـاد الحديثة وشىء من رخاوة الظاء العربية ، ولذلك كان يعدها القدماء من الأصوات الرخوة .

ولتتمة الحديث عن صوت الضاد رأينا أن نورد هنا نص البحث الذى ألقيناه فى أحد مؤتمرات مجمع اللغة العربية تحت عنوان « معنى القول المأثور : لغة الضاد »

[قد يدهش بعض المصريين وأهل الشام وجهات أخرى فى البلاد العربية لهذه التسمية « لغة الضاد » ويتساءلون عن السر فيها ، ولا سيما بعد أن يتصلوا باللغات الأوروبية فيروا أن بعض هذه اللغات تتضمن من الأصوات ما يشبه نطقهم بالضاد. ففى الإنجليزية مثلا كلمات مثل Darling, Does وغيرهما . ثم لا يلبث هؤلاء أن يتبينوا أن هـذا الصوت سواء فخم أو رقق فى الإنجليزية « فونيم » واحد ، فلا تتغير الدلالة بسبب تفخيمه وترقيقه ، ولذلك يرمز له فى الإنجليزية برمز كتابى واحد ، فى حين أن نفس الصوت حين يفخم فى النطق العربى تختلف معه دلالة الكلمة عنها فى حالة ترقيقه . ويكفى أن نذكر الكلمتين : « الضرع » بمعنى المثل ، « الدرع » لباس الحرب ، لنلحظ أنه ترتب على التفخيم والترقيق اختلاف الدلالة ، أى أن الصوت وهو مفخم « فونيم » مستقل ، وأنه وهو مرقق « فونيم » آخر مستقل ، ولذلك رمز لكل منهما فى الكتابة العربية برمز كتابى متميز . وهنا قد نتصور لأول وهلة أن هذا هو السر فى تسمية العربية بلغة « الضاد » ، غير أنا لا نلبث أن نكتشف أن هذه الظاهرة غير مقصورة على الضاد ، بل نراها أيضاً فى الصاد والطاء والظاء . ففى حالة الصاد مثلا يكفى أن نقارن بين الفعلين « صبر ، سبر » لنتبين أنه ترتب فى العربية على تفخيم الصوت وترقيقه اختلاف الدلالة ، فى حين أنه فى الإنجليزية إذا نطق الإنجليزى بالكلمة « Ask » وفخم الصوت فالمعنى لا يختلف حين يرقق الأمريكى هذا الصوت من نفس الكلمة .

فإذا أتيح لبعضنا الاطلاع على وصف سيبويه لصوت « الضاد » القديمة تبين لهم أن الضاد التى وصفها سيبويه تختلف عن ضاد المصريين وأهل الشام فى أمرين :

أولهما — أن ضاد المصريين شديدة أو انفجارية ، فى حين أن التى وصفها سيبويه رخوة .

ثانيهما — أن ضاد المصريين مخرجها من طرف اللسان مع أصول الثنايا العليا ، ولكن التى وصفها سيبويه مخرجها على حسب تعبيره (أول حافة اللسان وما يليه من الأضراس) .

وإذا حاولنا تطبيق الوصف الذى جاء فى كتاب سيبويه على النطق السائد الآن فى العراق وشرق الأردن وجهات أخرى من البلاد العربية لاحظنا فرقاً دقيقاً بين الضاد القديمة والتى ينطق بها فى هذه المناطق .

وهكذا نرى أن الضاد التى وصفها سيبويه والتى قال عنها « إنه ليس شىء من موضعها غيرها » هى صوت فريد لا نكاد نجد له نظيراً فى اللغات السامية شقيقات اللغة العربية ، وهى الصوت الذى قال عنه (برجستراسر) فى كتابه التطور النحوى ما نصه[1] : « فالضاد العتيقة حرف غريب جداً غير موجود على حسب ما أعرف فى لغة من اللغات إلا العربية ، ويغلب على ظنى أن النطق العتيق للضاد لا يوجد الآن عند أحد من العرب » ! !

ويقول اليازجى عن هذه الضاد فى مجلة الضياء[2] « وأما لفظ الضاد فإنا لم نسمع من يحكمه لهذا العهد على مارسمه علماء العربية من مخرجه ، والظاهر أنه لكثرة اختلاط العرب بغيرها مع فقد هذا الحرف من لغات الأعاجم ضاع موضعه من الألسنة ولم يبق من يحقق لفظه » .

وهى أيضاً التى وصفها ابن الجزرى فى كتابه النشر فى القراءات العشر[3] بقوله « والضاد انفردت بالاستطالة ، وليس فى الحروف مايعسر على اللسان مثله ،

---

(١) ص ١٠ .

(٢) ج ١ ص ٥٣ .

(٣) ج ١ ص ٢٠٥ .

فإن ألسنة الناس فيه مختلفة . . إلخ » . ثم يذكر أنواعاً من النطق بهذا الصوت ، ويقرر أن كل ذلك لا يجوز .

ولما تحدث سيبويه عن الحروف التى سماها « غير مستحسنة ولا كثيرة فى لغة من ترتضى عربيته ، ولا تستحسن فى قراءة القرآن » ذكر من بينها « الطاء التى كالتاء » وهذه هى السائدة الآن فى معظم البلاد العربية ، ولا يكاد يفطن إليها أحد أو يعترض عليها ! ! كما ذكر من بينها ما سماه « بالضاد الضعيفة » التى حاول وصفها فى كلام لم نستطع حتى الآن أن نحدد مدلوله الدقيق فى ضوء الدراسات الصوتية الحديثة [١] ، ولكن سيبويه نفسه يعترف أن محاولة وصف هذه الحروف غير المستحسنة لا يجدى كثيراً ، وأنها لا تتبين إلا بالمشافهة . على أننا قد نجد فى إشارة ابن يعيش إلى هذه الضاد الضعيفة بعض الوضوح . فهو يقول عنها ما نصه [٢] « والضاد الضعيفة من لغة قوم اعتاصت عليهم فربما أخرجوها ظاء ، وذلك أنهم يخرجونها من طرف اللسان وأطراف الثنايا ، وربما راموا إخراجها من مخرجها فلم يتأت لهم ذلك فخرجت بين الضاد والظاء » .

وهكذا تركنا سيبويه فى حيرة من أمر هذا الصوت ، ولكنه لم يشر مطلقاً إلى أن الضاد وحدها مما تميزت به اللغة العربية ، أو أن هذه اللغة تسمى بلغة الضاد .

وقد يدهش بعضنا لصمت سيبويه عن هذه التسمية « لغة الضاد» إذا تذكر ذلك الحديث المروى فى كتب النحاة والأصوليين من المتأخرين [٣] وهو « أنا أفصح من نطق بالضاد » .

ولو قد صح هذا الحديث لاقتضى ذلك أن النطق بالضاد القديمة صفة تميز

---

(١) الكتاب ج ٢ ص ٤٠٤ .

(٢) شرح المفصل ج ١٠ ص ١٢٧ .

(٣) مغنى اللبيب ج ١ ص ١٠٤ .

بها النطق العربى أيام النبي صلى الله عليه وسلم ، بل وقبل ذلك ، وأن تلك الصفة كانت قد شاعت وذاعت وأنه قد أصبح من المألوف المعهود حينئذ تميز العربى بوساطة النطق بهذا الصوت ، مما يسوغ أن يطلق على اللغة العربية «لغة الضاد» . ولـكن هذا الحديث كما يقرر معظم الثقات من القدماء لم يثبت ولم يصح وليس له سند . فيروى القاضي عياض فى كتابه الشفاء هذا الحديث فى صورة « أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش . . إلخ » ويعلق على هذه الرواية شراح الشفاء فيقول شهاب الدين الخفاجي فى كتابه نسيم الرياض ما نصه[1] « وأما ما اشتهر من « أنا أفصح من نطق بالضاد » فقالوا إنه لم يثبت وإن ذكر فى كتب النحو والأصول »، ويقول على القارىء فى شرح الشفاء أيضاً : « وأما حديث أنا أفصح من نطق بالضاد فنقله الحلبي عن ابن هشام ، لـكن لا أصل له كما صرح به جماعة من الحفاظ » .

وقد أعيانا البحث فى كتاب السيرة لابن هشام وشرحه للسهيلى ، فلم نعثر لهذا الحديث على أثر . فإن كان المراد هو ابن هشام النحوى فى القرن الثـامن الهجرى فلا قيمة لورود الحديث فى كتابه « مغنى اللبيب » ، لا سيما بعد أن جاء فى حاشية الأمير على المغنى أن هذا الحديث لاسند له .

وهنا نتساءل ماذا كان موقف العرب أيام ظهور الإسلام من الصوتين (الضاد والظاء) وهما اللذان اختصتهما اللغة العربية دون سائر الساميات بالرمز لهما فى الـكتابة العربية ؟ . .

لا يخالجنا الآن أدنى شك فى أن العرب القدماء كانوا فى نطقهم يميزون هذين الصوتين تمييزاً واضحاً ، ولـكنهم فيما يبدو كانوا فريقين : فريق يمثل الـكثرة الغالبة وهؤلاء هم الذين كانوا ينطقون بهما ذلك النطق الذى وصفه سيبويه .

---

(١) ص ٤٢٦ ، ٢٧ الطبعة الأزهرية ١٣٢٥ هـ .

أما الفريق الآخر فكان يخلط بين الصوتين . ويدل على هذا ما يروى فى المصباح المنير حين يتحدث عن لغة حكاها الفراء عن المفضل قال : « من العرب من يبدل الضاد ظاء فيقول « عظت الحرب بنى تميم » ، ومن العرب من يعكس فيبدل الظاء ضاداً فيقول فى « الظهر » ضهر ، وهذا وإن نقل وجاء استعماله فى الكلام فلا يجوز العمل به فى كتاب الله [1] . ويذكر السيوطى فى المزهر :

« فاضت روحه ، وفاظت روحه ، ويقول إن الصورة الأولى تنسب لتميم ، ولكن أبا عبيدة يرى أن بنى ضبة وحدهم هم الذين كانوا يقولون « فاظت روحه » بالظاء ، وأن سائر العرب كانوا ينطقون الكلمة بالضاد[2] .

ويذكر إبراهيم اليازجى فى مجلة الضياء ما نصه[3] « ونقل عن الأصمعى أنه قال : تتبعت لغات العرب كلها فلم أجد فيها أشكل من الفرق بين الضاد والظاء ، وقال صاحب العين إتقان الفصل بينهما واجب » . وتروى قصة طريفة بهذا الصدد يقال فيها : قال رجل لعمر يا أمير المؤمنين أيظحى بظبى ؟ . قال عمر : وما عليك لو قلت أيضحى بظبى ؟ . . قال الرجل : إنها لغة . . قال عمر : انقطع العتاب ولا يضحى بشىء من الوحش .

ولعل من هذا أيضاً ما يذكره الجاحظ[4] « كان رجل بالبصرة له جارية تسمى ظمياء فكان إذا دعاها قال : ياضمياء بالضاد . فقال له ابن المقفع : قل يا ظمياء ، فناداها يا ضمياء . فلما غير عليه ابن المقفع مرتين أو ثلاثاً ، قال : هى جاريتى أو جاريتك ! ؟ » .

ولسنا ندهش بعد هذا أن تروى لنا المعاجم العربية مثل الكلمات الآتية :

(١) ضج : صاح فى غير الحرب ، ظج : صاح فى الحرب .

---

(١) ص ٤٩٩ .

(٢) ج ٢ ص ٣٢٨ .

(٣) ج ١ ص ٥٠ .

(٤) البيان والتبيين ج ٢ ص ٢١٥ .

(٢) التقريض = التقريظ .

(٣) عضته الحرب ، عظته .

(٤) فاضت روحه . فاظت روحه .

(٥) جض : مشى ، جظ : عدا .

(٦) أبهضني : فدحني ، بهظه الأمر : غلبه وثقل عليه .

(٧) بض أوتاره : حركها ليهيئها للضرب ، بظ .

وهذا الخلط الذى وقع فى بعض اللهجات المغمورة إنما كان سببه أن هذين الصوتين على حسب وصف سيبويه لهما يشتركان فى بعض النواحى الصوتية ، أو بعبارة أخرى كان وقعهما فى الآذان متشابها .

ولعل مما يستأنس به لهذا التشابه بين الصوتين فى النطق القديم وقوعهما فى فاصلتين متواليتين من فواصل القرآن الكريم ، مثل ما جاء فى سورة فصلت ، قال تعالى « فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ . وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه ، وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض » .

وفى رأيى أن الانسجام الموسيقى بين فواصل كثير من الآيات القرآنية يهدينا إلى النطق الأصلى لبعض أصوات اللغة وقت نزول القرآن [١] .

وإذا أخذنا برأى ابن قتيبة وغيره من الربط بين كثير من القراءات القرآنية ولهجات العرب القدماء نجد أن القراءة المروية فى قوله تعالى « وما هو على الغيب بضنين » قرىء أيضاً « بظنين » ، يمكن تفسيرها على أساس أن قلة من العرب كانوا ينطقون الضاد ظاء . ونشعر من كلام ابن جرير الطبرى فى تفسيره أنه يميل إلى هذا . فهو يقول بعد ذكر هذه القراءة ما نصه « وأولى القراءتين فى ذلك

---

(١) انظر للمؤلف مقالا بعنوان « على هدى الفواصل القرآنية » ، مجموعة البحوث والمحاضرات لمجمع اللغة العربية عام ٦١ — ١٩٦٢ .

عندى بالصواب ما عليه خطوط مصاحف المسلمين متفقة وإن اختلفت قراءتهم به وذلك « بضنين » بالضاد ، لأن ذلك كله كذلك فى خطوطها ، فإن كان ذلك كذلك فأولى التأويلين بالصواب فى ذلك تأويل من تأوله : « وما محمد على ما علمه من وحيه وتنزيله ببخيل بتعليمكموه أيها الناس » . فالمصاحف كلها تتفق فى رسم الكلمة بالضاد وفى رأى الطبرى ترجيح معنى واحد للآية حتى مع القراءتين .

أما الزمخشرى فى الكشاف فيذكر أن الكلمة قد رسمت فى مصحف عبد الله بن مسعود بالظاء وفى مصحف أبى بالضاد . ويقرر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ الكلمة بالضاد . ثم يقول الزمخشرى ما نصه « وإتقان الفصل بين الضاد والظاء واجب، ومعرفة مخرجيهما لابد منه للقارىء، فإن أكثر العجم لا يفرقون بين الحرفين . وإن فرقوا ففرقا غير صواب ، وبينهما بون بعيد .. » إلى أن يقول : « ولو استوى الحرفان لما ثبتت فى هذه الكلمة قراءتان اثنتان ، واختلاف بين جبلين من جبال العلم والقراءة ، ولما اختلف المعنى والاشتقاق والتركيب » .

فى رأى الزمخشرى أن للآية معنى على القراءة بالضاد يختلف عن معناها على القراءة بالظاء . ولكنى أطمئن إلى رأى الطبرى وأميل إلى ترجيحه ، وأرى القراءة بالظاء إنما كانت على أساس لهجة بعض العرب القدماء ممن كانوا ينطقون بالضاد ظاء .

وهكذا نرى أن علماء اللغة حتى أواخر القرن الثانى من الهجرة لم يشيروا إلى صوت الضاد على أنه مما تميزت به العربية وحدها ، ولم يطلقوا على هذه اللغة ذلك القول المأثور : « لغة الضاد » . وكل ما أشاروا إليه فى كتبهم أنه كان هناك أنواع من النطق غير مستحسنة وقعت فى بعض الأصوات ومن بينها الضاد .

ثم جاء الجاحظ وتوقعنا أن نرى فى كتبه ما يوضح هذا الغموض ، فهو الذى

عنى عناية كبيرة بلغة العرب ، ونطق العرب ، وموقف الأعاجم من أصوات العرب . فقد تحدث عن كثير من عيوب النطق بين المتكلمين ، كما تحدث عن نطق النبطى والخراسانى والأهوازى والزنجى والسندى والحبشى ، وكان مما قرره أن السندى يجعل الجيم زايا ، ولا يقدر على غير هذا (ولو أقام فى عليا تميم وفى سفلى قيس وبين عجز هوازن خمسين عاماً) . كذلك تحدث الجاحظ عن أولئك الذين كانوا ينطقون بالحاء هاء ، وبالعين همزة ، وبالقاف كافا ، وغير ذلك مما جاء فى البيان والتبيين [1] . وقد بلغ من إعجاب الجاحظ بلغة العرب ونطق العرب أن قال : « ليس فى الأرض كلام هو أمتع ، ولا أنفع ، ولا آنق ، ولا ألذ فى الأسماع ، ولا أشد اتصالا بالعقول السليمة ، ولا أفتق للسان ، ولا أجود تقويما للبيان من طول سماع حديث الأعراب العقلاء الفصحاء » .

ومع هذا أو برغم هذا ، لا نكاد نعثر فى كلام الجاحظ على إشارة لصوت الضاد وموقف العرب أو الأعاجم منها إلا قوله : « قال الأصمعى ليس للروم ضاد » .

أى أن نطق العرب للضاد فى صدر الإسلام لم يكد يسترعى انتباه أحد من العلماء ، ولم يشر إليه على أنه مما تميزت به العربية حتى أواخر القرن الثانى من الهجرة . فلم يقل أحد حتى ذلك الحين إن بعض المتكلمين بالعربية قد تعثروا فى النطق بهذا الصوت وحده ، وإن العربية سميت لغة الضاد من أجل ذلك .

أما إشارة الجاحظ إلى أن الأصمعى كان يقول « ليس للروم ضاد » فهى إشارة مقتضبة وملاحظة لغيره وليس مسؤولا عنها ، فليست من ملاحظاته المباشرة التى مارسها بنفسه ، وأفاض فى شرحها كلما وجد انحرافا فى النطق بالأصوات العربية . فإذا صح أن بعض المتكلمين بالعربية من الأعاجم قد تعثروا فى النطق بهذا الصوت فى أيام الجاحظ فلابد أن ذلك كان من النادر ، ومثله حينئذ مثل ما كان لدى بعض

---

(١) جـ ١ ص ٨٠ — ٨٥ .

العرب القدماء . أى لم يكن من الوضوح أو الشيوع كما كان تعثرهم فى الحاء والعين وغيرهما من الأصوات التى ذكرها الجاحظ . فابن المقفع مثلا وهو الفارسى الأصل والثقافة كان يستطيع التمييز بين الضاد والظاء، وقد حاول إصلاح النطق بهما لرجل من البصرة فى قصة ظمياء وضمياء . وإذا افترضنا أن هذا الرجل كان من العرب يكون شأنه شأن تلك اللهجة العربية المغمورة التى حكاها الفراء عن المفضل ، أما إذا كان من العجم فهذا دليل أيضاً على أن خلط الأعاجم بين الصوتين كان نادراً، على الأقل ، حتى أوائل القرن الثالث من الهجرة . فلم يكن من الشيوع بحيث يميز العجمى من العربى فى أثناء الكلام بالعربية .

ثم بدا بعد الجاحظ فى سرعة عجيبة اضطراب الألسنة فى النطق بالضاد العربية ، وظهر الخلط بينها وبين الظاء فى الشرق بصفة خاصة بعد أن تغلغل الفرس والأتراك فى البيئة العربية . وكأننا نعرف موقف الفرس والأتراك من الضاد إذ نسمعها منهم ظاء عامية أى تلك التى يلتقى فيها طرف اللسان بأصول الثنايا العليا ، كما هو الشأن فى نطق العامة لكلمة « مضبوط » ، مظبوط ، « ضابط » ظابط ، « حضرتنا » حظرتنا . . . الخ .

ويبدو أن أثر الفرس والأتراك كان فى الشرق أعمق منه فى أى مصر آخر من الأمصار العربية .

وإذا سلمنا بما ينسبه بروكلمان إلى ابن قتيبة من تأليف أرجوزة فى الضاد والظاء ذكر فيها مجموعة من الكلمات التى تكتب بالضاد والتى تكتب بالظاء ، يكون الخلط بين الصوتين قد بدأ يسترعى الانتباه عقب وفاة الجاحظ مباشرة ، وتكون هذه الأرجوزة هى المحاولة الأولى بين تلك المحاولات التى ظهرت بعد ذلك ، وفى كل عصور اللغة ، رغبة فى التمييز بين الصوتين من حيث الكتابة لا من حيث النطق [1] . ولكنى أشك فى نسبة هذه الأرجوزة إلى ابن قتيبة ، وأظن أن

---

(١) نشر هذه الأرجوزة داود جابى فى مجلة لغة العرب ج ٧ ص ٤٦١ — ٤٦٣ .

المحاولة الأولى لهذا التمييز الكتابى هى تلك التى قام بها الصاحب ابن عباد فى القرن الرابع الهجرى . فلم يكد يبدأ هذا القرن حتى أحس بعض علماء اللغة باضطراب الألسنة فى التمييز بين هذين الصوتين (الضاد ، والظاء) اضطرابا شديداً ، بل بلغ الأمر بهذا الاضطراب أن امتد إلى أقلام بعض الكتاب فأصبحوا يكتبون بعض الكلمات المشتملة على الضاد بالظاء أو العكس ، وهذه هى الظاهره التى نشهدها الآن بين التلاميذ فى بعض البلاد العربية. ولما استفحل الأمر فى القرن الرابع الهجرى شهدنا من علماء اللغة من يؤلفون كتيبات ينصون فيها على الكلمات التى تكتب بالضاد والتى تكتب بالظاء ، مثل ذلك الكتيب الذى وضعه الصاحب ابن عباد وسماه « الفرق بين الضاد والظاء » ، وقد حقق هذا الكتيب ونشر فى بغداد منذ عدة سنوات [١] . وقد جمع الصاحب ابن عباد فى هذا الكتيب نحو ثمانين من مواد اللغة التى كانت مظنة الخلط بين الضاد والظاء .

وهنا ولأول مرة بدأنا نسمع عن اختصاص العربية وحدها بالضاد ، وعن تسميتها بلغة الضاد ، فيقول المتنبي فى قصيدته التى مطلعها :

كم قتيل كما قتلت شهيد   لبياض الطلى وورد الخدود

لا بقومى شرفت بل شرفوا بى   وبنفسى فخرت لا بجدودى

وبهم فخر كل من نطق الضاد   وعوذ الجانى وغوث الطريد

ويقول ابن جنى فى « سر الصناعة » حين يتحدث عن الضاد : « واعلم أن الضاد للعرب خاصة ولا يوجد من كلام العجم إلا القليل » . ولكن الغريب أن يقول ابن فارس فى الصاحبى : « وزعم ناس أن الضاد مقصورة على العرب دون سائر الأمم » [٢] . هذا برغم معاصرة ابن جنى لابن فارس ، وبرغم الصداقة الوثيقة بين ابن فارس والصاحب ابن عباد .

---

(١) تحقيق الشيخ محمد حسين آل ياسين . مطبعة المعارف ببغداد سنة ١٩٥٨ .
(٢) ص ٧ .

ثم استمر علماء اللغة بعد هذا فى جهادهم للتمييز بين الضاد والظاء ، ولكن جهودهم كانت مقصورة على التمييز الكتابى لا النطقى . فبعد أن رأوا أن التمييز بين الصوتين فى النطق قد أصبح أمراً عسيراً قنعوا بتأليف كتيبات ورسائل تتضمن الكلمات التى تكتب بالضاد والتى تكتب بالظاء . فيقول ابن مكى الصقلى فى القرن الخامس الهجرى مشيراً إلى الخلط بين هذين الصوتين (١) . « هذا رسم قد طمس ، وأثر قد درس من ألفاظ جميع الناس خاصتهم وعامتهم ، حتى لا نكاد نرى أحدا ينطق بضاد ولا يميزها من ظاء . وإنما يوقع كل واحدة منهما موقعها ، ويخرجها من مخرجها الحاذق الثاقب إذا كتب أو قرأ القرآن لا غير . فأما العامة وأكثر الخاصة فلا يفرقون بينهما فى كتاب ولا قرآن » ، ثم يذكر مجموعة من الكلمات القرآنية وغيرها مما يكتب بالظاء وعدتها خمسون كلمة . ثم يختم حديثه بقوله : فهذه أيدك الله جملة مختصرة إذا أنت عرفتها ، ورددت إليها ما اشتق منها ... وعلمت أن كل ماعداها مما يكثر استعماله فهو بالضاد ، كنت قد نهضت من العلم بحمل أعجز الحامل له ، على خفته ، وحللت من التخصص محلا أعوز السامين له، على قربه ، وأحييت ما أماته الناس ، على شدة حاجتهم إليه . فقد قال أهل العلم : لا تجوز الصلاة خلف من يبدل الضاد ظاء فى فاتحة الكتاب ... الخ » . وهكذا نرى أن الخلط بين الصوتين قد شاع وانتشر حتى وصل إلى صقلية ، وتطلب جهوداً كبيرة من العلماء فى القرون التى تلت هذا . ثم ألف الحريرى مقامة جمع فيها قدرا كبيراً من الكلمات الضادية والكلمات الظائية ، وحذا حذوه ابن مالك فى كتابه « الاعتضاد فى معرفة الظاء والضاد » . وكذلك كان الشأن مع السيوطى فى المزهر . ويقول السيوطى فى الهمع مانصه (٢) « والضاد أصعب الحروف فى النطق ، ومن الحروف التى انفردت العرب بكثرة استعمالها ، وهى قليلة فى لغة بعض العجم ومفقودة فى لغة الكثير منهم ».

---

(١) تثقيف اللسان وتلقيح الجنان ص٩١ تحقيق الدكتور عبد العزيز مطر سنة ١١٦٦ .
(٢) ج ٢ ص ٢٢٨ .

ثم ينتهى بنا المطاف إلى كلام صاحب تاج العروس حين يقول [1] « الضاد حرف هجاء وهو حرف مجهور وهو أحد الحروف المستعلية يكون أصلا لا بدلا ولا زائدا. وهو للعرب خاصة أى يختص بلغتهم فلا يوجد فى لغات العجم وهو الصواب الذى أطبق عليه الجماهير . ونقل شيخنا عن أبى حيان رحمة الله : انفردت العرب بكثرة استعمال الضاد وهى قليلة فى لغة بعض العجم ومفقودة فى لغة الكثير منهم وذلك مثل العين المهملة ، وذكر أن الحاء المهملة لا توجد فى غير كلام العرب ، ونقل مانقله فى الضاد فى محل آخر عن شيخه ابن أبى الأحوص ثم قال : والظاء المشالة مما انفردت به العرب دون العجم ، والذال المعجمة ليست فى الفارسية والثاء المثلثة ليست فى الرومية ولا فى الفارسية ، قال ابن قريب والفاء ليست فى لسان الترك ... الخ » .

ليس الأمر إذن مقصوراً على الضاد ، فقد تعثر الأعاجم فى صدر الإسلام فى النطق بأصوات عربية أخرى أكثر من تعثرهم فى النطق بالضاد . أما تسمية العربية بلغة الضاد فقد ظهر لنا أنها ترجع إلى القرن الرابع الهجرى . فقد شاعت وذاعت حينئذ للتمييز بين العرب وغيرهم من الفرس والأتراك، وكان هذا فى بغداد ومنها انتقلت هذه التسمية إلى البلاد العربية الأخرى ، وأصبحت قضية مسلمة دون تفكير فى أصل منشئها ، ودون اهتداء إلى المسؤول الأول عنها .] .

التاء : صوت شديد مهموس ، لافرق بينه وبين الدال سوى أن التاء مهموسة والدال نظيرها المجهور ، فنى تكون التاء لا يتحرك الوتران الصوتيان ، بل يتخذ الهواء مجراه فى الحلق والفم حتى ينحبس بالتقاء طرف اللسان بأصول الثنايا العليا فإذا انفصلا انفصالا فجائياً سمع ذلك الصوت الانفجارى .

الطاء : الطاء كما نعرفها فى مصر لاتفترق عن التاء فى شىء ، غير أن الطاء أحد أصوات الإطباق (انظر الشكل ٧) . فالطاء كما ننطق بها الآن صوت شديد

(١) ج ٢ ص ٤٠٦ .

مهموس يتكون كما تتكون التاء ، غير أن وضع اللسان مع الطاء يختلف عن وضعه مع التاء ، فاللسان مع الطاء يتخذ شكلا مقعراً منطبقاً على الحنك الأعلى ، ويرجع إلى الوراء قليلا .

وقد أجمع الرواة فى وصفهم للطاء القديمة على أنها صوت مجهور ، مما يحملنا على الاعتقاد أن الطاء القديمة تخالف التى ننطق بها الآن . على أن وصف الطاء فى كتب الأقدمين لا يمكن الباحث المدقق من تحديد كل صفات ذلك الصوت ؛ ولا كيف كان ينطق به على وجه الدقة . غير أنه من الممكن أن نستنتج من وصفهم أنها كانت صوتاً يشبه الضاد التى نعرفها الآن . وهنا يتضح معنى قول ابن الجزرى إن المصريين ينطقون بالضاد المعجمة طاء مهملة .

وليس من المحتمل أن يكون القدماء قد خلطوا فى وصفهم بين صفتى الجهر والهمس فيما يتعلق بهذا الصوت ، ولكن الذى أرجحه أن صوت الطاء كما وصفها القدماء كان يشبه الضاد الحديثة لدى المصريين ، ولعل الضاد القديمة كانت تشبه ما نسمعه الآن فى بعض البلاد العربية فى نطقها . ثم تطور الصوتان فهمست الأولى وأصبحت الطاء التى نعرفها الآن ، كما اختلف مخرج الثانية وصفتها فأصبحت تلك الضاد الحديثة ، أى أن ما كان يسمى بالطاء كان فى الحقيقة ذلك الصوت الذى ننطق به الآن نحن المصريين ونسميه « ضادا » ، فلما همست أصبحت الطاء الحديثة التى فيما يظهر لم تكن معروفة فى النطق العربى القديم . أما الضاد القديمة العصية النطق فقد تطور مخرجها وصفتها حتى أصبحت على الصورة التى نعهدها فى مصر .

ويؤيد هذا ما نسمعه الآن من نطق أهل اليمن وبعض البدو للطاء فى كلمة مثل « مطر وأمطار » كأنما هى (مضر ، أمضار) فالطاء القديمة المجهورة لا نزال نسمعها فى بعض اللهجات الحديثة . كما يؤيده قول ابن جنى فى سر الصناعة نقلا عن سيبويه فى كتابه (لولا الإطباق لصارت الطاء دالا ، والصاد سينا ،

والظاء ذالا ، ولخرجت الضاد من الـكلام ، لأنه ليس شيء من موضعها غيرها).
فهما فى هذا النص يتحدثان عن الأصوات المطبقة وما يمكن أن يكون لهـا
من نظائر منفتحة . فالطاء عندهما صوت مطبق ونظيره غير المطبق هو الدال
أى أن اللسان مع الطاء يـكون مقعراً (انظر شكل ٧) ولا يـكون كذلك مـع
الدال ، فـكلاهما مجهور ومخرجها واحد ولافرق بينهما إلا فى شكل اللسان مـع
كل منهما .

ولـكن التجارب الحديثة تبرهن على أن الطاء كما ننطق بها الآن صوت
مهموس وأن نظيرها غير المطبق هو التاء ، كما تبرهن على أن الصوت المطبق الذى
نظيره الدال هو الضاد كما ننطق بها الآن . فما وصفوه لنا على أنه الطاء هو فى الحقيقة
الضاد المصرية الحديثة . كذلك يستنتج من قول سيبويه « ولخرجت الضاد من
الـكلام » أنه قد قصد ضاداً غير التى ننطق بها الآن ، لأن التى ننطق بها الآن
إذا جردت من الإطباق أصبحت دالا. وقد شرحنا آنفا موقف الضاد ، كما شرحنا
السر فى تسمية العربية بلغة الضاد .

ج — اللام . الراء . النون .

لقد سمى بعض القدماء هذه الأصوات الثلاثة بالأصوات الذلقية. ولن أحاول
هنا التعرض لسر هذه التسمية القديمة ، وإنما أبغى الانتفاع بها فقط . ولاشك
أن المؤلفين القدماء قد أحسوا بالعلاقة الصوتية بين هذه الأصوات فجمعوها تحت
اسم واحد أياً كان هذا الإسم . وكذلك المحدثون من علماء الأصوات اللغوية
يرون وجه شبه كبير بين هذه الأصوات الثلاثة كما سنبين فيما بعد ، فلا بأس إذن
من أن نعدها مجموعة صوتية متميزة .

أما وجه الشبه بين أفراد هذه المجموعة الفرعية كما يراه المحدثون فهو أنهـا
مع قرب مخارجها تشترك فى نسبة وضوحها الصوتى ، وأنها من أوضح الأصوات
الساكنة فى السمع ، ولهذا أشبهت من هذه الناحية أصوات اللين . فهى جميعاً

ليست شديدة أى لا يسمع معها انفجار ، وليست رخوة فلا يكاد يسمع لها ذلك الحفيف الذى تتميز به الأصوات الرخوة . ولذلك عدها القدماء من الأصوات المتوسطة بين الشدة والرخاوة . أما باقى الأصوات المتوسطة كالميم والعين فهما بعيدان عن أصواتنا الثلاثة من ناحية المخرج وإن اتحدا معها صفة .

اللام : اللام نوعان مرققة ومغلظة . على أن الأصل فى اللام العربية الترقيق ، ولا يجوز الرجوع عن هذا الأصل عند جمهور القراء إلا بشرطين :

١ — أن يجاور اللام أحد أصوات الاستعلاء « ولا سيما الصاد والطاء والظاء » سا كناً أو مفتوحاً .

٢ — أن تكون اللام نفسها مفتوحة .

مثل : وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم — سيصلى ناراً ذات لهب — سلام هى حتى مطلع الفجر — والمطلقات يتربصن بأنفسهن — وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون — ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً .

على أن جمهور القراء قد أجمعوا على تغليظ اللام فى اسم الجلالة إلا إذا كان يسبقها كسرة نحو : بسم الله .

واللام صوت متوسط بين الشدة والرخاوة ، ومجهور أيضاً . ويتكون هذا الصوت بأن يمر الهواء بالحنجرة فيحرك الوترين الصوتيين ، ثم يتخذ مجراه فى الحلق وعلى جانبى الفم فى مجرى ضيق يحدث فيه الهواء نوعاً ضعيفاً من الحفيف . وفى أثناء مرور الهواء من أحد جانبى الفم أو من كليهما ، يتصل طرف اللسان بأصول الثنايا العليا وبذلك يحال بين الهواء ومروره من وسط الفم فيتسرب من جانبيه .

أما الفرق بين اللام المرققة والمغلظة فهو فى وضع اللسان مع كل منهما لأن اللسان مع المغلظة يتخذ شكلا مقعراً كما هو الحال مع أصوات الإطباق

(انظر شكل ٧) ، فالفرق بين اللام المرققة والمغلظة هو نفس الفرق الصوتى بين الدال والضاد ، أو التاء والطاء ، ولكن الرسم العربى لم يرمز إلى اللام المغلظة برمز خاص تختلف باختلافه الكلمة ، ولهذا نعد نوعى اللام صوتاً واحداً أو فونيما واحداً ، ولكن « التاء » صوت مستقل عن « الطاء » تختلف الكلمة فى معناها مع كل منهما . ولذا يعدّ كل منهما فونيما مستقلا .

ومن القرّاء من يفخم معظم اللامات مثل « ورش » القارىء المصرى المشهور ، مما هو مفصل فى كتب القراءات .

الراء : هى أيضاً نوعان : مرققة ومفخمة، ورغم اختلاف القراء فى تفخيم الراء وترقيقها إلى حد يشبه الاضطراب ، يمكن أن نستخلص من تلك الآراء المتشعبة ضوابط عامة يكاد يجمع عليها القراء :

١ — تفخم الراء المفتوحة إلا إذا سبقها كسرة أو ياء مدّ نحو : رزقكم — صبروا .

ولكنها ترقق فى مثل : لم يكن الله ليغفر لهم — فقد خسر خسرانا مبينا . وإن كانت لكبيرة .

٢ — ترقق الراء المكسورة مطلقا مثل : رزْق — رجْس .

٣ — تفخم الراء الساكنة إذا سبقها فتح مثل : يرجعون .

٤ — وأما الساكنة التى يسبقها كسر فترقق مثل : فرعون ، إلا إذا وليها صوت استعلاء مثل : قرطاس .

أما الراء المضمومة أو الساكنة وقبلها ضم فحكمها غامض لا نكاد نهتدى فيه إلى رأى ينطبق على ما نسمعه من أفواه القراء فى الوقت الحاضر .

والفرق بين الراء المرققة والمفخمة يشبه الفرق بين اللام المرققة والمغلظة ، أى أن الراء المفخمة تعد من الناحية الصوتية أحد أصوات الإطباق ، ولكن الرسم العربى لم يرمز لها برمز خاص يتغير بتغيره معنى الكلمة . ولهذا نعد كلا النوعين صوتاً واحداً أو فونيما واحداً .

وليس يغني عنا شيئاً أن نبحث فى : هل الأصل فى الراء التفخيم أم الترقيق ؟ ولكن الكثرة فيما ورد من الراءات جاء مفخماً ؛ وذلك لأن نسبة شيوع الفتحة فى اللغة العربية حوالى ٤٦٠ فى كل ألف من الحركات قصيرها وطويلها ، فى حين أن الكسرة حوالى ١٨٤ والضمة ١٤٦ . على أنه مما لا شك فيه أن العرب كانوا يستقبحون تفخيم الراءات المكسورة ،وينسبون تفخيم الراء المكسورة إلى العوام وإلى «النبط» على حسب ما روى فى كتب القدماء .

والراء صوت مكرر ، لأن التقاء طرف اللسان بحافة الحنك مما يلى الثنايا العليا يتكرر فى النطق بها ، كأنما يطرق طرف اللسان حافة الحنك طرقاً ليناً يسيراً مرتين أو ثلاثا لتتكون الراء العربية .

والراء كاللام فى أن كلا منهما من الأصوات المتوسطة بين الشدة والرخاوة ، وأن كلا منهما مجهور . فلتكوّن الراء يندفع الهواء من الرئتين ماراً بالحنجرة فيحرك الوترين الصوتيين ، ثم يتخذ مجراه فى الحلق والفم حتى يصل إلى مخرجه وهو طرف اللسان ملتقيا بحافة الحنك الأعلى فيضيق هناك مجرى الهواء .

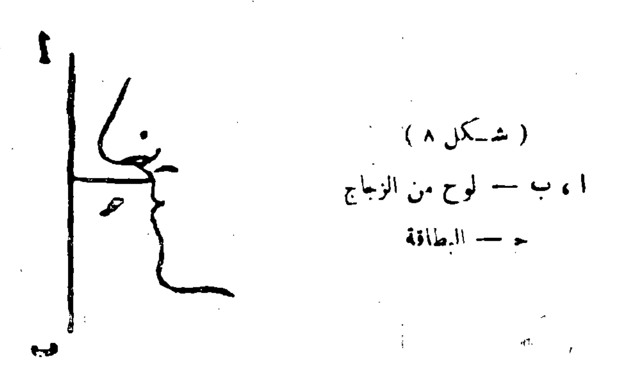
والصفة المميزة للراء هى تكرر طرق اللسان للحنك عند النطق بها .

النون: صوت مجهور متوسط بين الشدة والرخاوة ، ففى النطق به يندفع الهواء من الرئتين محركا الوترين الصوتيين ، ثم يتخذ مجراه فى الحلق أولا ، حتى إذا وصل إلى الحلق هبط أقصى الحنك الأعلى فيسد بهبوطه فتحة الفم ويتسرب الهواء من التجويف الأنفى محدثاً فى مروره نوعاً من الحفيف لا يكاد يسمع .

فهى فى هـــذا كالميم ، غير أنه يفرق بينهما أن طرف اللسان مـع النون يلتقى بأصول الثنايا العليـا ، وأن الشفتين مـع الميم هما العضوان اللذان يلتقيـان .

ولبيان أن مجرى الهواء مع كل من الميم والنون هو التجويف الأنفى وحده يمكن أن تجرى التجربة الآتية :

يضع المتـكلم بطاقة صغيرة بين أنفه وفمه وضعاً أفقياً كما هو مبين فى الشـكل الآتى ، ثم يقترب من لوح بارد من الزجاج بحيث يلتقى طرف البطاقة بالزجاج وينطق أمامه بالصوتين مْ نْ عدة مرات فيلحظ أن تنفسه يتـكاثف فوق الزجاج ويغير الجزء الزجاجى المقابل للأنف فقط ، فى حين أنه لو أعاد التجربة بأصوات مثل : سْ جْ لرأى اغبرار الزجاج فى الجزء الذى أمام الفم فقط .



(شـكل ٨)
ا ، ب — لوح من الزجاج
حـ — البطاقة

وقد خصت كتب القراءات « النون » بالبحث الخاص ، وأفردت لهـا فصولا درست فيها أحكام النون من إظهار وإخفاء وإدغام وقلب .

ويعرض للنون من الظواهر اللغوية ما لا يشركها فيه غيرها لسرعة تأثرها بمـا يجاورها من أصوات ، ولأنهـا بعد اللام أكثر الأصوات الساكنة شيوعا فى اللغة العربية ، والنون أشد ما تـكون تأثراً بما يجاورها من أصوات حين تـكون مشكلة بالسكون ، حينئذ يتحقق اتصالها بما بعدها اتصالا مباشراً

إظهار النون : لا تكاد النون تتأثر بأصوات الحلق حين تجاورها ، وربما كان هذا لبعد مخرج النون عن مخرج هذه الأصوات . فالنون فى عدم تأثرها بأصوات الحلق تماثل اللام ، فكل من النون واللام لا يتأثر بأصوات الحلق ؛ بل ينطق بهما خالصتين من كل شائبة . ويتوقف تأثر النون بما يجاورها من أصوات على نسبة قرب المخرج . فهى أكثر تأثراً بمجاورة أصوات طرف اللسان ووسطه من تأثرها بمجاورة تلك التى مخرجها أقصى اللسان . وليس المخرج وحده هو العامل الوحيد فى هذا التأثر ؛ بل لا بد معه من صفة الصوت . فالنون التى هى من الأصوات المتوسطة أقل تأثراً بأصوات الشدة والرخاوة من تأثرها بمثيلاتها من الأصوات المتوسطة . ولابد من مراعاة العاملين معا للحكم على نسبة تأثر النون بما يجاورها .

هذا هو ما بنى عليه القدماء أحكام النون المشهورة . فالنون المشكلة بالسكون ينعدم تأثرها بأصوات الحلق ، لبعد المخرج والصفة بين النون وهذه الأصوات . على أن اشتراك العين مع النون فى صفة التوسط لم يكن مبرراً كافياً فى رأى العلماء القدماء لإحداث هذا التأثر . فرغم أن كلا من النون والعين فى رأيهم من الأصوات المتوسطة لا نكاد نلحظ أى نوع من تأثر النون بمجاورتها للعين فى مثل « أنعمت » ، وربما أثبتت البحوث المستقبلة نوعا من التأثر لم يفطن إليه من قبل .

ودرجات تأثر النون بالأصوات المجاورة تتراوح بين إظهارها خالصة دون شائبة مع أصوات الحلق ، وإدغامها إدغاما كاملا فى الراء واللام ، إذ تفنى النون فيهما عند جمهور القراء نحو « من ربهم ، فإن لم تفعلوا » . وبين إظهار النون وإدغامها إدغاما كاملا ، نلحظ درجات مختلفة لتأثر النون هى :

١ — إخفاؤها .

٢ — إدغامها إدغاماً ناقصاً وهو فناء النون مع بقاء ما يشعر بها ، وهو الذى اصطلح على تسميته الإدغام بالغنة .

٣ — قلبها إلى ميم .

أما إظهار النون مع أصوات الحلق فنلاحظه فى مثل :

من آمن – أنهاراً – وانحرْ – أنعمت – من خير – من غلّ . ففى مثل هذه الحالات لا نكاد نلحظ تأثر النون ، لأنها جاورت أصوات الحلق . واختلاف بعض القراء فى حكم النون حين تجاور الغين والخاء بين الإظهار والإخفاء يوضح لنا أن قرب مخرج الصوت المجاور للنون هو العامل الأساسى فى تأثرها ، لأن مخرج هذين الصوتين هو أدنى الحلق إلى الفم ، فمن نظر إليهما على أنهما أقرب إلى أصوات الفم أخفى النون معهما ، ومن نظر إليهما على أنهما من أصوات الحلق أظهرها .

ويظهر أن النون قد تطورت تطوراً كبيراً فى لهجات الكلام منذ القرون الإسلامية الأولى ؛ فمالت إلى أن تدغم مع الكثرة الغالبة من الأصوات الساكنة مما جعل القراء يبالغون فى الجهر بغنة النون مع أصوات الفم خشية أن تفنى النون فيها . وفناء النون ظاهرة شائعة فى اللغة العبرية أكثر من شيوعها فى اللغة العربية ؛ لأن النون تدغم مع الكثرة الغالبة من الأصوات الساكنة فى اللغة العبرية ، ويترتب على إدغامها فناؤها فناء تاما .

فإظهار النون هو الأصل فى اللغات السامية ، تطور فيما بعد إلى الإدغام . وميل النون إلى الإدغام أو الفناء فى غيرها يمكن أن يلحظ الآن فى اللهجات العربية الحديثة التى هى تطور اللغة العربية الفصحى . فكما تطورت النون فى العبرية حتى صارت إلى الفناء فى الكثرة الغالبة

من أصواتها ، تطورت أيضاً فى اللهجات العربية الحديثة ، وإن اختلفت نسبة التطور فى كل منها .

ويظهر أن ميل النون إلى هذا التطور قد لوحظ منذ القرون الإسلامية الأولى، مما جعل القراء يحرصون على وضع قواعد خاصة بالنون يفرقون بهـا بين النطق المروى عن فصحاء العرب للنون ، وبين ذلك النطق الذى شاع فى لهجات الـكلام بعد اتساع رقعة الدولة العربية .

واللغة العبرية كالعربية لا يلحظ فيهـا ميل النون إلى الفناء فى أصوات الحلق ؛ وإنما مالت النون فى اللغتين منذ القـــدم إلى الفناء فى غير هذه الأصوات .

والوسيلة التى لجأ إليها القراء منذ القدم لإعطاء النون بعض حقها الصوتى مع غير أصوات الحلق هى الغنة . فالغنة التى حالت بين النون وفنائها فى غيرها من الأصوات هى وسيلة لجـأ القراء إليها احترازاً من أن يقرأ القرآن كما يتـكلم الناس فى أحاديثهم الدارجة، لأن النون فى تلك الأحاديث مالت فيما يظهر إلى الفناء فى غيرها من الأصوات دون أن تخلف أية إشارة تنبىء عنها .

وليست الغنة إلا إطالة لصوت النون مع تردد موسيقى محبب فيها . فالزمن الذى يستغرقه النطق بالغنة هى فى معظم الأحيان ضعف ما تحتاج إليه النون المظهرة، وليس هذا إلا للحيلولة بين النون والفناء فى غيرها.فالفرق بين النون المظهرة ونون الغنة فرق فى الـكمية من ناحية ، وتطور النون وميلها إلى مخرج الصوت المجاور من ناحية أخرى .

إخفاء النون :

الدرجة التى تلى إظهار النون هى ما اصطلح القدماء على تسميته بالإخفاء ، ويكون هذا مع خمسة عشر صوتاً عند جمهور القراء هى : القاف ، الـكاف ، الجيم،

الشين ، السين ، الصاد ، الزاى ، الضاد ، الدال ، التاء ، الطاء ، الذال ، الثاء ، الظاء ، الفاء . وليس ماسموه بالإخفاء إلا محاولة الإبقاء على النون وذلك بإطالتها مما أدى إلى ما نسميه بالغنة . هذا إلى أننا نلحظ مع ما يسمونه بالإخفاء ميل النون إلى مخرج الصوت المجاور لها .

إدغام النون :

المرحلة الثالثة هى مرحلة فناء النون ، فقد تفنى النون تاركة وراءها نوعاً من الغنة وذلك عند مجاورتها للياء والواو . فإذا ولى النون المشكلة بالسكون ياء أو واو شددت الياء أو الواو ، ثم سمح عند النطق بهما أن يتخذ الهواء مجراه من طريقين معاً هما الفراغ الأنفى والفم . وهـذا ما اصطلح المحدثون على تسميته Nazalisation أى أن يشترك الفراغ الأنفى مع مجرى الصوت من الفم . ويمكن أن نسمى مثل هذا الصوت بالصوت « الأنفمى [1] » . ومن اللغات ما تشيع فيها هذه الظاهرة كالفرنسية . وكذلك قد تشيع فى بعض الشعوب كاليهود فهم يميلون للنطق بمعظم الأصوات من أنوفهم كأنهم خنف ، أى أن معظم أصواتهم أنفمية .

ومن الناحية الصوتية البحتة يمـكن الإنسان أن يشرك مع مجرى الهواء فى الفم مجرى آخر فى الفراغ الأنفى . فيمكن النطق بالدال مثلا أنفمية بأن يتخذ الهواء مجراه بعد مروره بالحلق من طريقين ، بعضه يتسرب من الفراغ الأنفى والبعض الآخر من الفم ، مما يترتب عليه سماع صوت ثقيل على الأذن العربية ، غير مقبول فى نطاق اللغة العربية وإن كان ضرورياً فى نطق بعض اللغات الأخرى .

---

(١) أنفمى : كلمة منحوتة من كلمتين هما الأنف والفم .

ففى نطق جميع الأصوات العربية ما عدا النون والميم يرتفع أقصى الحنك فيسد الفراغ الأنفى ولا يسمح لمرور الهواء فيه . ولـكن أقصى الحنك يهبط مع النون والميم تاركاً كل الهواء يمر من الفراغ الأنفى وحـــده ، مما جعل القدماء يسمون كلا من النون والميم أصواتاً خيشومية . والحالة الوحيدة التى يسمح فيهـا بمرور الهواء من الأنف والفم معاً هى عند جمهور القراء حين تلتقى النون بـكل من اليــاء والواو : فذلك الصوت الأنفى الذى نسمعه فى قراءة أمثال :

(مَنْ يقول — مِنْ وال) ليس نوناً بل هو ياء أنفمية أو واو أنفمية سمح عند النطق بها بأن يمر الهواء من كل من الأنف والفم ، فالنون فى المثل الأول قلبت ياء وفى الثانى واوا ، ولـكن هذه الياء وتلك الواو قد شاب كلا منهما شائبة وهى النطق بهما من الأنف والفم معــاً . فهو نوع من القلب تبعه إدغام ؛ ولـكنه قلب ناقص إذ لم يتحول الصوت المقلوب إلى كل صفات الصوت المقلوب إليه ، ممــا جعل القدماء يسمون هـذا النوع من الإدغام إدغاماً ناقصاً .

أما إذا ولى النون المشكلة بالسكون نون أخرى أو ميم ، ففى الحالة الأولى يجتمع عندنا نونان متجاورتان ، والغنة فى هذه الحالة ليست إلا لإطالة الصوت المشدد فلا يقل فى وضوحه عنه فى حالات الإخفاء . هذا إلى أن الغنة مع النون المشددة تهب نغمة موسيقية محببة إلى الأذن العربية وتقضى على تلك العادة الشائعة فى بعض اللهجات العربية الحديثة من الميل إلى قلب النون الأولى صوت لين ، أو همسها اكتفاء بجهر الثانية . ولم يكن من الضرورى إطالة الغنة فى هذه الحالة بنفس القدر الذى نحتاج إليه فى حالة الإخفاء ، ولـكن الانسجام بين طول الصوت الواحد فى مواضعه المختلفة جعل القراء لا يفرقون بين الغنة فى هذا الموضع وبينها فى حالة الإخفاء .

أما إذا ولى النون ميم فالنون هنا تفنى فناء تاماً فى الميم ، فهو إدغام كامل لا ريب فى هذا . والغنة فى هذه الحالة هى غنة الميم المشددة .

قلب النون إلى ميم :

إذا جاورت النون الباء مجاورة مباشرة لاحظنا أن النون تتأثر بالباء وتقلب إلى صوت أنفى شبيه بالباء فى المخرج ، وهذا الصوت هو الميم . أى أن النون تفقد مخرجها ولكن لا تفقد صفتها الأنفية ، وذلك فى مثل (أنبئهم — من بعد) .

ويجدر بنا هنا الإشارة إلى أحكام الميم المشكلة بالسكون ؛ لأنها تشبه إلى حد ما أحكام النون من إدغام وإخفاء وإظهار .

إظهار الميم :

هو الشائع الغالب على هذا الصوت ، وذلك لأنه أقل تأثراً من النون بما يجاوره من الأصوات ؛ فاحتمال فناء الميم فى غيرها نادر ، على أن القراء قد نبهوا إلى الاحتراز من إخفاء الميم مع صوت الشفة المسمى بالفاء فى نحو : «هم فيها خالدون» لأن الميم مع هذا الصوت تميل فى بعض اللهجات العربية قديمها وحديثها إلى نوع من الإدغام نظراً لقرب المخرج .

إخفاء الميم :

لقد اختلف فى إخفاء الميم مع الباء ، ولكن الجمهور رجح إخفاءها معها ؛ لأن الباء صوت شديد يؤثر فى نظائره المجاورة أكثر مما يمكن أن تؤثر الفاء . فرغبة فى الاحتراز من فناء الميم فى الباء ظهرت الغنة التى تشعر بوجود الميم . ويؤيد هذا ما ذهبنا إليه آنفاً من أن الغنة ليست إلا إطالة للصوت ،

لئلا يفنى فى غيره . وغنة الميم قليلة الشيوع لا يلجأ إليها إلا قليلا ، وذلك حين يليه باء يخشى معها من فناء الميم فيها ، أو حين تكون مشددة نحو : يعتصم بالله — حمالة الحطب .

أما فى غير ذلك فقد أجمع القراء على إظهار الميم .

وقول القراء إن النون أصل فى الغنة من الميم قول لا يبرره إلا كثرة شيوع الغنة مع النون وقلتها مع الميم . وليس معناه كما فهم بعض القدماء أن النون أقرب إلى الخيشوم من الميم . فعند النطق بكليهما يتخذ الهواء مجراه من الخيشوم فقط .

ء — السين . الزاى . الصاد .

إننا نؤثر تسمية هذه الأصوات بالأصوات الأسلية ، رغم أن معظم كتب القراءات تسميها أيضاً بتسمية أخرى أكثر شهرة ، وهى « أصوات الصفير » ، وذلك لأن مجرى هذه الأصوات يضيق جداً عند مخرجها فتحدث عند النطق بها صفيراً عالياً لا يشركها فى نسبة علو هذا الصفير غيرها من الأصوات . ولكن المحدثين من علماء الأصوات اللغوية يجمعون كل الأصوات التى تحدث فى نطقها ذلك الحفيف أو الصفير عالياً كان أو منخفضا فى صعيد واحد ، فالأصوات التى يسمع لها صفير واضح فى رأى المحدثين هى :

ث • ذ • ز • س • ش • ص • ظ • ف

على أن هذه الأصوات تختلف فى نسبة وضوح صفيرها، وأعلاها صفيراً هى السين والزاى والصاد ، مما يمكن أن يبرر تسميتها فى كتب القدماء بأصوات الصفير ، وقصر هذه الصفة عليها . وإذا أدركنا أن هذا الصفير ليس إلا نتيجة ضيق المجرى عند مخرج الصوت ، عرفنا أن المجرى عند مخرج

(الثاء والذال والزاى والسين والشين والصاد والظاء والفاء) تختلف نسبة ضيقه تبعاً لعلو الصفير مع كل منها . فعلى قدر ضيق المجرى عند المخرج يكون علو الصفير ووضوحه . وأضيق ما يكون مجرى الهواء عند النطق بالسين والزاى والصاد .

لهذا كله نؤثر هنا تسمية السين والزاى والصاد بالأصوات الأسلية ، دون البحث الآن فى سر هذه التسمية القديمة ؛ وإنما ننظر إليها على أنها مجرد تسمية لأصوات ذات صفة واحدة ومخرج واحد .

السين :

صوت رخو مهموس ، يختلف بعض الاختلاف فى مخرجه باختلاف اللهجات العربية ، بل وباختلاف الأفراد أحياناً . ففى بعض اللهجات يشتد صفير السين عنها فى البعض الآخر ؛ بل وقد يختلف قليلا وضع اللسان معها . على أن الفروق بين هذه الأنواع من السين ليست من الأهمية من الناحية اللغوية . فنطق جميع اللهجات لها مقبول حسن ؛ فإذا وصف لنا مخرج السين فى كتب القراءات القديمة على أنه من طرف اللسان فويق الثنايا السفلى ، كان هذا الوصف فى مجموعه مقبولا ، لأنه يكون نوعاً من السين لا يراها العربى غريبة على سمعه ، ولكن الكثرة الغالبة منا الآن ينطقون بالسين من أول اللسان (مشتركا معه طرف اللسان فى بعض الأحيان) حين يلتقى بأصول الثنايا العليا .

وتتميز السين أيضاً بأنه عند النطق بها تقترب الأسنان العليا من السفلى فلا يكون بينهما إلا منفذ ضيق جداً . كما أن السين العربية عالية الصفير إذا قيست بها السين فى بعض اللغات الأوربية كالإنجليزية مثلا .

فالنطق بالسين يندفع الهواء ماراً بالحنجرة فلا يحرك الوترين الصوتيين ، ثم يأخذ مجراه فى الحلق والفم حتى يصل إلى المخرج وهو كما تقدم عند التقاء طرف اللسان بالثنايا السفلى أو العليا بحيث يكون بين اللسان والثنايا مجرى ضيق جداً يندفع خلاله الهواء فيحدث ذلك الصفير العالى . هذا إلى اقتراب الأسنان العليا من السفلى فى حالة النطق بهذا الصوت .

الزاى :

صوت رخو مجهور يناظر صوت السين ، فلا فرق بين الزاى والسين إلا فى أن الزاى صوت مجهور نظيره المهموس هو السين . فالنطق بالزاى يندفع الهواء من الرئتين ماراً بالحنجرة فيحرك الوترين الصوتيين ، ثم يتخذ مجراه من الحلق والفم حتى يصل إلى المخرج وهو التقاء أول اللسان (مشتركا مع طرفه عند بعض الأفراد) بالثنايا السفلى أو العليا على النحو المتقدم شرحه مع السين .

الصاد :

صوت رخو مهموس ، يشبه السين فى كل شئ ، سوى أن الصاد أحد أصوات الإطباق (أنظر شكل ٧) . فعند النطق بالصاد يتخذ اللسان وضعاً مخالفاً لوضعه مع السين ، إذ يكون مقعراً منطبقاً على الحنك الأعلى ، مع تصعد أقصى اللسان وطرفه نحو الحنك ومع رجوع اللسان إلى الوراء قليلا ككل الأصوات المطبقة .

أصوات وسط الحنك :

الشين : صوت رخو مهموس ، عند النطق به يندفع الهواء من الرئتين ماراً بالحنجرة فلا يحرك الوترين الصوتيين ، ثم يتخذ مجراه فى الحلق ثم الفم مع مراعاة

أن منطقة الهواء فى الفم عند النطق بالشين أوسع منها عند النطق بالسين ، فإذا وصل الهواء إلى مخرج الشين وهو عند التقاء أول اللسان وجزء من وسطه بوسط الحنك الأعلى فلابد أن يترك التقاء العضوين بينهما فراغاً ضيقاً يسبب نوعاً من الصفير أقل من صفير السين ؛ وذلك لأن مجرى السين عند مخرجها أضيق من مجرى الشين عند المخرج . ويلاحظ عند النطق بالشين أن اللسان كله يرتفع نحو الحنك الأعلى كما أن الأسنان العليا تقترب من السفلى ، غير أن نسبة هذا الاقتراب أقل منه فى حالة النطق بالسين .

وللشين صوت نظير مجهور نسمعه أحياناً فى لغة الكلام عند بعض المصريين، وذلك عند النطق بكلمة مثل « مشغول » . وهذا الصوت المجهور يستعمله أهالى سوريا فى نطقهم للجيم العربية ، وهو نوع من الجيم الكثيرة التعطيش يشبه ما يسمع فى مثل الكلمة الإنجليزية (measure) .

الجيم العربية الفصيحة : ليس لدينا من دليل يوضح لنا كيف كان ينطق بالجيم بين فصحاء العرب،لأنها تطورت تطوراً كبيراً فىاللهجات العربية الحديثة. فطوراً نسمعها فى ألسنة القاهريين خالية من التعطيش وهى جيم أقصى الحنك ، وحيناً نجدها وقد بولغ فى تعطيشها كما هو الحال فى سوريا ، وأخرى نجدها صوتاً آخر يبعد إلى حد كبير عن الصوت الأصلى مثل نطق بعض أهالى الصعيد حين ينطقون بها « دالا » .

ويظهر أن الجيم التى نسمعها الآن من مجيدى القراءة القرآنية ، هى أقرب الجيم إلى الجيم الأصلية ، إن لم تكن هى نفسها . والجيم التى نسمعها الآن من المجيدين للقراءة صوت مجهور ، يتكون بأن يندفع الهواء إلى الحنجرة فيحرك الوترين الصوتيين ، ثم يتخذ مجراه فى الحلق والفم حتى يصل إلى المخرج ، وهو عند التقاء وسط اللسان بوسط الحنك الأعلى التقاء يكاد ينحبس معه مجرى الهواء .

فإذا انفصل العضوان انفصالا بطيئاً ، سمع صوت يكاد يكون انفجاريا هو الجيم العربية الفصيحة . فانفصال العضوين هنا أبطأ قليلا منه فى حالة الأصوات الشديدة الأخرى ، ولهذا يمكن أن تسمى الجيم العربية الفصيحة صوتا قليل الشدة .

وتطور هذه الجيم العربية إلى الجيم القاهرية ، أو إلى « الدال » فى لهجة بعض أهالى صعيد مصر تطور طبيعى ، ربما تبرره القوانين الصوتية ؛ لأنها فى حالة تطورها إلى الجيم القاهرية لم تزد على أن تدرجت بمخرجها إلى الوراء قليلا فقربت من أقصى الحنك ، وبهذا زادت شدة وانقطع ما يسمى عادة بالتعطيش . أما فى تطورها إلى « الدال » فقد اقتربت بمخرجها إلى الأمام ؛ وبذلك زادت شدة أيضاً وانقطع تعطيشها . ولكنا سنرى رأيا آخر فى تطور هذه الجيم الفصيحة .

على أن الجيم المسماة بالفصيحة لا تزال تسمع حتى الآن فى بعض لهجات صعيد مصر ومن بعض القبائل العربية السودانية .

وأبناء الأمم العربية فى العصر الحديث يختلفون فى نطق الجيم حين تعرض لهم فى نصوص فصيحة . فمعظم المصريين ينطقون بها شديدة لا يشوبها شىء من رخاوة ومخرجها فى نطقهم أقصى الحنك . وبعض البدو ينطقون بالجيم المسماة الفصيحة والتى هى مرحلة وسطى : فيها شىء من شدة الدال وشىء من التعطيش، ولذا ترن فى الآذان كأنما هى تبدأ بدال وتنتهى بجيم معطشة . أما أهل الشام وبعض المغاربة فينطقون بها كثيرة التعطيش خالية من الشدة . للجيم إذن من الناحية الصوتية ثلاثة أنواع : شديدة خالصة الشدة وتلك هى الجيم المصرية ، ومزدوجة من الشدة والرخاوة فيها من الصفتين معاً وتلك هى المسماة بالفصيحة ، وأخيراً تلك الجيم الرخوة الخالصة الرخاوة وهى الجيم الشامية . ومخرج النوعين الأخيرين وسط الحنك .

ولتباين النطق بهذا الصوت الآن فى البلاد العربية رأينا أن نشير هنا إلى بعض ما جاء فى بحثنا أمام أحد مؤتمرات مجمع اللغة العربية تحت عنوان « قضية الجيم » فقد قلنا ما نصه :

(هذا هو الصوت الذى فرق بين أبناء العرب فى العصر الحديث وجعل منهم أحزاباً وشيعاً ، فللقاهرى جيمه ، وللصعيدى والسودانى جيمه ، وللشامى والمغربى جيمه ، وقد كنا ونحن صغار نطالب دائماً بتعطيش الجيم حتى خيل إلينا أنه على قدر مبالغتنا فى تعطيشها تكون الفصاحة أو التفاصح .

وكثيراً ما يخطر بأذهان الدارسين الآن أن الجيم المعطشة هى الأصل وأن ما يسمع فى أفواه كثير من المصريين لا يعدو أن يكون تطوراً للصوت أو انحرافاً عن الأصل .

وكان أستاذ الأصوات فى لندن بروفسر فرث يقول لى حين تدارسنا هذا الأمر : لو قلت لى إن نطق الجيم بدون تعطيش هو الأصل استطعت فى سهولة أن أفسر لك كيف صارت إلى التعطيش ، بل استطعت أيضاً أن أدلك على نظير لهذه الظاهرة فى تطور الإغريقية ، واللاتينية إلى اللغات الأوربية الحديثة ، أما إذا قلت العكس ، أى أن الأصل هو الجيم المعطشة فعليكم أنتم أن تفسروا هذا .

وهو يشير هنا إلى قانون صوتى عرف للغويين الأوربيين فى أواخر القرن التاسع عشر وهو قانون الصوت الحنكى Palatal Law .

وملخص هذا القانون أن علماء الأصوات قد لاحظوا حين عقدوا المقارنة بين صور الألفاظ الإغريقية واللاتينية وما صارت إليه هذه الصور فى اللغات الأوربية الحديثة أن الصوتين اللذين مخرجهما من أقصى الفم وهما الجيم الخالية من التعطيش والكاف قد تطورا فى كثير من كلمات اللغات الأوربية الحديثة .

أما صوت الجيم « G » فى كل من الإغريقية واللاتينية فقد خلا من التعطيش وظل هكذا فى الألمانية ولكنه فى الفرنسية والإنجليزية قد تطور فى كثير من الكلمات فأصابه التعطيش حين وليه حركة أمامية مثل e ، i ، وظل على حاله أى دون تعطيش حين وليه حركة خلفية أو خلا من الحركة . فمثلا الكلمة اليونانية Geographo صارت فى الإنجليزية Geography وفى الفرنسية Geographie ، والكلمة اليونانية Angellos بمعنى رسول جاءت منها الكلمة الإنجليزية Angel والفرنسية Angelique, Ange وكذلك الفعل اللاتينى Rego بمعنى أحكم ، جاء منه فى الإنجليزية Regent فعطشت الجيم لأن بعدها حركة أمامية ، ولم تعطش فى Regal .

وفى ضوء هذا القانون إذا نظرنا إلى الجيم العربية وجدنا أنها من الأصوات المرققة بإجماع علماء العربية من القدماء ، ولا تكاد ترد فى كلمة واحدة مع صوت من أصوات التفخيم التى هى الصاد والطاء والظاء والضاد والخاء والغين والقاف.

وقد أعفانا بعض القدماء مشقة البحث عن الجيم مع بعض هذه الحروف ، فقد نص الجواليقى فى « المعرب » ، والشهاب الخفاجى فى « شفاء الغليل » على أن الجيم لا ترد مع الصاد والقاف والطاء فى كلمة عربية، ولذلك اعتبرت الكلمات: منجنيق ، صولجان ، طاجن ، كلمات أعجمية .

أما مجىء الجيم مع حروف التفخيم الأخرى فنادر جداً ، والكلمات التى من هذا النوع فى كل اللغة العربية لا تكاد تجاوز أصابع اليدين عدا ، رغم أن منها كلمات مشهورة جداً مثل : خرج ، نضج ، جحظ .

وحين نتتبع الكلمات الثنائية والثلاثية فى معجم الجمرة نجد أن الجيم لا تكاد ترد مع حرف من حروف التفخيم فى كلمة واحدة إلا فى بضع كلمات أشهرها ماوردت فيه الجيم مع الخاء والضاد . وكذلك الشأن فى ألفاظ القرآن

الكريم فليس فيها جيم مع حرف من تلك الحروف إلا الخاء والضاد مثل : خرج، نضجت ، المضاجع .

أى أن الجيم العربية ترد مع الحروف المرققة فى الكثرة الغالبة من الكلمات التى فيها جيم . بقى أن نتبين كيف تحرك الجيم فى الكلمات العربية ، ولذلك قمنا بعملية إحصائية للكلمات القرآنية التى تشتمل على الجيم بوصفها فاء للكلمة فوجدناها على حسب ما جاء فى « المعجم المفهرس لألفاظ القرآن » محركة بالفتحة ١١٠٧ مرة ، ومحركة بالكسرة ١٥٧ مرة ، ومحركة بالضمة ١٠٢ مرة ، وإذا كان قد تبين لنا آنفاً أن الجيم حرف مرقق ، وأنها لا تكاد تكتنف بأصوات التفخيم فى الكلمة الواحدة فمن الواضح إذن أن الفتحة التى حركت بها فتحة مرققة أيضاً ، أى أنها من الحركات الأمامية أو أقرب إليها .

فإذا جمعت المرات التى شكلت فيها الجيم بالفتحة والكسرة وجدنا أنها فى حدود ١٢٦٤ مرة ، أى أن الجيم فى الألفاظ القرآنية مشكلة فى أغلب حالاتها بحركة أمامية ، وأن الحركة الخلفية فيها أى الضمة قليلة جداً إذا قيست بمرات الحركة الأمامية ، فنسبة الحركة الخلفية للجيم لا تكاد تجاوز عشر الحركة الأمامية .

وليس من المغالاة أن نقيس نسبة حركات الجيم فى كل ألفاظ اللغة على تلك النسبة القرآنية التى اتضحت لنا .

ويمكن من أجل هذا أن نقرر — ونحن مطمئنون — أن الجيم حين تحرك تؤثر فى اللغة العربية الحركة الأمامية أى الكسرة أو الفتحة المرققة . وعليه فلسنا ندهش حين تتطور من صوت خال من التعطيش إلى صوت معطش ، لأن الحركة الأمامية قد جذبتها إلى الأمام وأصبح مخرجها أقرب إلى وسط الحنك بعد أن كان أقصى الفم ، لذلك كله نرجح أن الجيم الخالية من التعطيش هى الأصل ،

وقد بقيت على هذا الأصل السامى فى اللغات السامية الأخرى كالعبرية والسريانية ، أما فى العربية فيبدو أنها تطورت إلى التعطيش ، ثم زادت نسبة التعطيش مع الزمن حتى صارت على النحو المألوف لنا فى بلاد الشام وبلاد المغرب ، أى أن ما أصاب الجيم اللاتينية فى تطورها إلى اللغات الأوروبية الحديثة أصاب جيمنا العربية أيضاً . فالتطور الصوتى هنا ظاهرة إنسانية لأنه حدث فى كثير من اللغات البشرية .

تلك هى الجيم التى تباين فيها نطق أبناء العرب الآن . ووصف القدماء فى كتبهم لهذا الحرف فيه بعض الغموض ، فلا نكاد ندرى منه كيف كان ينطق به فى عهد النبى (صلعم) ، غير أنا حين نستعين بموسيقى الفواصل القرآنية فى سورة « البروج » نستطيع أن نرجح أن النطق القديم بهذا الحرف كان أقرب إلى نطق الدال وألصق بها من أى حرف آخر ، أى قليل التعطيش جداً . فاستمع إلى الفواصل فى هذه السورة (والسماء ذات البروج ، واليوم الموعود ، وشاهد ومشهود ، قتل أصحاب الأخدود) ، نلحظ أن الفاصلة الأولى اختتمت بحرف الجيم ثم جاء بعدها ثمانى فواصل كلها مختتمة بحرف الدال ، مما يرجح أن القراءة التى تبرز موسيقى الفواصل هنا تحتم أن ينطق بالجيم نطقاً أقرب شبهاً بالدال وأوثق اتصالا بها . وعلى أساس من هذه الملاحظة نستطيع أن نحدد كيف كان ينطق بالجيم أيام نزل القرآن الكريم .

ويقول القدماء إن الجيم حرف شديد ومع ذلك يجعلون مخرجه من وسط الفم مع الشين ، وهما أمران متناقضان .

وقد دلت الإحصاءات على أن الكلمة العربية لا يتوالى فيها حرفان من مخرج واحد أو قريبان جداً فى المخرج والصفة ، ويقضى هذا أنه لو كانت الجيم كان نظيرها المهموس هو الشين ولقربت جداً فى المخرج والصفة من

الزای . وكان يجب ـ بناء على ما دلت عليه الإحصاءات ـ ألا تسبق الجيم أو تلحق بأحد هذين الصوتين ، ولكننا نجد أن الجيم تليها الزای بكثرة مثل : جز ، جزأ ، جزر ، الجزيرة ، جزع ، وتليها الشين بكثرة أيضاً مثل : أجش ، جشأت نفسه ، جشع ، جشم .

كذلك نجد أن الشين تليها الجيم بكثرة مثل : شج . شجب . شجر . شجم ، شجن . وأن الزای تليها الجيم بكثرة مثل : زج ، زجر ، زجل ، زجا .

ويدل كل هذا على بعد الجيم العربية عن التعطيش ، فلو كانت معطشة ما أمكن أن ترد فى مثل هذه المجموعات من المواد اللغوية .

أما حين نفترض أن الجيم العربية غير معطشة تكون حينئذ أخت الكاف ومن مخرج واحد معها ، وعليه فيندر أن تجتمع معها أو أن تلى إحداهما الأخرى . وهذا هو الواقع ، فلم أجد فى المعاجم جيما تليها كاف إلا فى كلمة أو كلمتين من الغريب الحوشى مثل (جكر) أى ألح فى البيع ، أما العكس أى أن تكون الجيم بعد الكاف فلم نعثر على مثل واحد فى لغتنا العربيـــة ، بل يقول ابن دريد فى معجمه الجمهرة ما نصه (ولم تجمع العرب الجيم والكاف إلا فى كلمات خمس أو ست تراهن فى اللفيف إن شــاء الله) . ويقول ابن جنى فى سر الصناعة (حروف أقصى اللسان القاف والكاف والجيم وهذه لاتجتمع البتة) .

ويدل كل هذا على وثوق الصلة بين الجيم والكاف ، أى أن الجيم العربية الأصيلة يجب أن تكون خالية من التعطيش ، أو إذا كانت معطشة قليلا تكون هذه الصفة طارئة عليها .

أصوات أقصى الحنك :

الكاف : صوت شديد مهموس ، يتكون بأن يندفع الهواء من الرئتين

ماراً بالحنجرة فلا يحرك الوترين الصوتيين ، ثم يتخذ مجراه فى الحلق أولا ، فإذا وصل إلى أقصى الفم قرب اللهاة انحبس الهواء انحباساً كاملا ، لاتصال أقصى اللسان بأقصى الحنك الأعلى ، فلا يسمح بمرور الهواء . فإذا انفصل العضوان انفصالا مفاجئاً انبعث الهواء إلى خارج الفم محدثاً صوتاً انفجارياً هو ما نسميه بالكاف . غير أنه يظهر أن انفصال العضوين فى النطق بالكاف العربية أبطأ منه فى كثير من اللغات الأوربية ، التى فيها الكاف أكثر شدة ، فلا يسمع لانفجارها ذيول صوتية .

وللكاف نظير مجهور هو الجيم القاهرية التى نسمعها أيضاً فى اللغة العبرية والسريانية ، فهو صوت سامى شائع فى معظم اللهجات السامية . وهذا الصوت لايفترق من الكاف فى شىء سوى أن الجيم مجهورة والكاف مهموسة؛ ولكن انفصال العضوين فى الجيم القاهرية فجائى ، وهى لهذا أكثر شدة من الكاف .

القاف : القاف كما ينطق بها الآن فى مصر بين مجيدى القراءات صوت شديد مهموس ، رغم أن جميع كتب القراءات قد وصفتها بأنها أحد الأصوات المجهورة . وقد تطورت القاف فى اللهجات العربية الحديثة تطوراً ذا شأن ، لا نستطيع معه أن نؤكد كيف كان ينطق بها الفصحاء من عرب الجزيرة فى العصور الإسلامية الأولى . على أننا نستنتج من وصف القدماء لهذا الصوت أنه ربما كان يشبه تلك القاف المجهورة التى نسمعها الآن بين القبائل العربية فى السودان وبعض القبائل فى جنوب العراق ، فهم ينطقون بها نطقاً يخالف نطقها فى معظم اللهجات العربية الحديثة ، إذ نسمعها منهم نوعاً من « الغين » . والذين مارسوا التدريس لأبناء السودان يذكرون كيف يخلط التلميذ السودانى أحياناً بين القاف والغين فى نطقه وفى إملائه .

لهذا نفترض هنا أن القاف الأصلية كانت تشبـه ذلك الصوت المجهور الذى نسمعه الآن من بعض القبائل السودانية ، ثم همس مع توالى الزمن وأصابته صفة الشدة فأدى هذا إلى ما نعهده فى قراءتنا. إذ لا فرق بين نطق السودانيين للقاف وبين نطق المجيدين للقراءة من المصريين لها إلا فى أنها مجهورة وأميل إلى الرخاوة عند السودانيين ، مهموسة شديدة عند المصريين أو بعبارة أدق هى كذلك فى معظم اللهجات العربية الحديثة .

ومن الممـكن أن نفترض للقاف القديمة فرضاً آخر ربما كان أكثر احتمالا، هو أنها كانت تشبه الجيم القاهرية ولـكنها أعمق منها فى أقصى الفم وأكثر استعلاء . ويستأنس لهذا الرأى بنطق معظم البـدو الآن للقاف على هـذا النحو .

وقد تعرض ابن خلدون فى مقدمته لنطق القاف بين البـدو فى عصره، ووصفه وصفـاً غامضاً بقوله : إنه بين القـاف والـكاف . ويظهر أن ابن خلدون أراد بهذا ذلك النطق الذى لا نزال نسمعه بين البدو ، وهو ما يشبه الجيم القاهرية . ويفهم من كلام ابن خلدون أن هـذا النطق كان شائعـاً بين القرشيين حين جاء الإسلام ، بل يروى ابن خـلدون أن فقهـاء أهل البيت وهم الشيعة كانوا ينسبون هـــذا النطق للنبى صلى الله عليـه وسلم ، ولـكنه يعقب على مثل هذا القول بأنه مجرد زعم ليس هناك من دليل عليه. ولا ندهش لهذا الموقف الذى وقفه ابن خـلدون ، وهو السنى المشهور — من الفقهـاء الشيعيين .

ويظهر أن معظم القبـائل البدوية التى عاشت فى المغرب أيام ابن خلدون كانت من القبائل الحجـازية التى هاجرت فى القرن الخـامس الهجرى إلى تلك البلاد وجاءت معها بهذا النطق الخاص للقاف ! ولذلك نرجح أن نطق القـاف كالجيم القاهرية قديم ، وربما كان شائعا بين بعض القبـائل الحجـازية أيام

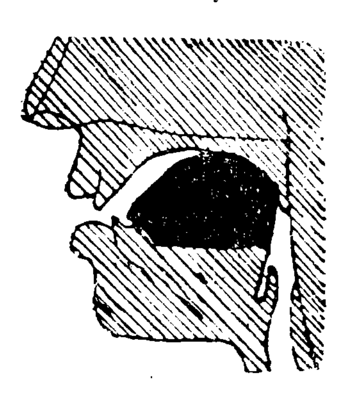
النبي صلى الله عليه وسلم . أما موقف القرشيين بصفة عامة والنبي وأصحابه بصفة خاصة من هذا النطق فأمر يحتاج إلى تحقيق .

فالقاف فى القراءات القرآنية بين المتكلمين باللغة العربية نطقان : أحدهما مهموس وهو الأكثر شيوعاً ، والآخر مجهور . ولكن القاف فى اللهجات الدارجة قد تطورت تطوراً آخر أبعد أثراً ؛ فهى تسمع فى لغة الكلام بمصر والشام همزة ، وتسمع جيماً كالجيم القاهرية فى بعض البيئات بصعيد مصر وبين كثير من قبائل البدو فى الصحراء .

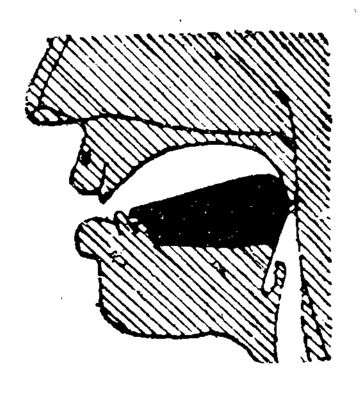
وتطور الصوت بتغير مخرجه يكون بأحد طريقين ، إما بانتقال المخرج إلى الوراء أو إلى الأمام ، باحثاً الصوت فى انتقاله عن أقرب الأصوات شبهاً به من الناحية الصوتية . فتعمق القاف فى الحلق عند المصريين لا يصادف من أصوات الحلق ما يشبه القاف إلا الهمزة ، لوجود صفة الشدة فى كل منهما . فليس غريباً إذن أن تطورت القاف فى لغة الكلام عندنا إلى الهمزة ؛ فليس بين أصوات الحلق صوت شديد إلا الهمزة . أما فى الانتقال بمخرج القاف إلى الأمام فنجد أن أقرب المخارج لها هو مخرج الجيم القاهرية والكاف ؛ فلا غرابة أن تتطور القاف إلى أحدهما . وقد رجح تطور القاف فى لغة البدو وبعض أهالى صعيد مصر إلى الجيم القاهرية ، أن القاف فى الأصل صوت مجهور ، فحين تتطور تنتقل إلى صوت مجهور أيضاً يشبهها صفة . لهذا اختارت القاف فى تطورها الأمامى الجيم دون الكاف ، لأن كلا من القاف الأصلية والجيم القاهرية صوت شديد مجهور . على أنه إذا تم تطور أمامى آخر فى المستقبل للقاف كما ننطق بها الآن فى قراءتنا فسيكون حتما بأن تقلب كافاً ، لأن كليهما صوت شديد مهموس .

فالنطق بالقاف كما نسمعها فى قراءاتنا يندفع الهواء من الرئتين ماراً بالحنجرة فلا يحرك الوترين الصوتيين ، ثم يتخذ مجراه فى الحلق حتى يصل إلى أدنى

الحلق من الفم ، وهناك ينحبس الهواء باتصال أدنى الحلق (بما فى ذلك اللهاة) بأقصى اللسان ثم ينفصل العضوان انفصالا مفاجئا ، فيحدث الهواء صوتاً انفجارياً شديداً ؛ فلا فرق بين القاف كما ننطق بها ، وبين الكاف إلا فى أن القاف أعمق قليلا فى مخرجها . ولذلك يمكن أن تسمى القاف صوتاً لهوياً نسبة إلى اللهاة (أنظر الشكلين الآتيين) :



(شكل ٩)
وضع اللسان مع الكاف



(شكل ١٠)
وضع اللسان مع القاف

الأصوات الحلقية :

(الغين . الخاء . العين . الحاء . الهاء . الهمزة)

تتميز الفصيلة السامية من اللغات الأخرى بهذه الأصوات أو بمعظمها وتلعب هذه الأصوات دوراً هاماً فى نحو اللغات السامية . والمحدثون من علماء الأصوات اللغوية لم يحاولوا حتى الآن تحديد وظيفة الحلق بين أعضاء النطق ، ولعل البحوث المستقبلة تكشف لنا عن أسرار جديدة لأصوات الحلق .

وأصوات الحلق ، ماعدا الهمزة ، كما يصفها القدماء والمحدثون أصوات رخوة ، أى يسمع لها نوع من الحفيف عند النطق بها .

الغين : صوت رخو مجهور مخرجه أدنى الحلق إلى الفم فعند النطق به

يندفع الهواء من الرئتين ماراً بالحنجرة فيحرك الوترين الصوتيين ، ثم يتخذ مجراه فى الحلق حتى يصل إلى أدناه إلى الفم ، وهناك يضيق المجرى فيحدث الهواء نوعا من الحفيف ، وبذلك تتكون الغين .

الخاء : تشترك الخاء مع الغين فى كل شىء ، غير أن الغين صوت مجهور نظيره المهموس هو الخاء . فكل من الغين والخاء صوت رخو ومخرجهما واحد . فعند النطق بالخاء يندفع الهواء ماراً بالحنجرة فلا يحرك الوترين الصوتيين ، ثم يتخذ مجراه فى الحلق حتى يصل إلى أدناه إلى الفم .

العين : عدّ هذا الصوت عند القدماء من الأصوات المتوسطة بين الشدة والرخاوة ولعل السر فى هذا هو ضعف مايسمع لها من حفيف إذا قورنت بالغين . وضعف حفيفها يقربها من الميم والنون واللام ويجعلها من هذه الأصوات التى هى أقرب إلى طبيعة أصوات اللين .

والعين صوت مجهور مخرجه وسط الحلق . فعند النطق به يندفع الهواء ماراً بالحنجرة فيحرك الوترين الصوتيين حتى إذا وصل إلى وسط الحلق ضاق المجرى، ولكن ضيق مجراه عند مخرجه أقل من ضيقه مع الغين ، مما جعل العين أقل رخاوة من الغين .

الحاء : هو الصوت المهموس الذى يناظر العين ، فمخرجهما واحد ولافرق بينهما إلا فى أن الحاء صوت مهموس نظيره المجهور هو العين .

الهاء : صوت رخو مهموس ، عند النطق به يظل المزمار منبسطا دون أن يتحرك الوتران الصوتيان ، ولكن اندفاع الهواء يحدث نوعا من الحفيف يسمع فى أقصى الحلق أو داخل المزمار ، ويتخذ الفم عند النطق بالهاء وضعاً يشبه الوضع الذى يتخذه عند النطق بأصوات اللين . والهاء عادة

صوت مهموس يجهر به فى بعض الظروف اللغوية الخاصة وفى هذه الحالة يتحرك معها الوتران الصوتيان ، كما يسمع لهذه الهاء المجهورة نوع من الحفيف لولاه لكانت هذه الهاء أقرب إلى صو ت لين عادى .

وعند النطق بالهاء المجهورة يندفع من الرئتين كمية كبيرة من الهواء أكبر مما يندفع مع الأصوات الأخرى ، فيترتب عليه سماع صوت الحفيف مختلطاً بذبذبة الوترين الصوتيين .

الهمزة : رغم الاعتراف بها كصوت أساسى فى كثير من لغات العالم لم تحظ برمز خاص بها فى رسم تلك اللغات . ففى بعض اللهجات الإنجليزية ينطق بالتاء همزة . وفى اللغة الدانيمركية تفرق الهمزة كصوت لا كرمز، بين الكلمتين فى المعنى . فقد لا يكون هناك فرق صوتى بين كلمتين مختلفتى المعنى سوى وجود الهمزة فى نطق أحدهما مثل : « هنء » التى تعنى « كلباً » ؟ « هَن » التى تعنى الضمير « هى » ، وكلتا الكلمتين تكتب على صورة واحدة ورموز واحدة رغم اختلاف نطقهما .

وشيوع الهمزة فى اللغات السامية أكثر كثيراً منها فى الفصيلة الهندية الأوربية .

والهمزة رغم شيوعها فى اللغة العربية لم يرمز لها الرسم العربى القديم برمز خاص ككل الأصوات الساكنة . ولتصرف القدماء فى الهمزة بالتخفيف — إبدالا ونقلا وحذفا — وتسهيلها بين بين ، كتبت بحسب ماتخفف به . فأحياناً كتبت ألفا وطوراً واواً أو ياء ،وثالثة لم يرمز لها بأى رمز ،فالرمز الذى نعرفه الآن للهمزة حديث بالنسبة للرسم العثمانى .

أما مخرج الهمزة المحققة فهو من المزمار نفسه ، إذ عند النطق بالهمزة

تنطبق فتحة المزمار انطباقاً تاماً فلا يسمح بمرور الهواء إلى الحلق ، ثم تنفرج فتحة المزمار فجأة فيسمع صوت انفجارى هو ما نعبر عنه بالهمزة.

فالهمزة إذن صوت شديد ، لا هو بالمجهور ولا بالمهموس ، لأن فتحة المزمار معها مغلقة إغلاقاً تاماً ، فلا نسمع لهذا ذبذبة الوترين الصوتيين ، ولا يسمح للهواء بالمرور إلى الحلق إلا حين تنفرج فتحة المزمار ، ذلك الانفراج الفجائى الذى ينتج الهمزة .

ولا شك أن انحباس الهواء عند المزمار انحباساً تاماً ثم انفراج المزمار فجأة ، عملية تحتاج إلى جهد عضلى قد يزيد على ما يحتاج إليه أى صوت آخر ، مما يجعلنا نعد الهمزة أشق الأصوات ، ومما جعل للهمزة أحكاما مختلفة فى كتب القراءات ليس هنا مجال تفصيلها .

وقد مالت اللهجات العربية فى العصور الإسلامية إلى تخفيف الهمزة والفرار من نطقها محققة ، لما تحتاج إليه حينئذ من جهد عضلى . فالهمزة المشكلة بالسكون قد تسقط من الكلام ويستعاض عن سقوطها بإطالة صوت اللين قبلها ، فينطق بعض القراء : « يومنون » فى « يؤمنون » ؟ « ذيب » فى « ذئب » ؟ « راس » فى « رأس » .

والهمزة المتحركة وقبلها متحرك متعددة الأحكام ، وقد فصلت أحكامها فى المطولات من كتب القراءات .. على أن الوسائل التى لجأ إليها القراء لتخفيف هذا النوع من الهمزة تتلخص فى :

١ — سقوطها من الكلام والاستعاضة عنها بإطالة صوت اللين قبلها ، فكأنها كالمشكلة بالسكون حينئذ . وأحيانا لا يعوض عن سقوطها بشىء كما فى قراءة (مستهزون) فى (مستهزئون) .

٢ — تسهيل الهمزة بين بين : هذا هو تعبير القدماء من القراء عن

تلك الحالة الغامضة لنطق الهمزة . فقد قالوا إن تسهيل الهمزة المتحركة بأن ينطق بها ، لامحققة ، ولاحرف لين خالص بل بين بين . فالهمزة المكسورة ينطق بها فى حالة تسهيلها بين بين ، لامحققة ، ولاياء خالصة ، هكذا قال القدماء من القراء . أما التكييف الصوتى لهذه الحالة فليس من اليسير الجزم بوصفه وصفا علميا مؤكداً . وإذا صح النطق الذى سمعته من أفواه المعاصرين من القراء ، تكون هذه الحالة عبارة عن سقوط الهمزة من الكلام ، تاركة حركة وراءها ، فالذى نسمعه حينئذ لايمت إلى الهمزة بصلة بل هو صوت لين قصير يسمى عادة حركة الهمزة ، من فتحة أو ضمة أو كسرة . ويترتب على هذا النطق التقاء صوتى لين قصيرين ، وهو ما يسميه المحدثون Hiatus . ويغلب فى معظم اللغات أن تؤدى مثل هذه الحالة إلى صوت لين انتقالى ، ينشأ من الحركتين أو صوتى اللين القصيرين .

والذى يؤيد ما نذهب إليه بشأن نطق الهمزة بين بين ، أن مثل هذه القراءة لاتكون إلا حين تحرك الهمزة بحركة ما ، أما الهمزة المشكلة بالسكون فلا تقرأ بين بين .

على أن من القراء من يجعلون تلك الحركة التى خلفتها الهمزة بعد سقوطها من النطق ، حركة مهموسة فتسمع حينئذ كما لو أنها نوع من الهاء . ففى قراءة قوله تعالى : (أأعجمى ...) قراءة بين بين للهمزة الثانية ، تسمع العبارة كأنما هى « أهعجمى » .

وإذا كانت الهمزة المفردة قد احتاجت إلى جهد عضلى جعل اللهجات العربية تفر منها بتسهيلها مرة ، وسقوطها مرة أخرى ، فما لاشك فيه أن توالى همزتين أشق ، ويحتاج إلى جهد عضلى أكثر فى نطقهما ، لذلك أفردت كتب القراءات أبوابا لأحكام الهمزتين المتواليتين يمكن الإشارة إليها فيما يلى :

١ — إذا كانت الهمزة الثانية مشكلة بالسكون، سقطت من الكلام واستعيض عنها بإطالة حركة الأولى مثل :

آمن — أوذى — إيت

٢ ـ أما إذا تحركت الهمزتان ، فقد لجأ كثير من القراء إلى تخفيض ذلك الجهد العضلى فى نطقهما محققتين ، بأن نطق بعضهم بالهمزة الثانية مسهلة بين بين ، ولكن الآخرين أطالوا حركة الهمزة الأولى ليصير النطق بالثانية هيناً يسيراً . وهذه الحالة الأخيرة هى التى عبر عنها القدماء بقولهم إدخال ألف بين الهمزتين .

وقد اتضح لنا أخيراً أن للهمزة دوراً خاصاً فى نطق البدو والحضر لدى العرب القدماء . ولعل مما يبين هذا الدور أن نستعرض ما جاء فى البحث الذى ألقيناه فى أحد مؤتمرات مجمع اللغة العربية منذ سنتين ، تحت عنوان تأصيل كلمة « السماء » ، وهذا نصه :

[أوحى إلى غزو الفضاء فى هذه الأيام بحديث لغوى عن كلمة « السماء » ، تلك الكلمة الأصيلة العريقة فى كل اللغات السامية . فكلمة السماء تشترك بمادتها اللغوية ودلالتها المعروفة بين كل الساميات ، ولاشك أنها انحدرت إلى هذه اللغات الشقيقة من السامية الأم التى يفترض الدارسون أنها الأصل أو الأرومة لكل اللغات السامية من عربية وعبرية وآرامية وسوريانية وحبشية وفينيقية . . . الخ .

وتعد كلمة السماء من أقدم الكلمات التى اهتدى إليها الإنسان السامى . فهى مع مجموعة أخرى من الكلمات تمثل بعض العناصر السامية التى يتخذها الدارسون دليلا على انتماء هذه اللغات إلى فصيلة واحدة،وذلك لعراقتها أو توغلها فى القدم .

ومن بين هذه العناصر السامية القديمة كلمات تعبر عن مظاهر الطبيعة كالسماء والأرض والشمس ، أو أعضاء الجسم كالعين والأذن واليد والرجل ، وأخرى تطلق على أفراد الأسرة كالأم والأب والابن والأخ

والأخت ونحوها ، أو كتلك الألفاظ التى تسمى بالضمائر مثل أنا وأنت وهو وهى وأنتم ونحوها ، أو كالأعداد مثل واحد واثنين وثلاثة وأربعة . . . الخ . فكل هذه الكلمات وأمثالها تشترك بمادتها اللغوية وبدلالتها المألوفة بين كل اللغات السامية ، وقد انحدرت إليها من السامية الأم .

والكلمة العبرية التى تعبّر عن السماء هى שמה مجموعة دائما على שמים وفى السوريانية هى ܫܡܝܐ ، وفى الحبشية Samav ، وليس فى هذه النظائر لكلمة السماء مايشير إلى الهمز لا نطقا ولا رمزا ، أى أنها لا تنطق مع همز ، وليس فى كتابتها ذلك الرمز الكتابى الخاص بالهمزة فى هذه اللغات ، حتى الحبشية تلك اللغة التى تحرص دائما على الهمزة نطقا وكتابة .

وهنا ننوه بتلك العبقرية السامية التى اكتشفت للعالم الأبجدية الهجائية ، فوضعت لكل صوت لغوى رمزا كتابيا ، وانتقل ذلك كما هو معروف إلى اليونان ، ثم إلى سائر شعوب العالم المتحضر فى أوربا . ففى رأيى أن وضع الأبجدية السامية يعد عملا علميا رائعا ، إذ يتطلب تحليلا دقيقا لكلمات اللغة وعباراتها ، كما يتطلب الأذن الموسيقية المرهفة التى تميز صوتا من صوت . فأولئك العباقرة من الساميين الذين نجهل كل شىء عنهم ، والذين أوشكت الأساطير القديمة أن تجعلهم فى مصاف الآلهة ، قد أرهفوا السمع إلى أصوات لغتهم ، ثم اهتدوا فى آخر الأمر إلى تلك المجموعة من الأصوات التى يتألف منها كلامهم ، واصطنعوا رمزا كتابيا خاصا لكل من هذه الأصوات . واتضحت فى أسماعهم الصفات الأساسية مع كل صوت ، تلك الصفات ذات الأثر البين فى تشكيل الكلمات وتصنيفها ، بحيث إذا حل أحد هذه الأصوات محل آخر منها تغير معنى الكلمة أو وظيفتها فى الجملة . وهذه هى الأصوات المثالية التى يعبر عنها المحدثون بالفونيمات .

فلننظر مثلا فى العربية الأفعال الآتية : « أرِم » بمعنى فنى ، « برِم » بمعنى تضجر ، «جرِم» لونه صفا ، «خرِم» انشق ما بين منخريه، «درِم» مشى مشية الأرنب ، « زرِم » ولى وانقطع، « شرِم » انشق ، « ضرِم» (للنار اتقدت)، « طرِم » بيت النحل امتلأ عسلا ، « عرِم » فلان شرس ، « عرِم » لزمه ما لا يجب عليه ، « هرم » كبر ، « ورِم » انتفخ . . . . . . الخ . بمثل هذه النصوص يتضح لنا النظام الصوتى فى الوحدات التشكيلية للكلمات ، ذلك النظام الذى يسميه المحدثون phonology . فمن طريقه تميزت الفونيات الأساسية فى اللغات السامية وقت وضع الأبجدية الهجائية .

وقد تميزت الهمزة لدى واضعى الأبجدية من الساميين القدماء بوصفها حرفا أو صوتا ساكنا ، ووضعوا لها رمزا كتابيا مستقلا ، وأطلقوا عليها اسما خاصا هو « الألف » الذى يقال إن معناه الثور ، لأن شكل الألف فى الكتابات السامية القديمة كان يشبه رأس الثور . وقد حافظوا على كتابتها حتى بعد أن سهلت فى بعض اللغات السامية وأصبحت فى النطق حرف مد .

فالهمزة فى أول الكلمة العبرية وفى وسطها متميزة نطقا وكتابة مثل :
אם ، אב ، זאב ، שאל ، שאף . اما فى آخر الكلمة العبرية فقد غلب تسهيلها إلى حرف مد فى النطق فقط مع الإبقاء على الرمز الكتابى الخاص بالهمزة حتى يتميز فى الكتابة مهموز الآخر من الفعل الناقص مثل : קרא ، בנה .

وأما فى السوريانية فقد غلب تسهيلها إلى حرف مد فى وسط الكلمة وفى آخرها مثل : ܕܐܒܐ = ذئب . ܩܪܐ = قرا . ܒܢܐ = بنى ، وهكذا يختلط فى هذه اللغة الفعل المهموز الآخر بالفعل الناقص . أى أن موقف السوريانية هنا يشبه إلى حد كبير موقف الحجازيين من الهمزة . وأما الحبشية فكما أشرنا آنفا تحرص دائما على الهمزة نطقا وكتابة .

ولفظ الهمزة مستمد من فعل عربى معناه غمز أو لمز . ولم يكن جمهور الناس فى عهد سيبويه يفهمون له غير هذا المعنى ، يدل على ذلك تلك القصة الطريفة التى يقال فيها إن أحد علماء اللغة سأل رجلا من قريش : أتهمز الفأرة ؟ يريد بهذا هل تنطق الهمزة فى كلمة الفأرة محققة أو مسهلة ؟ فلم يفهم القرشى مراد ذلك السائل ، وأجاب : إنما يهمزها القط .

ونحن الآن قد نسمع الهمزة المحققة فى بعض اللغات الأوربية أو لهجاتها ، ففى لهجات اللغة الإنجليزية فى اسكتلندا وفى نطق العامة من أهالى لندن قد تسمع الهمزة وقد حلت محل التاء فى كلمات مثل Little, Bottle, Hot: ويتصور الناطق أنه ينطق بالتاء فى مثل هذه الكلمات ، ولكن الدارسين للأصوات من الإنجليز يدركون أنها همزة ، ويصفونها فى كتبهم ويطلقون عليها ذلك المصطلح الأجنبى glottal stop . غير أن الهمزة الإنجليزية تعد مظهراً من مظاهر اللهجات ، ولا يعترف بها كفونيم من فونيمات الإنجليزية المشتركة ، إذ لا يغير وجودها أو النطق بها من وظيفة الكلمة أو دلالتها . ولكن الهمزة فى اللغة الدنيمركية قد تقوم بدور دلالى ، أى أنها تشبه الساميات فى هذا ، فالكلمة الدنيمركية mor مع النطق بالهمزة تعنى « قتل » ، فى حين أنها بدون النطق بالهمزة أى moar تعنى « أم » ، ومع هذا لم تتخذ الدنيمركية للهمزة رمزا كتابيا خاصا ، ولعلها فى هذا قد سايرت سائر اللغات الأوربية فى عدم الاعتراف بالهمزة كفونيم مستقل يستحق أن يرمز له برمز كتابى خاص .

وإذا كان قد تبين لنا أن الكلمات السامية المناظرة لكلمة «السماء» العربية لا تتضمن نطقاً بالهمزة ولا رمزا كتابيا يشعر بأنها كانت موجودة ، فكيف تأتى أن كلمة السماء العربية قد تضمنت همزة ؟ هنا يقول لنا علماء الصرف إن الهمزة فى « سماء » منقلبة عن واو هى لام الكلمة [1] .

---

(١) الأشمونى ج ٤ ص ٢١٣ .

وقبل أن نناقش كلام الصرفيين فى تأصيل كلمة السماء ، وكذلك قبل أن نعرض ما يعن لنا فى هذا الشأن ، نود أن نقتبس نصوصا من كلام القدماء نستأنس بها فيما نحن بصدده . يقول ابن جنى فى سر الصناعة [1] (حكى سيبويه فى الوقف عنهم : هذه حبلأْ يريد حبلى ، ورأيت رجلأْ يريد رجلا . فالهمزة فى رجلأْ إنما هى بدل من الألف التى هى عوض من التنوين فى الوقف . ولاينبغى أن تحمل على أنها بدل من النون لقرب ما بين الهمزة والألف وبعد ما بينها وبين النون ، ولأن حبلى لاتنوين فيها ، وإنما الهمزة بدل من الألف البتة ، فكذلك ألف رأيت رجلا . وحكى أيضاً : هو يضربهأ . وهذا كله فى الوقف ، فإذا وصلت قلت : هو يضربها يا هذا ، ورأيت حبلى أمس) .

وجاء فى لسان العرب [2] (همزة الوقف فى آخر الفعل لغة لبعض العرب دون بعض نحو قولهم للمرأة قولىء وللرجلين قولأ وللجميع قولؤ . وإذا وصلوا لم يهمزوا ، ويهمزون إذا وقفوا عليها) .

ومع ما اقتبسنا هنا نشير أيضا إلى أن علماء العربية الأولين قد لاحظوا شيوع ما سموه بهاء السكت فى النصوص الفصيحة ولدى الحجازيين بصفة خاصة ، فدرسوها ووضعوا لها أحكاما مشهورة فى كتبهم . ففى الندبة نرى الحجازيين يقولون فى حالة الوقف (واعمراه ، واجعفراه) فإذا وصل المتكلم منهم أسقط هذه الهاء . وكذلك الشأن فى الضميرين هو ، هى . قال حسان ابن ثابت وهو حجازى .

---

(١) ج ١ ص ٨٤ .

(٢) ج ١ ص ١٧ .

إذا ماترعرع فينا الغلام فما إن يقال له من هوة

وفى مثل ياء المتكلم المحركة بفتحة بناء كما فى الآيتين :

(ياليتنى لم أوت كتابيه ، ولم أدر ماحسابيه) وكذلك فى قوله تعالى (ماأغنى عنى ماليه ، هلك عنى سلطانيه) ويقول ابن قيس الرقيات وهو حجازى :

ذهب الصبا وتركت غيتيه ورأى الغوانى شيب لمتيه

وهجرننى وهجرتهن وقد غنيت كرائمها يطفن بيه

إذ لمتى سوداء ليس بها وضح ولم أفجع بإخوتيه

وكذلك الشأن فى الوقف الاستفهامى مثل : لمه ، علامه ، بمقتضامه . . الخ إلى غير ذلك مما هو مشهور فى أحكام هاء السكت أو هاء الوقف .

وفى كل من الوقف بالهمزة أو الوقف بالهاء نجد أن الكلمة الموقوف عليها تنتهى بحركة بناء أو حرف مد ، وذلك هو مايسميه المحدثون الاختتام بالمقطع المفتوح فمع هذا المقطع كان البدو يقفون بالهمز ، وكان الحضر فى الحجاز يقفون بالهاء .

فى ضوء هذه النصوص والإشارات نفترض أن كلمة « سماء » العربية كانت فى أصلها القديم كنظائرها فى اللغات السامية أى بدون همز ، وأن الهمز قد طرأ عليها فى وقت ما بسبب ظاهرة الوقف على ما اختتم بفتحة بناء أو ألف مد لازمة تمثل أصلا من أصول الكلمة ، وفى كلتا الحالين تكون الكلمة منتهية بما نسميه بالمقطع المفتوح الذى يأباه العربى فى الوقف ويحاول إغلاقه بأن يمتد النفس فيسمع بعد الفتحة أو بعد ألف المد ما يشبه الهاء ، وتلك هى التى عرفت بهاء السكت . أى أن الكلمة صارت على

ألسنة الحجازيين (سماه) ، فلما جرت على ألسنة الأعراب نبرت الهـــاء أو همزت glottalized ، فأصبحت الهاء همزة كهمزة الوقف التى رويت فيما سقناه آنفا من نصوص . وتم ذلك فى عصر قديم جداً بعده اشتهرت الـكلمة على الصورة البدوية وحدها ، ولم تعد مقصورة على حالة الوقف ، وأخـذت بها اللغة العربية المشتركة . فـكلنا يعلم أن العربية المشتركة قد استمدت بعض عناصرها من البيئة البدوية ، ولـكنها فى الـكثرة الغالبة من تلك العناصر قد اعتمدت على البيئة الحضرية فى الحجاز[١] .

أى أن ظاهرة الوقف بهاء السكت أو بالهمزة ، وهى تلك الظاهرة التى ظلت على ألسنة العرب حتى بعد الإسلام ، تعد مسئولة عن نشأة كثير من الـكلمات التى لم تـكن فى أصلها تنتهى بهمزة ، ثم أخذت صورة المهموز الآخر ، وا كتسبت الاحترام على هذه الصورة التى أصبحت العربية المشتركة تؤثرها وقفا ووصلا مثل كلمة « السماء » .

ونبر الهاء إلى همزة ظاهرة بدوية لا نزال نلحظها حتى الآن على ألسنة البدو ، وهى الظاهرة التى استخرجت الفعل « أز » بمعنى « هز » ، وقد سمع رواة اللغة الصورة الأولى لدى البدو ، وسمعوا الأخرى فى الحجاز .

وتميز نطق البدو زمن تدوين اللغة بظاهرة سماها القدماء « النبر » ، وهى لا تقتصر على تحقيق الهمز فى الـكلمة المهموزة الأصل ، بل تجاوز ذلك إلى تهميز ما ليس بمهموز أصلا . فـكانوا يهمزون الهاء ويهمزون الواو والياء ، ولذلك لقبهم بعض القدماء بأصحاب النبر .

والذى يسترعى الانتباه فى الـكلمة المشهورة عن عيسى بن عمر الثقفى أنه عبر بـكلمة « النبر » عن ظاهرة لاحظها فى نطق تميم ، ووصفهم بأنهم أصحاب النبر ، ولم يقل إنهم أصحاب الهمز ، برغم أن كلمة الهمز كانت حينئذ أشهر لدى اللغويين ، بل هى التى اشتهرت بعد ذلك وحدها ، فلا

---

(١) ومن الراجح إن الجمع (سماوات) هو فى الحقيقة جمع (سماوة) ، وليس (سماء) كما يقول الصرفيون .

يكاد المتأخرون من اللغويين يشيرون إلى كلمة النبر فى كتبهم . والسر فيما يبدو لى أن كلمة الهمز قد قصرها علماؤنا الأولون على الهمزة الأصلية التى يطلق عليها فى الأبجدية السامية اسم الألف ، والتى تقع أصلا من أصول الكلمات كما فى : أكل ، سأل ، قرأ .

أما النبر فلعلهم أرادوا به تلك العملية النطقية التى مصدرها الحنجرة حين تتوتر عضلاتها توتراً شديداً ، وهذه هى الظاهرة التى يمكن أن يطلق عليها التهميز glottalization أى إيثار الهمز فى كثير من الكلمات. وقد لاحظ عيسى ابن عمر هذه الظاهرة بين تميم التى تمثل فى مثل هذه الروايات القبائل البدوية ، ولا سيما حين تقابل بقريش أو الحجاز .

أى أن اللغويين الأولين من أمثال عيسى بن عمر قد لاحظوا فى نطق الأعراب أمراً عجيبا هو توتر الحنجرة بشكل ظاهر مع كل همزة أصلية وكذلك مع ما يشبه الهمزة من أصوات كالهاء والياء والواو . فمالوا إلى نبر الهاء وقالوا فى « هز » « أز » ، كما مالوا إلى نبر حروف المد فقال رؤبة فى « العالم » العألم . وظهر أثر هذا فى قراءة الأعراب لآيات كثيرة منها : « إعاء أخيه» بدلا من وعاء أخيه ،«أجوههم مسودة » بدلا من وجوههم، «خطؤات» بدلا من خطوات ، « تفاوُت » بدلا من تفاوت ، « فتأمموا صعيدا » بدلا من فتيمموا صعيداً ، « معائش » بدلا من معايش ، « فإما ترئن من البشر أحداً » بدلا من فإما ترين ، « اشترؤا الضلالة » بدلا من اشتروا الضلالة ، « أتتخذنا هزؤا » بدلا من هزوا ، « على سؤقه » بدلا من على سوقه .

وهكذا اتسع مجال النطق بما يشبه الهمزة لدى البدو ، ولم يعد مقصوراً على ما هو مهموز أصلا ، ولا غرابة لذلك أن سموا بأصحاب النبر .

ومع أن الصرفيين يجمعون على أن الهمزة فى كلمة السماء أصلية منقلبة عن « واو » فإنهم لا يفسرون لنا السبب فى قلب الواو هنا همزة تفسيراً علميا مقنعا له أساس من أى نظرية صوتية .

ولو أخذنا برأى الصرفيين لوجب أن تصبح المصادر الآتية على وزن « فَعَال » : (١) بقى يبقى بقاء (٢) بلى يبلى بلاء (٣) ثرى يثرى ثراء (٤) ثوى بالمكان ثواء (٥) جزى يجزى جزاء (٦) جلا عن المكان جلاء (٧) خفى يخفى خفاء (٨) خلا المكان خلاء (٩) دهى دُهو دهاء (١٠) ذكت النار ذكاء (١١) رجا يرجو رجاء (١٢) رخا العيش رخاء (١٣) زكا المال زكاء (١٤) سخا يسخو سخاء (١٥) سنى سناء : ارتفع (١٦) شقى شقاء (١٧) صفا الجو صفاء (١٨) ضرى ضراء : اشتد (١٩) ضنى ضناء : اشتد مرضه (٢٠) عزى عزاء : صبر (٢٢) عسا الشيخ عساء : كبر (٢٢) عفا الأثر عفاء (٢٣) على يعلى فى الشرف علاء : ارتفع (٢٤) عنى عناء : تعب (٢٥) غدى غداء : أكل الغداء (٢٦) غلا السعر غلاء (٢٧) فضا المكان فضاء (٢٨) فنى فناء (٢٩) قضى قضاء : حكم (٣٠) قلى فلانا قلاء أبغضه (٣١) مشى مشاء : كثرت ماشيته (٣٢) مضى السيف مضاء : صار حاداً (٣٣) نجا ينجو نجاء (٣٤) نقى الشىء نقاء (٣٥) نما ينمو نماء (٣٦) وفى يفى وفاء .

ووزن « فَعَال » فى مصدر الثلاثى الصحيح نادر أو قليل ، وأجمع العلماء على أنه سماعى وأن أمثلته نادرة فيما ورد لنا من نصوص اللغة مثل نبت نباتا ، ثبت ثباتا ؛ ولا يصح أن نفترض للفعل الناقص من حيث مصدره مسلكا خاصا يخالف الفعل الصحيح . ونحن نعلم أن مصدر الثلاثى الصحيح يجىء فى الكثرة الغالبة من أمثلته على وزنين هما : فعْل ، فعَل . فلماذا يشذ عن هذا فى الفعل الناقص ؟ يجب إذن أن نعد الكثرة الغالبة من المصادر المهموزة للفعل الثلاثى المعتل الآخر على هذين الوزنين أيضاً .

وفوق هذا لقد تبين لنا فى بحث نشرناه منذ أكثر من ربع قرن بمجلة كلية الآداب — جامعة الإسكندرية أن الفعل المعتل جاء عليه عهد كان

فيه على صورة فعل صحيح ، وأنه كان فى موضع حرف العلة حرف صحيح من تلك الحروف التى تشبه أصوات اللين وهى : النون واللام والراء والميم . اى أن الفعل المعتل متطور فى أغلب أمثلته عن فعل صحيح . وقد وردت لنا فى نصوص اللغة العربية بعض الأمثلة التى نرى فيها الأصل الصحيح الحروف جنبا إلى جنب مع الفرع أو الصورة المتطورة التى تسمى بالمعتل مثل :

لكز = وكز . جلخ السيل الوادى = جاخ . فصل الشيء من الشيء = فصى . فإذا أخذنا بما نفترضه من أن الهمزة فى كلمة السماء وأمثالها هى همزة وقف ، أحسسنا بالاطمئنان فى تأصيل كلمة السماء من عدة وجوه :

أولا — أن نظائر هذه الكلمة فى اللغات السامية لم ترد بالهمزة لا فى النطق ولا فى الرمز الكتابى .

ثانياً — أن المصادر التى على صورة « سماء » فى حالة الأخذ بما افترضنا يكون وزنها « فَعَل » وهذا وزن فى مصدر الثلاثى الصحيح يمثل كثرة كبيرة جداً فيما ورد من نصوص اللغة بعكس « فَعَال »

ثالثاً — أن المعاجم القديمة تسوق لنا بعض هذه الكلمات مرة ممدودة وأخرى مقصورة مثل قول أصحابها (العطا ويمد أى العطاء بمعنى واحد . القفا العنق وقد يمد . سفِى كرضى سفاً ويمد أصبح سفيها . الرنا ما يرنى إليه لحسنه وبالضم والمد الصوت والطرب . الدوا ، الدواء بالقصر المرض وبالمد ماداويت به . الحيا الخصب والمطر ويمد . الحزا ويمد نبت . الحسا ويمد الشربة) . وتعبير أصحاب المعاجم هنا بقولهم ويمدّ لايخلو من دلالة ، بل يبين بوضوح أن كلا من هذه الكلمات قد سمع عن العرب مقصورا كما سمع ممدودا ،

وجرت الصورتان على ألسنة العرب جنبا إلى جنب، وأنهما قد اكتسبتا الاحترام وأخذت بهما اللغة العربية المشتركة .

وليس من الإسراف لذلك أن نفترض أن المد هنا طارىء ، وأنه نشأ عن ظاهرة التهميز التى سادت لدى البدو فى حالة الوقف .

وقد استطعنا فى استقراء سريع أن نحصى نحو ١١٠ من الكلمات التى تنتهى بالهمزة المسبوقة بألف المد ، وفعلها جميعا مما يسمى بالثلاثى المعتل الآخر. ويفترض الصرفيون فى كل هذه الكلمات أن الهمزة تمثل لام الكلمة ، أى أنهم يسوون بين الكلمات (رثاء ، جفاء ، حداء ، رداء) .

أما نحن فنستبعد مما أحصيناه تلك المصادر التى تعبر عن صوت أو داء ووزنها « فُعَال » مثل : ثغاء ، حداء ، دعاء ، مكاء ، ضغاء ، زقاء . كما نستبعد الأسماء التى تجمع على « أفعلة » . مثل : بناء ، حذاء ، رداء ، رشاء ، كساء ، لحاء .

ومجموع ما استبعدناه من إحصائنا لا يكاد يجاوز ١٣ كلمة نقيسها على نظائرها من الثلاثى الصحيح ، ويقتضى هذا أن تعد الهمزة فيها ممثلة للام الكلمة .

أما فى سائر ما أحصينا وهو نحو مائة مثل ، فليس من الشطط أن نقرر أن الأمثلة غير المهموزة تمثل الصورة الأصلية ، وأن نظائرها المهموزة صور طرأت عليها الهمزة فى وقت ما قبل الإسلام ، وتم ذلك على ألسنة البدو وفى حالة الوقف أول الأمر ، ثم اشتهرت بعد ذلك واستعملت فى غير الوقف أيضاً ، وأصبحت الصورتان مما اعترفت به اللغة المشتركة .

نحن إذن ننظر إلى مصادر الأفعـــال المعتلة الآخر في ضوء نظائرها الصحيحة ، ففى مصادر الأفعال الثلاثية المعتلة الآخر نرجح أن الهمزة فى معظمها طارئة ، وأنها نشأت عن ظاهرة الوقف بالهمز . ولا يصح لهـــذا أن نسوى بين الـكلمات بقاء ، جلاء ، جفاء ، وبين الـكلمات حداء ، ثغاء ، رداء ، كساء] .

الفصل الخامس

ملاحظات حول دراسة القدماء

من علماء العربية للأصوات

تروى كتب اللغة والأدب أن الخليل بن أحمد الفراهيـدى المتوفى (حوالى سنة ١٧٤ هـ) كان علما من أعلام اللغة ، ضرب بسهم وافر فى نواح عدة من الدراسات اللغوية ، فهو كما يقولون مسئول عن أول معجم عربى ، أعنى كتاب العين ، وهو واضع علم العروض وأوزان الشعر وهو المؤلف فى الموسيقى ، وأخيراً وليس آخراً هو صاحب المباحث المستفيضة التى جاءت فى كتاب سيبويه .

ومع كل هذا لم نعثر للخليل على أثر واحد ألفه بنفسه ، وأجمع الرواة على نسبته إليه ، وإنما هى مقتبسات متناثرة فى كتب الأقدمين ، وكلها تشير إلى علمه وفضله ومقدار اعتزاز القدماء بآرائه ، واعتمادهم عليها .

وأوضح ما تتميز به دراسات الخليل تلك الناحية الموسيقية التى ناحظها فى علاجه للعروض والموسيقى ، وترتيبه المعجم على حسب المخارج . فالخليل ولا شك كان مرهف الأذن ، دقيق الحس بالأصوات . ولا ندهش من أجل ذلك أن يورث سيبويه فيما ورث وصفاً دقيقـاً لأصوات اللغة ومخارجها وصفاتهـا . واعتمد الخليل فى وصفه للأصوات على ما يحسه بنفسه من

اختلاف فى أوضاع أعضاء النطق معها ، وعلى العملية العضلية التى يقوم بها المرء لدى صدور كل صوت ، وعلى وقع هذا الصوت فى أذن السامع ، دون أن يكون لديه شىء من الإمكانيات الحديثة من آلات التسجيل والتصوير أو معرفة بنظريات التشريح .

وقد لخص سيبويه فى آخر كتابه المشهور آراء الخليل فى أصوات اللغة فى دقة وأمانة ، وهى لذلك جديرة بالدراسة والشرح في ضوء الدراسات الحديثة للأصوات اللغوية .

ودراستنا هنا لما جاء فى كتاب سيبويه مؤسسة على حسن الظن بما رواه عن الخليل . وليس من الإنصاف أن نفترض لأول وهلة جهل الخليل وتلميذه سيبويه بطبيعة الأصوات فى اللغة ، وكيفية صدورها فى أثناء الكلام ، وأثرها فى السمع ، لمجرد أنه لم تكن لديهما تلك الإمكانيات الحديثة التى أشرنا إليها آنفا .

فدراستنا هنا هى دراسة المحايد المنصف المعترف بعلم هؤلاء القدماء وفضلهم . وليس القصور أو التقصير فيما رواه سيبويه ، وإنما هو فى صنيع من جاء بعده من العلماء الذين اكتفوا بترديد كلامه وفى نفس الألفاظ والحروف دون أن يزيدوا عليه ما يستحق الذكر ، ودون شرح واضح لتلك الآراء . بل حتى أولئك المشهورون من شراح كتاب سيبويه أمثال السيرافى والرمانى كانوا يقنعون فى شرحهم للأصوات اللغوية بذكر ألفاظ سيبويه وعباراته ومصطلحاته كما هى . ويبدو أن العلماء الذين جاءوا بعد سيبويه كانوا يعتزون بكل ماورد عنه إلى حد يكاد يبلغ القداسة ، فيقال لنا إن بعضا منهم كانوا يحفظون

كتابه عن ظهر قلب . وحين نحسن الظن بهم نرى أنهم ربما تحرجوا من أى تغيير فى كلام معلمهم الأول ، واكتفوا من أجل هذا بترديد ألفاظه . فإذا قال عن الصوت المجهور (هو حرف أشبع الاعتماد فى موضعه ومنع النفس أن يجرى معه حتى ينقضى الاعتماد ويجرى الصوت) لانكاد نرد فى كتبهم إلا نفس الألفاظ التى عبر بها سيبويه ، فلا يستبدلون بكلمة « أشبع » أو كلمة « الاعتماد » لفظاً آخر ، ولو مرادفا لهاتين الكلمتين ، وهكذا كان شأنهم فى باقى كلمات التعريف .

وليس من اليسير أن نتهمهم جميعاً ، وفى كل العصور ، بعدم فهم ما عناه سيبويه . وقد حاولنا أن نتتبع النصوص التى جاءت فى كتب فريق منهم ، فنقلنا ما جاء فى كتاب سر الصناعة لابن جنى فى القرن الرابع الهجرى ، وما جاء فى المفصل للزمخشرى فى القرن السادس الهجرى ، وما جاء فى كتاب النشر لابن الجزرى فى أوائل القرن التاسع الهجرى ، فلم نجد فى هذه الكتب المشهورة شيئاً جديداً أضافه أصحابها على كلام سيبويه فى أصوات اللغة سوى بضعة مصطلحات ترددت فى كتبهم ، ولا تزال تتردد على ألسنة دارسى القراءات حتى الآن ، من أمثال : لثوية ، ذلقية ، أسلية ، نطعية ، شجرية ، لهوية .

ويبدو أن هذه المصطلحات قد نشأت دفعة واحدة ؛ إذ لا نجد منها فى كلام ابن جنى سوى ما يسميه « بحروف الذلاقة » التى سنبدى عليها ملاحظات فيما بعد . ولكنا نراها واردة فى شرح السيرافى لسيبويه ؛ أى فى منتصف القرن الرابع الهجرى ، وفى الوقت الذى عاش فيه ابن جنى ، وينسبها السيرافى فى شرحه إلى صاحب العين . فرجعنا من أجل هذا إلى

النسخ التى عثر عليها حديثاً من كتاب العين فوجدنا فيها نفس المصطلحات . فإذا صح أن كتاب العين على الصورة التى انحدرت إلينا كان من عمل الخليل بن أحمد أو إملائه فقد كنا نتوقع إذن أن نجد نفس المصطلحات فى كلام سيبويه تلميذ الخليل ووارث الكثير من علمه وآرائه ، ولكن كتاب سيبويه قد خلا منها . وليس من التجنى أو المغالاة إذن أن نتخذ من هذه الظاهرة دليلا جديداً على عدم صحة الرأى القائل بنسبة كتاب العين للخليل ، على الأقل على الصورة التى انحدرت إلينا .

وبعض هذه المصطلحات على كل حال له ما يبرره ، ويمكن أن يستغل فى الدراسة الصوتية الحديثة . فإذا سميت لنا حروف أقصى الفم كالقاف والكاف والجيم القاهرية الخالية من التعطيش بالأصوات اللهوية نسبة إلى اللهاة فلا بأس بمثل هذه التسمية ، وهى تغنينا حينئذ عن المصطلح الذى ابتكره بعض الدارسين الآن حين سماها بالأصوات الطبقية ، دون أن يكون لكلمة « الطبق » أى معنى يتصل بأجزاء الفم . وكذلك الشأن فى مصطلحهم « الشجرية » الذى يتضمن أصوات وسط الحنك كالجيم الفصيحة ، أو الجيم الشامية الكثيرة التعطيش وكالشين ، ولا داعى إذن لأن ننهج منهج هؤلاء الدارسين حين يطلقون عليها لفظ « الغارية » ، لأن الغار فى الحقيقة يشمل كل أجزاء الحنك الأعلى .

أما تسميتهم « الدال والطاء والتاء » بالأصوات النطعية فيبدو أن هذا المصطلح قد جانبه التوفيق ، لأن النطع — كما شرحته المعاجم وكما يفهم من كلام هؤلاء العلماء — هو أقرب جزء من الحنك الأعلى إلى أصول الثنايا ، فيقول الفيروزبادى فى معجمه : « إن النِّطع كعِنَب ما ظهر من الغار

الأعلى فيه آثار كالتحزيز » . وتدل التجارب الحديثة على أن طرف اللسان مع هذه الأصوات يتصل بأصول الثنايا؛ بل ومعظم الثنايا من الداخل ، فهى أصوات أسنانية لثوية . ولو قد وضعوا هذا المصطلح للام والراء والنون لكانوا أقرب إلى الصواب .

أما تسميتهم للسين والصاد والزاى بالأصوات الأصلية نسبة إلى أسلة اللسان أى طرفه فلا بأس به ، ولكن ربما يترتب على ذلك إسراف فى تكثير المصطلحات دون مبرر ظاهر ، لأننا حين ننسب الأصوات إلى أول اللسان أو طرفه نجد مجموعة كبيرة يقوم فيها هذا الجزء من اللسان بدور هام فى صدورها أو النطق بها . فليس الأمر إذن مقصوراً على هذه الأصوات الثلاثة ، بل معها أيضاً التاء والدال والطاء واللام والراء والنون؛ بل والظاء والذال والثاء ! ! .

ويخيل إلىّ أن أصحاب هذه المصطلحات حين رأوا سيبويه يصف « الصاد والسين والزاى » بوصف معين تتميز به دون غيرها وهو « أحرف الصفير » ، أرادوا أيضاً أن يميزوها بمصطلح خاص من حيث مخرجها ، فقالوا عنها « أسلية » . ولكن سيبويه إنما أراد بوصفها بالصفير أن يميزها من بين الأصوات الرخوة ، لأن الرخاوة فيها تفوق كل الأصوات الرخوة الأخرى وهى من أجل تلك الرخاوة الكثيرة التى تبلغ حد الصفير قد اختصت ببعض الظواهر اللغوية .

فإذا عرضنا إلى مصطلحهم الخاص بالذال والثاء والظاء وجدنا الأمر أعجب وأغرب ، لأنهم سموها بالأصوات اللثوية ، نسبة إلى اللثة رغم أن

الثة لا تقوم معها بأى دور ، بل هى كما وصفها سيبويه [مما بين طرف اللسان وأطراف الثنايا] .

وبقى أن نعرض لذلك المصطلح الذى اختصه ابن جنى بالذكر دون المصطلحات الأخرى ، وتردد بعد ذلك فى كل كتب اللغويين وأصحاب القراءات ، وهو تلك الحروف التى سماها ابن جنى فى كتابه « سر الصناعة » بحروف الذلاقة ، وجعل مقابلا لها سماه بالإصمات . وقد حدد ابن جنى حروف الذلاقة[1] بأنها ستة : اللام والراء والنون والفاء والباء والميم ثم قال عنها [لأنها يعتمد عليها بذلق اللسان وهو صدره وطرفه] ! ! .

ويبدو أن ابن جنى حين لاحظ كثرة شيوع هذه الأصـــوات فى اللغة العربية بحيث لا تــكاد تخلو منها كلمة رباعية أو خماسية فى أصولها ، وضع لها هذه التسمية ، واعتبر غيرها من الحروف مصمتة « لأنه صمت عنها — كما يقول — أن تبنى منها كلمة رباعية أو خماسية معراة من حروف الذلاقة . ومع هذا فحين يجد ابن جنى بضع كلمات عربية تخالف قاعدته هذه مثل « العسجد » نراه يحاول جاهـــداً تبريرها فى كلام لا يخلو من التـكلف والتعسف .

ويبدو أن كلمة « الذلاقة » هنا لا تعنى أكثر من معناها الشائع المألوف وهو القدرة على انطلاق فى الـكلام بالعربية دون تعثر أو تلعثم ، فذلاقة اللسان كما نعلم جودة نطقه وانطلاقه فى أثناء الـكلام . ولـما كانت هذه

---

(١) أنظر سر الصناعة ص ٧٤ .

الحروف الستة هى أكثر الحروف شيوعاً فى الكلام العربى أطلق عليها حروف الذلاقة دون النظر إلى مخرجها أو صفاتها أو أى ناحية من نواحى الدراسة الصوتية .

نستطيع بعد هذا أن نقرر ونحن مطمئنون أن هذه المصطلحات قد ظهرت فى أوائل القرن الرابع الهجرى ، فى وقت احتدم فيه النقاش بين العلماء حول كتاب العين ونسبته للخليل . وعلماء اللغة كانوا حينئذ فريقين منهم من ينكر نسبة المعجم إلى الخليل ، ويطعن فى رواية الليث عن الخليل وينال من المسائل التى جاءت فى هذا المعجم ، ومن بين هؤلاء ابن جنى الذى يروى عنه أنه قال : [أما كتاب العين ففيه من التخليط والخلل والفساد ما لا يجوز أن يحمل على أصغر أتباع الخليل فضلا عن نفسه] .

لا غرابة إذن ألا يأخذ ابن جنى فى كتابه سر الصناعة بتلك المصطلحات التى جاءت فى كتاب العين ، وخلا منها كتاب سيبويه ، رغم أن ابن جنى قد عاش بعد أبى سعيد السيرافى أكثر من عشرين عاماً ، ورأى شرحه لكتاب سيبويه ، وما جاء فى هذا الشرح من ذكر لتلك المصطلحات التي ينسبها الليث للخليل ، من أمثال الأسلية ، النطعية ، الشجرية ، اللهوية .

أما أولئك العلماء الذين اعتزو بكتاب العين فى أوائل القرن الرابع من الهجرة فقد كان منهم ابن دريد صاحب معجم « الجمهرة » الذى تأثر بما جا فى كتاب العين ، ونقل عنه ورفع من قدره . وكل دارس للمعاجم القديمة يرى بوضوح وجوه الشبه الكثيرة بين المعجمين ، أى كتاب العين والجمهرة .

ولعل السيرافى أيضاً كان ممن عنوا بكتاب العين وما جاء فيه فنقل عنه تلك المصطلحات على أنها من تسميات الخليل .

المسئول إذن عن نشأة هذه المصطلحات هو كتاب العين الذى شاع شأنه فى القرن الرابع الهجرى ، أيا كان مؤلفـــه ، ولـكن الذى لا يحتمل النزاع أو الشك أن نسبة هذه المصطلحات للخليل نسبة غير صحيحة ، وإلا فقد كنا نتوقع أن نجد لها صدى فى كلام سيبويه .

ومن الغريب أن الرمانى وهو الذى عاش بعد السيرافى زمناً غير قصير ، وهو الشارح الثانى لـكتاب سيبويه لا يذكر شيئاً عن هذه المصطلحات ، مما يؤكد لنا أن عدداً قليلا من علماء القرن الرابع من الهجرة هم الذين أولوا كتاب العين اهتمامهم وعنايتهم .

« سيبويه وأصوات اللغة »

وقعت لنا أخيراً محاضرة ألقاها الأستاذ الألمانى ا . شاده الذى كان يقوم بالتدريس فى كلية الآداب ، وفيها يعرض لآراء سيبويه ويناقشها . وكان مما أخذه المحاضر على سيبويه استعماله كلمة « الحرف » التى تعبر فى الحقيقة عن الرمز المـكتوب ، فقد استعملها لما يسمع أيضاً ، ولـكن يعتذر عن هـذا بأن كثيراً من علماء أوربا ظلوا إلى عهد قريب يسلـكون نفس المسلك . كذلك يرى الأستاذ المحاضر أن كلمة « المخرج » التى اتخذها سيبويه مصطلحاً « للموضع » الذى فيه يولد الصوت اللغوى مصطلح جانبه التوفيق . وفى هذا الموضع يلحظ الدارس أن عضوين من أعضاء النطق يتصلان فى أثناء النطق بالصوت ، فطوراً يـكون اتصالهما محكما بحيث يحبس النفس لحظة بعدها ينفرجان فجأة ، ويكون هذا مع الصوت الشديد كالدال والتاء والـكاف ونحوها ، وطوراً يـكون اتصال العضوين بحيث يترك بينهما منفذ

صفير يسمح بمرور النفس ، ويكون هذا مع الصوت الرخو كالذال والزاى والسين ونحوها . فالمحاضر يسمى مكان اتصال العضوين بالموضع ، أما المخرج فى رأيه فهو الطريق الذى يتسرب منه النفس إلى الخارج . والمحاضر هنا على حق ، غير أن تغييره لمعنى المصطلح الذى استعمله سيبويه لمكان التقاء العضوين وسماه بالمخرج لامبرر له ، فقد اشتهر بين الدارسين بهذا المعنى . أما الذى يحل الإشكال فهو ما جرينا عليه فى هذا الكتاب من استعمال مصطلح جديد لطريق النفس سميناه « المجرى » ، أى طريق النفس من الرئتين حتى الخارج ، ويكون مخرج الصوت حينئذ هو نقطة معينة فى هذا المجرى كما أراد سيبويه ، وبذلك نبقى على مصطلحه . فالنون كما يقول سيبويه مخرجها ؛ أى نقطة اتصال العضوين فى أثناء النطق بها هو [من طرف اللسان بينه وبين ما فويق الثنايا] ، أما مجرى النفس معها فيتخذ طريقه من الأنف إلى الخارج .

والمحاضر على حق أيضاً حين يلاحظ أن « الضاد » كما ننطق بها الآن صوت شديد ، على حين أن سيبويه يعدها بين الأصوات الرخوية كذلك يعد سيبويه صوت الجيم بين الأصوات الشديدة ، فى حين أن تجاربنا الحديثة تبرهن لنا على أن الجيم التى يقال عنها الآن إنها الفصيحة صوت مزيج من الشدة والرخاوة . وعلى قدر ما فيه من تعطيش تكون رخاوته . فالجيم الشامية الكثيرة التعطيش صوت رخو لا نزاع فى هذا ، أما الجيم الشديدة حقاً فتلك هى الجيم القاهرية الخالية من التعطيش . وقد شرحنا آنفا أحدث ما اهتدينا إليه بصدد هذين الصوتين .

ويلاحظ المحاضر ما لاحظناه آنفا فى هذا الكتاب من أن كلا من القاف والطاء كما ننطق بها الآن صوت مهموس ، فى حين أن سيبويه يعتبرهما

بين المجهورات . وكذلك الشأن فى اعتبار سيبويه الهمزة صوتاً مجهوراً ، وليست كذلك كما تدل كل التجارب الحديثة .

أما حديث المحاضر عن موقف القدماء مما يسمى بالحركات واعتبارها فى رأيهم عرضاً يصيب الحروف ، ولاتـكاد تـكون عناصر أساسية فى الـكلمات فقد أشرنا إلى كل هذا وعالجناه بما يكفى فى هذا الـكتاب .

وأخيراً نجد المحاضر يحار فى تفسير كلام سيبويه بصدد المجهور والمهموس ، والشديد والرخو ، ويحاول جاهداً أن يلقى ضوءاً على تعريفات سيبويه فيصل إلى رأى خاص ، ثم يرجع عنه بعد عشرين عاماً كما يقول — إلى رأى آخر ، وكلاهما لايبين لنا بوضوح مقدار فهم سيبويه لفـكرة الجهر والهمس ؛ أو فـكرة الشدة والرخاوة فى أصوات اللغة .

نشرع بعد هذا فى إبداء ملاحظاتنا على آراء سيبويه فى الأصوات ، محاولين بقدر المستطاع شرح كلام سيبويه فى ضوء الدراســات الصوتية الحديثة :

١ — أصوات الحلق : حدد هنا سيبويه ثلاثة مخارج وعين أصوات كل مخرج ، وتبعه فى تحديده كل من تعرضوا لأصوات اللغة من العلماء الذين جاءوا بعده . فمن أقصى الحلق : الهمزة والهاء ، ومن وسطه : العين والحاء ، ومن أدناه : الغين والخاء . وتدل التجارب الحديثة على صحة كلام سيبويه فى كل هذا ، فلـكل صوتين من أصوات الحلق حيز معين ؛ يحلان فيه معاً ، دون ترتيب لأحدهما على الآخر ، غير أن بعض المتأخرين من العلماء كانوا يتوهمون أن العين تسبق الحاء ، وأن الغين تسبق الخاء ، على حين أن بعضا آخر منهم كان يرى العـكس فى هذا الترتيب ، وقد أشار ابن الجزرى فى كتابه « النشر » إلى هذا الخلاف الوهمى بقوله « فنص مكى

على أن العين قبل الحاء ، وهو ظاهر كلام سيبويه وغيره ، ونص شريح على أن الحاء قبل ، وهو ظاهر كلام المهدوى » . ومن الغريب أن « شريح » الذي قدم الحاء على العين عكس القضية ، فقدم الغين على الخاء ، وكذلك فعل مكى فقدم الخاء على الغين !! ويبدو أن هؤلاء المتأخرين حين نطقوا بكل من الصوتين لاختبارهما أحسوا فرقا بينهما ، ولكنهم لم يفطنوا إلى أن هذا الفرق مقصور على أن أحد الصوتين مجهور ، والآخر مهموس ، أى أن الوترين الصوتيين فى الحنجرة يهتزان مع أحدهما ، وهو المجهور ، ويسكنان أو يصمتان مع الآخر ، وهو المهموس . فلا فرق بين العين والحاء فى المخرج ، وإنما الفرق فى أن العين مجهورة والحاء مهموسة وكذلك الشأن فى الغين والخاء .

وقد فصل ابن خروف فى هذا الخلاف الوهمى بكلمته التى رواها صاحب كتاب النشر ، ونصها : قال ابن خروف : إن سيبويه لم يقصد ترتيبا فيما هو من مخرج واحد» ، وهذا حق تبرهن عليه التجارب الحديثة . ولسنا نجد فى كلام سيبويه مايؤخذ عليه بصدد أصوات الحلق سوى إقحامه فيها ماسماه « بالألف » ، ويبدو أن بعض المتأخرين قد رجعوا عن هذا ، إذ لانجد إشارة للألف بين أصوات الحلق فى كتاب « النشر » .

أما حديث الألف والهمزة والفرق بينهما فقد أسهب فيه ابن جنى فى « سر الصناعة »[1] حين أكد لنا « أن الألف التى فى أول حروف المعجم هى صورة الهمزة ، وإنما كتبت الهمزة واواً مرة وياء أخرى على مذهب أهل الحجاز فى التخفيف ، ولو أريد تحقيقها البتة لوجب أن تكتب ألفاً على كل حال » . ويبدو أن ابن جنى كان يعتبر كلمة الألف اسما للصوت المنطوق به همزة ، فالألف فى رأيه رمز للمكتوب ، والهمزة رمز للمنطوق . ومقتضى هذا أنه ما كان يصح فى تعداد أصوات الحلق أن نذكر الهمزة

(١) صفحة ٤٦ .

والألف معا ، بل كان الواجب الاكتفاء بكلمة « الهمزة » التى هى رمز للصوت ، لاسيما ونحن فى مجال شرح الأصوات وتحديدها .

ولكن ابن جنى نفسه — مع الأسف — ذكر الألف مع الهمزة حين تحدث عن أصوات الحلق[1] . على أنه يمكن أن يقال : إن الذين نقلوا عن سيبويه قد حملوا كلامه أمراً لم يقصده حين ذكر الألف بعد الهمزة ، فربما أراد بكلمة « الألف » تفسير المقصود من كلمة « الهمزة » التى ـ فيما يبدو ـ كانت مصطلحا صوتيا غير مألوف فى أيامه ، أو حديث العهد بين الدارسين فأراد توضيحه بذكر مرادف له أكثر شهرة وألفة ، وهو كلمة « الألف » . وذلك لأن الهمز فى المعنى المعجمى له معان ، فيقول الفيروزبادى فى المحيط « الهمز هو الغمز والضغط والنخس والدفع والضرب والعض » ، ولم يكن المعنى الاصطلاحى شائعا أو مألوفا بين الناس بدليل ، تلك الرواية التى يقال فيها : إن أحد اللغويين سأل رجلا من قريش « أتهمز الفأرة » ؟ ، فلم يفهم الرجل وأجاب ساخرا : « إنما يهمزها القط » . ولم يرد اللغوى سوى التأكد من تلك الظاهرة المنسوبة للهجة قريش من تسهيل الهمز ، فيتساءل عما إذا كان هذا القرشى يحقق الهمزة فى نطقه ، أى ينطق بها دون تسهيل .

وحينئذ لايكون هناك مايؤخذ على كلام سيبويه فى علاجه لأصوات الحلق . ولعل مما يستأنس به لهذا التوجيه أن سيبويه ومن جاءوا بعده كانوا يذكرون فى موضع آخر نوعاً ثانياً من الألف ويسمونه بألف المد ، فيحدثنا ابن جنى[2] عن تلك الألف فى قوله : « فأما المدة التى فى نحو : قام وسار وكتاب وحمار ، فصورتها أيضاً صورة الهمزة المحققة التى فى

---

(١) صفحة ٥٢ .

(٢) سر الصناعة صفحة ٤٨ .

أحمد وإبراهيم وأترجة ، إلا أن هذه الألف لا تكون إلا ساكنة ، فصورتها وصورة الهمزة المتحركة واحدة وإن اختلف مخرجاهما .

فهو يعترف باختلافهما مخرجا ، ولكنه لم يوفق في وصف مخرج ألف المد في كلامه بعد ذلك . ويؤكد لنا ابن جنى أن واضعى حروف الهجاء قد ذكروا في أواخرها « لا » أى لام ألف ، لبيان أن ألف المد حرف مستقل بين حروف الهجاء ، واستعانوا على النطق به بوضع لام قبله . أي أن هذا الحرف المسمى بلام ألف لم يكن ذكره بين الحروف عبثاً كما ظن بعض القدماء من أمثال أبى العباس المبرد . فهو يطالبنا حين نعدد حروف الهجاء ألا نقول « لام ألف » كما يقول المعلمون ، بل يجب أن نقول لا ، فقط .

على كل حال نرى سيبويه وغيره يتحدثون عن حروف المد وجهرها كألف المد وياء المد وواو المد فيعتبرونها حروف لين ومد ، ويصفونها في كتبهم وصفاً يشبه وصف المحدثين من علماء الأصوات ، فيتحدث عنها ابن جنى[1] بقوله « الحروف التي اتسعت مخارجها ثلاثة : الألف ثم الياء ثم الواو ، وأوسعها وألينها الألف » . ويقول عنها شارح المفصل : « ومنها الحروف اللينة وهى الألف والياء والواو ، وهى حروف المد واللين ، وقيل لها ذلك لاتساع مخرجها ، والمخرج إذا اتسع انتشر الصوت ولان ، وإذا ضاق انضغط فيه الصوت وصلب ، إلا أن الألف أشد امتداداً واستطالة إذ كان أوسع مخرجاً » .

وهكذا نرى أن وصف القدماء لأصوات المد يشبه إلى حد كبير علاج المحدثين ، لأنها مما يسميه الأوربيون « Vowels » وهى التى

---

(١) صفحة ٨ .

لاتصادف حوائل أو موانع فى طريقها ، بل يمر النفس معها فى مجرى خال من تلك الحوائل والموانع . وقد تحدثنا عن هذا آنفا . كما تبين لنا حينئذ أن هذه الأصوات حين تقسم من حيث مجراها واتساعه تنقسم إلى نوعين : أصوات ضيقة وهى ياء المد وواو المد ، وأصوات متسعة وهى ألف المد وما يشبهها .

ولا غرابة إذن أن يقول لنا القدماء : إن الألف أكثر اتساعاً من أختيها . ومسلك القدماء فى الحديث عن هذه الأصوات حين تحدثوا عن الصفات ، لاحين تحدثوا عن المخارج، مسلك مستقيم على كل حال ،فهو خير من تلك الرواية التى جاءت فى معجم العين من أنها جوفية أو هوائية وليس لها حيز تنسب إليه .

٢ — أصوات الفم : قسم سيبويه الفم إلى ثلاث مناطق : أقصاه : وهو القريب من الحلق ، ووسطه ، ثم أدناه وهو القريب من الشفتين . وحدد لكل صوت أو مجموعة من الأصوات مخرجا معينا وصفه وصفاً دقيقاً ، وظهر بوضوح أنه قد أدرك أن الصوت يتكون باتصال عضوين من أعضاء النطق اتصالا محكما كما هو الحال مع الأصوات الشديدة أو غير محكم كما هو الحال مع الأصوات الرخوة . فيقول مثلا عن مخرج القاف « إنه من أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى » أى أن أقصى اللسان يتصل بالحنك الأعلى . ويقول عن النون « إنه من طرف اللسان بينه وبين مافويق الثنايا » ، أى أن طرف اللسان يتصل بما فويق الثنايا ، فى حالة النطق بالنون .

وكل الذى قد يحتاج إلى مزيد من التوضيح فى كلام سيبويه هنا هو شرح ماعناه بقوله : « فويق الثنايا وأصول الثنايا » . فهو لدقته فى الوصف ،

وفي حرصه على تحديد المخارج ، وخصوصاً في أدنى الفم جعل منه ثلاث مناطق :

(ا) أصوات تتكون بالتقاء طرف اللسان بالثنايا من الداخل .

(ب) وأخرى تتكون بالتقاء طرف اللسان بالثنايا أو أصولها أي اللحم المتفرزة فيه من الداخل أيضاً .

(جـ) وثالثة تتكون بالتقاء طرف اللسان وأوله بأول الحنك الأعلى ، أي في تلك المنطقة التي ينطبق عليها ماذكرته المعاجم عن كلمة النطع وتبدو دقة سيبويه في صورة أوضح حين يصف لنا مخرج اللام فيقول : إنها من حافة اللسان من أدناها إلى منتهى طرف اللسان ، مابينها وبين مايليها من الحنك الأعلى وما فويق الضاحك والناب والرباعية والثنية » .على حين أن المحدثين هنا يكتفون بقولهم : « إن اللام تتكون باتصال طرف اللسان بأصول الثنايا » .

٣ — صفات الأصوات : ذكر سيبويه بعض المصطلحات حين عرض لما سماه « صفات الحروف » ، فوصف اللام بأنها حرف منحرف ، أي رغم اتصال طرف اللسان بأصول الثنايا معها نجد أن النفس يتسرب من جانبي الفم إلى الخارج ، فكأنما قد انحرف عن طريقه ، ولا بأس إذن من مثل هذه التسمية لدى سيبويه ، وإن كان المحدثون قد وصفوا اللام بأنها جانبية .

أما وصفه الراء بأنها حرف مكرر ، ووصفه بعض الحروف بأنها مطبقة ، فكلامه هنا من الوضوح بحيث لايحتاج إلى مزيد ، بل يشبه وصفه مادلت عليه التجارب الحديثة . كذلك وصف سيبويه صوت الشين

بالتفشي ، وذلك لأن هواء النفس معها لايقتصر فى تسربه إلى الخارج على مخرجها ، أى من الفراغ الذى بين العضوين المتصلين فى حالة الشين ، بل يتوزع فى جنبات الفم .

لم يبق من صفات سيبويه الخاصة بصفات الحروف إلا وصفه لبعض الأصوات على أنها مجهورة ، والبعض الآخر على أنها مهموسة ، وقد تبين لنا أن تلك التى سماها بالمجهورة هى التى يسميها الأوربيون الآن Voiced فيما عدا القاف والطاء ، فقد اعتبرهما من المجهورات ، فى حين أن تجاربنا الحديثة تبرهن على أن هذين الصوتين كما ننطق بهما الآن خاليان من صفة الجهر ، وقد تحدثنا عن هذا آنفا . أما ما سماه بالحروف المهموسة فهى كلها ينطبق عليها تمام الانطباق اصطلاح الأوربيين Voiceless .

غير أن وصف سيبويه لمعنى الجهر والهمس فى الأصوات يحتاج لمزيد من الشرح والتفسير ، لأن كثيراً من الدارسين الآن يحارون فى فهمه ، وقد قنع الذين جاءوا بعد سيبويه بترديد ألفاظه بنصها ، حين تحدثوا عن الجهر والهمس فى الأصوات ، فلم نجد فى كتبهم مايعين على فهم ماعناه سيبويه حين عرّف المجهور والمهموس ، بل حتى السيرافى الذى اشتهر شرحه لكتاب سيبويه قد اضطرب كلامه فى هـــذا الصدد ، فلا يكاد يستقر على رأى واضح يتمسك به ، وكل الذى فهمه من كلام سيبويه أن هناك قوة مـــع بعض الأصوات هى التى سماها سيبويه بالجهر ، على حين أن الأصوات الأخرى قد وصفت بالهمس لخفاء الصوت معها ! ! فهو يقول [سمى سيبويه هذه الحروف مجهورة لما فيها من إشباع الاعتماد المانع من جرى النفس معه عندالترديد، لأن قوةالصوتباقية، أخذه سيبويه من الجهر ، وسمى الحروف الأخرى مهموسة ، لأن الهمس الصوت الخفى ، فلضعف الاعتماد فيها وجرى النفس مع ترديد الحرف تضعف] ! ! .

كذلك تعثر السيرافى فى جملة جاءت فى كلام سيبويه ورواها السيرافى كما يأتى [إذا أردت اعتبار الحرف فإنك ترفع صوتك إن شئت بحروف المد وعا فيها منها ، وإن شئت أخفيت] . أما نصها الوارد فى كتاب سيبويه فهو [فإذا أردت إجراء الحروف فأنت ترفع صوتك إن شئت بحروف اللين والمد أو بما فيها منها وإن شئت أخفيت] . وهنا نجد السيرافى يتردد فى تفسيره ولايقطع برأى ، فهو يقول : [ويحتمل أن يكون الضمير فى قوله « فيها » لحروف المد] ، ثم لايلبث أن ينصرف عن هذا ويعرض علينا رأياً آخر قائلا : [ويحتمل أن يكون الضمير فى قوله « فيها » للحروف المهموسة والمجهورة] ! ! ، وهذه الجملة رغم مايشوبها من بعض الغموض وما يحتمل أن يكون قد وقع فيها من تحريف على توالى الزمن إنما أشار بها سيبويه إلى مايلاحظه المحدثون الآن من أن الحركة بعد الحرف أو قبله تساعد على التعرف عليه وتوضيح معالمه ، ولكن سيبويه قصر الأمر على جعل الحركة بعد الحرف[١] .

لانكاد بعد هذا نجد فى كلام من جاءوا بعد سيبويه مايستحق الذكر بصدد المجهور والمهموس ، إلا تلك الرواية المنسوبة لأبى الحسن الأخفش من أنه قال [سألت سيبويه عن الفصل بين المهموس والمجهور فقال : المهموس إذا أخفيته ثم كررته أمكنك ذلك ، وأما المجهور فلا يمكنك ذلك فيه ، ثم كرر سيبويه « التاء » بلسانه وأخفى فقال : ألا ترى كيف يمكن ، وكرر الطاء[٢] والدال وهما من مخرج « التاء » فلم يمكن ، وأحسبه ذكر ذلك عن الخليل . قال سيبويه : وإنما فرق بين المجهور والمهموس أنك لاتصل إلى تبيين المجهور إلا أن تدخله الصوت الذى يخرج من الصدر ،

---

(١) Spech and Hearing in Communication by Harvy Fletcher, p. 418 .

(٢) الطائفة القديمة المجهورة .

فالمجهورة كلها هكذا يخرج صوتهن من الصدر ويجرى فى الحلق ، غير أن الميم والنون يخرج أصواتهما من الصدر ويجرى فى الصدر والخيشوم غنة تخالط ماجرى فى الحلق . والدليل على ذلك أنك لو أمسكت بأنفك ثم تكلمت بهما رأيت ذلك قد أخل بهما . أما المهموسة فتخرج أصواتها من مخارجها ، وذلك مما يزجى الصوت ولم يعتمد عليه فيها كاعتمادهم فى المجهور فأخرج الصوت من الفم ضعيفاً ، والدليل على ذلك أنك إذا أخفيت همست بهذه الحروف ولاتصل إلى ذلك فى المجهور ، فإذا قلت « شخص » فإن الذى أزجى هذه الحروف صوت الفم ، ولكنك تتبع صوت الصدر هذه الحروف بعد مايزجيها صوت الفم ليبلغ ويفهم الصوت][1] انتهت رواية أبى الحسن الأخفش .

ولسنا نزعم أن هـــذه الرواية قد خلت كلها من بعض التحريف أو التصحيف ، ولكننا نعتقد أنها صحيحة فى جملتها ، وأنها تتضمن آراء قيمة فى الدراسة الصوتية تتفق مع أحـــدث النظريات الحديثة إلى حد كبير . فسيبويه يرشدنا هنا إلى وسيلة أخرى لتمييز المجهور من المهموس ، وذلك عن طريق إخفاء الصوت وأنه يمكن هذا الإخفاء مع المهموسات دون أن تفقد معالمها ، أما الإخفاء مع المجهورات فيترتب عليه أن الحرف تضيع صفته المميزة ، فلا نسمع الدال دالا حينئـــذ ، وإنما نسمع صوتاً آخر هو « التاء » .

والذى لم يكن يعرفه سيبويه هو أن الإخفاء معناه إسكات الذبذبات التى تحدث مع كل مجهور فى الوترين الصوتيين بالحنجرة ، ومتى سكتت أو انقطعت تلك الذبذبات انقلب المجهور إلى نظيره المهموس .

---

(١) نقلا عن شرح السيرافى — مخطوط بدار الكتب .

كذلك يحدثنا سيبويه فى هـذا النص عما يسميه بالصوت الذى يخرج من الصدر ويراه صفة مميزة لـكل مجهور ، ولعل هذا الصوت هو صدى الذبذبات التى تحدث فى الوترين الصوتيين بالحنجرة ، وهذا الصدى نحس به ولاشك فى الصدر كما نحس به حين نسد الأذنين بالأصابع أو حين نضع الـكف على الجبهة . فهو الرنين الذى نشعر به مع المجهورات ، وسببه تلك الذبذبات التى فى الحنجرة.

وكأنما فطن سيبـويه إلى موقف المهموسات فتساءل كيف تسمعها الأذن إذا كانت خالية من ذلك الصوت الذى يخرج من الصدر ، وهنا نراه يتصور أن أصواتها تخرج من مخارجها ، غير أنه لايعتمد عليه كالاعتماد مع المجهور ، ولذلك يخرج الصوت من الفم ضعيفاً .

والذى لم يـكن سيبويه يعرفه وإن كان قد أحس به أن النفس يتردد مع المهموس ويحدث موجات أيضاً تضخمها الفراغات الرنانة فى الحلق والفم فتسمعها الأذن من أجل هذا . أى أن هناك ذبذبات مع كل من المجهور والمهموس ، غير أن مصدر الذبذبات مع المجهورات هو الحنجرة على حين أن مصدرها مع المهموسات هو الحلق والفم وتضخمها الفراغات الرنانة ، ولـكنها ذبذبات ضعيفة ليس لها أثر قوى فى السمع . ومن هنا جاء خفاؤها أو همسها، ومن هنا أيضاً تميز المجهور من المهموس .

ويمثل سيبويه بكلمة « شخص » لتوضيح فـكرته فى صوت الصدر وصوت الفم ، وهذه الـكلمة تشتمل على الشين والخاء والصاد وكلها من المهموسات ، أى التى تتردد الذبذبات معها فى الحلق والفم ولا تشترك فى تـكوينها ذبذبات الوترين الصوتيين بالحنجرة ، أو كما يعبر عنها سيبويه « صوت الصدر » . غير أن سيبويه يشير هنا إلى أمر عجيب حين يقول :

[فإذا قلت « شخص » فإن الذى أزجى هذه الحروف صوت الفم ، ولكنك تتبع صوت الصدر هذه الحروف بعد مايزجيها صوت الفم] ! ! فماذا يعنى بقوله إننا نتبع صوت الصدر هذه الحروف ؟ يبدو أنه يعنى صوت الصدر الذى فى حركات الكلمة ، ونحن نعرف أن الحركات مجهورة ، أى فيها صوت الصدر الذي يقول عنه سيبويه ، أى أن الشين فى « شخص » يزجيها ويطلقها صوت الفم أى ذبذبات الفم ، ثم يليهـا الحركة المشتملة على صوت الصدر. وهكذا يكون سيبويه قد أرشدنا إلى أن الحركات فى الكلمات المشتملة على حروف مهموسة فقط تساعد على وضوح مثل هذه الكلمات فى السمع ، هذا إذا صح فهمنا لعبارة سيبويه .

٤ — تعريف سيبويه للمجهور :

يقول سيبويه [إن المجهور حرف أشبع الاعتماد فى موضعه ومنع النفس أن يجرى معه حتى ينقضى الاعتماد عليه ويجرى الصوت] .

هذا هو التعريف الذى وقف أمامه علماؤنا القدماء حائرين ، قانعين بترديد ألفاظه بنصها دون شرح واضح أو تعليق ذى قيمة ، لا يكادون يقربون منه حتى ينقلبوا عنه ، كأنما قد تخيلوا فى ألفاظه قدسية تحول دون أى تغيير فيها أو تبديل ، ولو بكلمات مرادفة .

ونحن حين نحسن الظن بتعريف سيبويه ونحكم بأنه كان على علم حقيق بطبيعة المجهور والمهموس نستطيع بعد إمعان النظر تفسير هـذا التعريف تفسيراً مقبولا معقولا . ولست أرى مبرراً للحكم عليه بغير هـذا ، فقد ذكر الحروف المجهورة والمهموسة وعينها ، واتفق فى هذا مع ماتبرهن عليه التجارب الحديثة فيما عدا حرفين اثنين ذكرنا للسر فيهما . وقد تبين لنا فى تعريف سيبويه أمران متميزان : عبر عن أولها بعبارة . « إشباع الاعتماد » التى أراد بها أن يصف المجهور بأنه صوت متمكن مشبع فيه

وضوح وفيـه قوة ، وتلك هى الصفة التى يشير إليها الأوربيون بقولهم « Sonority » . فالمجهور أوضح فى السمع من نظيره المهموس ، لانزاع فى هذا ، وليس للاعتماد معنى فى كلام سيبويه سوى عمليـة إصدار الصوت ، تلك العملية التى تلازم النفس منـذ خروجه من الرئتين إلى انطلاقه إلى الهواء الخارجى . ألا ترى أن سيبويه ذكر فى حالة النون والميم أن الاعتماد لهما يكون فى الفم والخياشيم ؛ بمعنى أنه تتم فى الفم عملية عضوية فى حالة هذين الصوتين ، وفى نفس الوقت تتم فى الخيشوم عملية عضوية أخرى . فالنون تتـكون بأن يلتقى طرف اللسان بأصول الثنايا التقاء محكما ، ويلتزم الناطق بها هذا الوضع ، غير أنه فى نفس الوقت يهبط أقصى الحنك فيفتح طريق الأنف لتسرب الهواء منه . كذلك مما يدل على أن الاعتماد معناه العملية العضوية المطلوبة فى إصدار الصوت أن سيبويه اعتبر أن فى المهموس اعتماداً أيضاً ولـكنه اعتماد ضعيف ، لأنه يقول : [فأما المهموس فحرف أضعف الاعتماد فى موضعه] .

ولأمر ما عبر سيبويه بقوله [أشبع الاعتماد فى موضعه] ولم يقل فى مخرجه ، لأنه كان يشعر بهذا الإشباع فى كل مجرى الصوت منذ صدوره من الرئتين إلى انطلاقه إلى الخارج ، فـكلمة الوضع هنا هى ماعبرنا عنه فى هذا الـكتاب بالمجرى ، وفرقنا بينه وبين المخرج .

الأمر الثانى الذى تبين لنا من تعريف سيبويه هو ماعبر عنـه بقوله : [مع النفس أن يجرى معه حتى ينقضى الاعتماد عليـه] . ومعنى هذا لى رأيى أن الحس المرهف لسيبويه جعله يشعر مع المجهور باقتراب الوترين الصوتيين أحدهما من الآخر حتى ليـكادان يسدان طريق التنفس . وتلك هى الصفة التى وضحها لنا المحدثون حين وصفوا مايجرى فى الحنجرة مع المجهورات ، إذ قالوا : إنه مع المجهور يقترب الوتران الصوتيان أحدهما من الآخر ، مما يضطر هواء النفس إلى الاندفاع من بينهما فى قوة تحرك

الوترين الصوتيين ، وتجعلهما يتذبذبان ، ويظلان يتذبذبان حتى ينقضى الاعتماد ، أى حتى تنتهى العملية العضوية المطلوبة فى إصدار الصوت . أما فى حالة المهموس فقد عبر عنها سيبويه بضعف الاعتماد ؛ أى عدم تمكن الصوت فى أثناء جريانه فى مجراه ، مما يترتب عليه قلة وضوحه . كذلك نجد طريق التنفس معه مفتوحا بحيث يسمح بانسيابه حراً طليقاً ، وتلك هى الحال التى عبر عنها المحدثون بقولهم : إن الوترين الصوتيين مع المهموس يبتعد أحدهما عن الآخر فينطلق النفس من بينهما دون حاجة إلى تحريكهما وإحداث ذبذبات بهما . هذا هو معنى جريان النفس مع المهموس ، ومنع جريانه مع المجهور . وقد التبس الأمر على بعض الدارسين فحسبوا أن منع النفس مع المجهور هو ذلك الانحباس المؤقت الذى يحدث مع الأصوات الشديدة ، ذلك لأن منع النفس مع المجهور عملية تتم فى الحنجرة ، أما ذلك الانحباس المؤقت فيتم فى مخرج الصوت ، كما سنرى فى شرح كلام سيبويه عن الشدة والرخاوة .

٥ — معنى الشدة والرخاوة عند سيبويه :

يقول سيبويه إن [الشديد هو الذى يمنع الصوت أن يجرى فيه] وهذا هو الانحباس المؤقت الذى نحس به فى مخرج الحرف لحظة قصيرة جداً بسبب التقاء العضوين التقاء محكما ، فإذا انفرجا فجأة سمعنا مايسمى بالصوت الشديد ، وما يسميه الأوربيون بالصوت الانفجارى . ألا ترى أن سيبويه هنا عبر بقوله « منع الصوت » ولم يقل منع النفس ؟ فهناك فرق بين المجهور الذى نحس فيه بمنع النفس وعدم انطلاقه حراً طليقاً ، ولكن الصوت معه لايمنع بل نظل نسمعه ، أما فى حالة الشديد فعند المخرج يمنع الصوت فلا نسمع شيئاً طالما كان الانحباس فى

المخرج قائماً . والدليل على ما نقول أن سيبويه حين تحدث عن اللام والنون اعتبرها من الحروف الشديدة لأن طرف اللسان معهما يلزم مكانه ، ولكن الصوت مع هذا يخرج ، ففي حالة اللام يخرج الصوت من جانبي الفم ، وفي حالة النون يخرج من الأنف .

فسيبويه إذن لا يتناقض مع نفسه كما يظن بعض الدارسين ، لأنه لايدع مجالا للبس ؛ إذ فرّق بين منع النفس مع المجهور ، ومنع الصوت مع الشديد . فمنع النفس لا يكون إلا في الحنجرة ، وأما منع الصوت فمكانه مخرج الحرف .

والمحدثون حين شرحوا لنا عملية الشدة والرخاوة وضحوا لنا أن الناطق يحس مع الشديد بانحباس مؤقت لدى المخرج بسبب التقاء عضوين التقاء محكما فإذا انفصلا فجأة سمع صوت انفجاري هو الذي نسميه بالشديد . أما في حالة الرخاوة فرغم التقاء العضوين أيضاً يكون الالتقاء غير محكم ، بل بينهما ممر ضيق يسمح بتسرب الهواء ، وتسرب الهواء هذا هو الذي عبر عنه سيبويه بجريان الصوت .

بهذا يكون سيبويه قد أحس مع المجهور والمهموس ، ومع الشديد والرخو بما يحس بها الدارسون للأصوات من المحدثين ، دون أن يكون على علم بالناحية التشريحية من وجود وترين صوتيين بالحنجرة يقومان بوظيفة معينة مع بعض الأصوات .

• • •

وقد يكون من تتمة الفائدة أن نعرض هنا نصوصاً من كتب أربعة

مشهورة ، ونضعها جنباً إلى جنب لتسهل المقارنة بين علاج العلماء القدماء للأصوات فى عصور مختلفة ، واخترنا من أجل هذا نص سيبويه ، وبجانبه نص ابن جنى فى سر صناعة الإعراب ، ثم نص ابن يعيش شارح المفصل وأخيراً نص ابن الجزرى صاحب كتاب النشر فى القراءات العشر ، وقد عاش سيبويه فى القرن الثانى الهجرى ، أما ابن جنى ففي القرن الرابع ، وابن يعيش فى القرن السابع ، وابن الجزرى فى القرن التاسع من الهجرة .

الحروف	سيبويه (القرن ٢ هـ)	ابن جنى (القرن ٤ هـ)	المفصل للزمخشري مع شرح ابن يعيش (٦٤٣ هـ)	النشر فى القراءات العشر (٨٣٣ هـ)
	فللحلق منها ثلاثة فأقصاها مخرجا الهمزة والهاء والألف ، ومن أوسط الحلق مخرج العين والحاء ، وأدناها مخرجا من الفم الغين والخاء .	ثلاثة مخارج فى الحلق أولها من أسفله وأقصاه مخرج الهمزة والألف والهاء . هكذا يقول سيبويه وزعم أبو الحسن أن ترتيبها الهمزة ثم الهاء وذهب إلى أن الهاء مع الألف لا قبلها ولا بعدها . ومن وسط الحلق مخرج العين والحاء ومما فوق ذلك مع أول الفم مخرج الغين والخاء .	الهمزة والهاء والألف أقصى الحلق ، والعين والحاء أوسطه ، والغين والخاء أدناه [الشارح] للحلق ثلاثة مخارج ، أقصاها من أسفله إلى مايلى الصدر مخرج الهمزة ، ثم الهاء وبعدها الألف هكذا يقول سيبويه وزعم أبو الحسن أن ترتيبها الهمزة ثم الهاء ومخرج الهاء هو مخرج الألف .. ثم العين والحاء من وسط الحلق . وروى الليث عن الخليل أن الألف والواو والياء والهمزة جوفية لأنها تخرج من الجوف ولا تقع فى مدرجة من مدارج الحلق ولا اللهاة ولا اللسان ، إنما هى هواء . وكان الخليل يقول الألف والواو والياء هوائية أى أنها فى الهواء . وأقصى الحروف العين ثم الحاء ثم الهاء ، فلولا بحة فى الحاء لكانت كالعين ولولا ههة فى الهاء لكانت كالحاء لقربها منها فهذه الثلاثة فى حيز واحد بعضها أرفع من بعض «وللغين والخاء أدنى الحلق » فالخاء أقرب إلى الفم من الغين .	أقصى الحلق وهو الهمزة والهاء فقيل على مرتبة واحدة وقيل الهمز أول . وسط الحلق وهو للعين والحاء المهملتين . فنص مكى على أن العين قبل الحاء ، وهو ظاهر كلام سيبويه وغيره . ونص شريح على أن الحاء قبل ، وهو ظاهر كلام المهدوى وغيره أدنى الحلق إلى الفم وهو للغين والخاء ونص شريح على أن الغين قبل ، وهو ظاهر كلام سيبويه أيضاً ، ونص مكى على تقديم الخاء . قال ابن خروف إن سيبويه لم يقصد ترتيباً فيما هو من مخرج واحد .

الحروف	سيبويه (القرن ٢ هـ)	ابن جنى (القرن ٤ هـ)	المفصل للزمخشرى مع شرح ابن يعيش (٦٤٣هـ)	النشر فى القراءات العشر (٨٣٣ هـ)
حروف أقصى الفم	ومن أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى مخرج القاف . ومن أسفل من موضع القاف من اللسان قليلا ومما يليه من الحنك الأعلى مخرج الكاف .	ومما فوق ذلك من أقصى اللسان مخرج القاف . ومن أسفل من ذلك وأدنى إلى مقدم الفم مخرج الكاف	«والقاف والكاف» فى حيز واحد ، فالكاف أرفع من القاف وأدنى إلى مقدم الفم ، وهما لهويتان لأن مبدأهما من اللهاة	أقصى اللسان مما يلى الحلق وما فوقه من الحنك وهو للقاف وقال شريح إن مخرجها من اللهاة مما يلى الحلق ومخرج الخاء . أقصى اللسان من أسفل مخرج القاف من اللسان قليلا وما يليه من الحنك وهو للكاف وهذان الحرفان يقال لكل منهما لهوى نسبة إلى اللهاة وهي بين الفم والحلق .
حروف وسط الفم	ومن وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك الأعلى مخرج الجيم والشين والياء .	ومن وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك الأعلى مخرج الجيم والشين والياء .	ثم «الجيم والشين والياء» ولها حيز واحد هو وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك ، وهى شجرية والشجر مفرج الفم لأن مبدأها من شجر الفم .	للجيم والشين المعجمة والياء غير المدّية ، من وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك . ويقال إن الجيم قبلهما . وقال المهدوى إن الشين تلى الكاف ، والجيم والياء يليان الشين . وهذه هى الحروف الشجرية .

الحروف	سيبويه (القرن ٢ هـ)	ابن جنى (القرن ٤ هـ)	المفصل للزمخشرى مع شرح ابن يعيش (٦٤٣ هـ)	النشر فى القراءات العشر (٨٣٣ هـ)
الضـــاد	ومن بين أول حافة اللسان وما يليه من الأضراس مخرج الضاد	ومن أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس مخرج الضاد إلا أنك إن شئت تكلفتها من الجانب الأيمن وإن شئت من الجانب الأيسر	والضاد من حيز الجيم والشين والياء ولها حيز واحد لأنها تقرب من أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس إلا أنك إن شئت تكلفتها من الجانب الأيمن وإن شئت من الجانب الأيسر	الضاد المعجمة من أول حافة اللسان وما يليه من الأضراس من الجانب الأيسر عند الأكثر ومن الأيمن عند الأقل ، وكلام سيبويه يدل على أنها يكون من الجانبين ، وقال الخليل إنها أيضاً شجرية يعنى من مخرج الثلاثة قبلها . والشجر عنده مفرج الفم أى مفتحه ، وقال غير الخليل هو مجمع اللحيين ، فلذلك لم تكن الضاد منه .

الحروف	سيبويه	ابن جنى	المفصل	النشر
اللام	ومن حافة اللسان من أدناها إلى منتهى طرف اللسان ما بينها وبين ما يليها من الحنك الأعلى (وما فويق الضاحك والناب الرباعية والثنية) مخرج اللام	ومن حافة اللسان من أدناها إلى منتهى طرف اللسان من بينها وبين ما يليها من الحنك الأعلى مما فويق الضاحك والناب والرباعية والثنية مخرج اللام	« واللام والنون والراء » من حيز واحد ، وبعضها أرفع من بعض ، فاللام من حافة اللسان من آخرها إلى منتهى طرف اللسان من بينها وبين ما يليها من الحنك الأعلى مما فويق الضاحك والناب والرباعية والثنية	من حافة اللسان من أدناها إلى منتهى طرفه وما بينها وبين ما يليها من الحنك الأعلى مما فويق الضاحك والناب والرباعية والثنية .
النون	ومن طرف اللسان بينه وبين ما فويق الثنايا مخرج النون .	ومن طرف اللسان بينه وبين ما فويق الثنايا مخرج النون	من خلف اللسان من بينه وبين ما فويق الثنايا مخرج النون	من طرف اللسان بينه وبين ما فويق الثنايا أسفل اللام قليلا .
الراء	ومن مخرج النون غير أنه أدخل فى ظهر اللسان قليلا لانحرافه إلى اللام مخرج الراء	ومن مخرج النون غير أنه أدخل فى ظهر اللسان قليلا لانحرافه إلى اللام مخرج الراء	ومن مخرجه غير أنه أدخل فى ظهر اللسان قليلا لانحرافه إلى اللام مخرج الراء ، وهى ذلقية ، يقال حرف أذلق ، وذلق كل شىء تحديد طرفه وكذلك ذولقه .	من مخرج النون من طرف اللسان بينه وبين ما فويق الثنايا العليا غير أنها أدخل فى ظهر اللسان قليلا . وهذه الثلاثة يقال لها الذلقية نسبة إلى موضع مخرجها وهو طرف اللسان إذ طرف كل شىء ذلقه

الحروف	سيبويه	ابن جنى	المفصل	النشر
الطاء والدال والتاء	ومما بين طرف اللسان وأصول الثنايا مخرج الطاء والدال والتاء	ومما بين طرف اللسان وأصول الثنايا مخرج الطاء والدال والتاء	من حيز واحد ، وهو ما بين طرف اللسان وأصول الثنايا وهى نطعية لأن بدأها من نطع الغار الأعلى وهو وسطه يظهر فيه كالتحزيز	من طرف اللسان وأصول الثنايا العليا مصعداً إلى جهة الحنك ، ويقال لهذه النطعية لأنها تخرج من نطع الغار الأعلى وهو سقفه
الزاى والسين والصاد	ومما بين طرف اللسان وفويق الثنايا مخرج الزاى والسين والصاد	ومما بين الثنايا وطرف اللســان مخرج الصــاد والزاى والسين	من حيز واحد وهو ما بين الثنايا وطرف اللسان وهى أسلية لأن مبدأها من أسلة اللسان وهو مستدق طرف اللسان وهى حروف الصفير	لحروف الصفير من بين طرف اللسان فويق الثنايا العليا وهذه الثلاثة الأحرف هى الأسلية لأنها تخرج من أسلة اللسان وهى مستدقه
الظاء والذال والثاء	ومما بين طرف اللسان وأطراف الثنايا مخرج الظاء والذال والثاء	ومما بين طرف اللسان وأطراف الثنــايا مخرج الظاء والذال والثاء	من حيز واحد وهو ما بين طرف اللسان وأطراف الثنايا ، وبعضها أرفع من بعض وهى لثوية لأن مبدأها من اللثة	من بين طرف اللسان وأطراف الثنايا العليا ، ويقال لها اللثوية نسبة إلى اللثة وهو اللحم المركب فيه الأسنان

الحروف	سيبويه	ابن جنى	المفصل	النشر
الفاء	ومن باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العلى مخرج الفاء	ومن باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليـا مخرج الفاء	الفاء والباء والميم من حيز واحد وهى الشفة ويقال لها لذلك شفهية وشفوية ، فالفاء من باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا	من باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا
الباء والميم والواو	ومما بين الشفتين مخرج الباء والميم والواو	ومما بين الشفتين مخرج الباء والميم والواو	ومما بين الشفتين مخرج الميم والباء إلا أن الميم ترجع إلى الخياشيم بمـا فيها من الغنة فلذلك تسمعها كالنون	للواو غير المدية والباء والميم مما بين الشفتين فينطبقان على الباء والميم وهذه الأحرف الأربعة يقال لهـا الشفهية والشفوية نسبة إلى الموضع الذى تخرج منه وهو الشفتان

الظاهرة اللغوية	سيبويه	ابن جنى	المفصل	النشر
الجهر والهمس	فالمجهورة الهمزة الألف العين الغين القاف الجيم الياء الضاد اللام النون الراء الطاء الدال الزاى الظاء الذال الباء الميم الواو فذلك تسعة عشر حرفاً وأما المهموسة فالهاء والحاء والخاء والكاف والشين السين التاء الصاد الثاء الفاء فذلك عشرة أحرف. فالمجهورة حرف أشبع الاعتماد فى موضعه ومنع النفس أن يجرى معه حتى ينقضى الاعتماد عليه ويجرى الصوت. فهذه حال المجهورة فى الحلق والفم إلا أن النون والميم قد يعتمد لهما فى الفم والخياشيم فتصير فيهما غنة والدليل على ذلك أنك لو أمسكت بأنفك ثم تكلمت بهما لرأيت ذلك قد أخل بهما. وأما المهموس فحرف أضعف الاعتماد فى موضعه حتى جرى النفس معه وأنت تعرف ذلك إذا اعتبرت فرددت الحرف مع جرى النفس، ولو أردت ذلك فى المجهور لم تقدر عليه فإذا أردت إجراء الحروف فأنت ترفع صوتك إن شئت بحروف اللين والمد أو بما فيها منها وإن شئت أخفيت.	فالمهموس عشرة أحرف وهى الهاء والحاء والخاء والكاف والشين والصاد والتاء والسين والثاء والفاء وباقى الحروف وهى تسعة عشر حرفاً مجهور. فمعنى المجهور أنه حرف أشبع الاعتماد من موضعه ومنع النفس أن يجرى معه حتى ينقضى الاعتماد ويجرى الصوت غير أن الميم والنون من جملة المجهورة قد يعتمد لهما فى الفم والخياشيم فتصير فيهما غنة. وأما المهموس فحرف أضعف الاعتماد من موضعه حتى جرى معه النفس، وأنت تعتبر ذلك بأنه قد يمكنك تكرير الحرف مع جرى الصوت نحو سسس ككك هههه ولو تكلفت مثل ذلك فى المجهور لما أمكنك.	الجهر إشباع الاعتماد فى مخرج الحرف ومنع النفس أن يجرى معه والهمس بخلافه والذى يتعرف به تباينهما أنك إذا كررت القاف فقلت قققق. وجدت النفس محصوراً لا تحس معها شىء منه، وتردد الكاف فتجد النفس مقاودا لها ومساوقاً لصوتها. (ستشحثك خصفه) (الشارح) لأن الهمس الصوت الخفى فضعف الاعتماد فيها وجرى النفس مع ترديد الحرف لضعفه	الهمس من صفات الضعف كما أن الجهر من صفات القوة. والمهموسة عشرة يجمعها قولك (سكت فحثه شخص)، والهمس الصوت الخفى، فإذا جرى مع الحرف النفس لضعف الاعتماد عليه كان مهموسا والصاد والخاء المعجمة أقوى مما عداها. وإذا منع الحرف النفس أن يجرى معه حتى ينقضى الاعتماد عليه كان مجهوراً، قال سيبويه إلا أن النون والميم قد يعتمد لهما فى الفم والخياشيم فيصير فيهما غنة.

الظاهرة اللغوية	سيبويه	ابن جني	المفصل	النشر
الشدة والرخاوة	ومن الحروف الشديد وهو الذي يمنع الصوت أن يجري فيه وهو الهمزة ق ك ط ت د ب ، وذلك أدو اذا قلت الحق ثم مددت صوتك لم تجر ذلك. ومنها الرخوة هـ ح غ خ ش ص ض ز س ظ ث ذ ف، وذلك إذا قلت الطس والقص وأشباه ذلك أجريت فيه الصوت إن شئت وأما العين فبين الرخوة والشديدة تصل إلى الترديد فيها الشبه بالحاء . ومنها المنحرف وهو حرف شديد جرى فيه الصوت لانحراف اللسان مع الصوت ولم يعترض على الصوت كاعتراض الحروف الشديدة وهو اللام . وإن شئت مددت فيها الصوت وليس كالرخوة لأن طرف اللسان لا يتجافى عن موضعه وليس يخرج الصوت من موضع اللام ولكن من ناحيتي مستدق اللسان فويق ذلك. ومنها حرف شديد يجري معه الصوت لأن ذلك الصوت غنة من الأنف فإنما تخرجه من أنفك واللسان لازم لموضع الحرف لأنك لو أمسكت بأنفك لم يجر معه الصوت وهو النون وكذلك الميم ومنها المكرر وهو حرف شديد يجري فيه الصوت لتكريره وانحرافه إلى اللام فتجافى للصوت كالرخوة ولو لم تكرر لم يجر الصوت فيه وهو الراء.	وللحروف انقسام آخر إلى الشدة والرخاوة وما بينهما ، فالشديدة ثمانية همزة ق ك ج ط د ت ب والحروف التي بين الشديدة والرخوة ثمانية الألف العين الياء الميم اللام النون الراء الواو وما سوى هذه الحروف والتي قبلها هي الرخوة ومعنى الشديد أنه الحرف الذي يمنع الصوت من أن يجري فيه ألا ترى أنك لو قلت الحقّ والشطّ ثم رمت مدّ صوتك في القاف والطاء لكان ذلك ممتنعا والرخو هو الذي يجري فيه الصوت ألا ترى أنك لو قلت المسّ والرشّ والشحّ ونحو ذلك فتجد الصوت جاريا مع السين والشين والحاء	والشديد ما في قولك (أجدت طبقك) والرخوة ما عداها وعدا ما في قولك (لم يروعنا) وهي التي بين الشديد والرخوة والشدة أن ينحصر صوت الحرف في مخرجه فلا يجرى ، والرخاوة بخلافها ويتعرف تباينها بأن تقف على الجيم والشين فتقول «الحج» « والطش» فإنك تجد صوت الجيم راكدا محصوراً لا تقدر على مده وصوت الشين جاريا تمده إن شئت والكون بين الشدة والرخاوة ألا يتم لصوته الانحصار ولا الجرى كوقفك على العين وإحساسك في صوتها بشبه الانسلال من مخرجها إلى مخرج الحاء [الشارح] فالشديد ثمانية أحرف همزة ق ك ج ط د ت ب ... والتي بين الشديدة والرخوة ثمانية أيضا وهي الألف ع ي ل ن ر م و .. ومعنى الشديد أنه الحرف الذي يمنع الصوت أن يجرى فيه وذلك أنك لو قلت «الحج » ومددت صوتك لم يجر ، وكذلك لو قلت « الحق » « والشط » ثم رمت مد صوتك في القاف والطاء لكان ممتنعاً والرخو هو الذي يجرى فيه الصوت ألا ترى أنك تقول هو المسّ والرشّ والسح ونحو ذلك فتجد الصوت جاريا مع السين والشين والحاء .. والفرق بين المجهورة والشديدة أن المجهورة يقوى الاعتماد فيها والشديدة يشتد الاعتماد فيها بلزومها موضعها لا لشدة الوقع وهو ما ذكرناه من الضغط . ألا ترى أن الذال والظاء مجهورتان غير مضغوطتين فتقول ذ، ظ فيجرى الصوت.	ومنها الحروف الرخوة وضدها الشديدة والمتوسطة ، فالشديدة وهي ثمانية (أجد قط بكت) ، والشدة امتناع الصوت أن يجرى في الحروف وهو من صفات القوة والمتوسطة بين الشدة والرخاوة خمسة يجمعها قولك (لن عمر) وأضاف بعضهم إليها الياء والواو والمهموسة كلها غير التاء والكاف رخوة ، والمجهورة الرخوة خمسة غ ض ظ ذ المعجمات والراء . والمجهورة الشديدة ستة يجمعها قولك (طبق أجد)

(٤) ابن سينا وأصوات اللغة

وأخيراً نختتم الفصل الخامس بحديث عن موقف الرئيس ابن سينا من أصوات اللغة لأنه عالجها علاجاً فريداً لا يشركه فيه أحد من العلماء القدماء . وقد بدأ اهتمام الدارسين بكلام ابن سينا فى هذا الصدد خلال القرن العشرين .

فمنذ أكثر من نصف قرن عثر السيد محب الدين الخطيب على مخطوطة فى المتحف البريطانى عنوانها «أسباب حدوث الحروف» نسبت للشيخ الرئيس ابن سينا ، فصورها ثم عارض النص بنسخة أخرى فى الخزانة التيمورية ، ونشر تلك الرسالة الصغيرة دون تعليق أو تحقيق أو دراسة لما اشتملت عليه ، ومع هذا فجهده مشكور وله فضل السبق .

ولما وقفنا على هذه الرسالة منذ بضع سنوات استرعى انتباهنا أنها تعالج طرفا من الدراسة الصوتية اللغوية علاجا فريداً يختلف اختلافا بيناً عن علاج سيبويه وأمثاله من علماء العربية . فقد جاء حديث ابن سينا فى رسالته حديث العالم بأسرار الطبيعة ، حين أشار إلى كنه الصوت وأسبابه ؛ وحديث الطبيب المشرح حين وصف أجزاء الحنجرة واللسان ، وتميز كلامه بمصطلحات لا نعرف أن غيره من علماء العربية يشركه فيها ؛ ذلك لأن سيبويه قد بدأ فى كتابه المشهور الوصف المألوف لأصوات اللغة من حيث مخارجها وكيفية صدورها وصفاتها . وبقى كلام سيبويه فى كل عصور اللغة عماداً للذين جاءوا بعده يرددونه دون فهم حقيقى له فى كثير من الأحيان ، حتى تلك الشروح المشهورة لكتاب سيبويه من أمثال السيرافى والرمانى كانت فى معظم الحالات

تقتصر على ترديد ألفاظ سيبويه بنصها ، أو الحوم حولها دون إضافة جدية ذات قيمة علمية .

ولكن ابن سينا وحده قد سلك مسلكا مغايراً فى كل ناحيـة من نواحى هذه الدراسة ، فاستحقت رسالته أن نعكف عليها زمناً غير قصير محاولين تحقيق نصوصها وشرح مضمونها فى ضوء ما اهتدى إليه المحدثون من علمـاء الأصوات اللغوية ، ومستعينين على فهمها ببعض أساتذة الطبيعة والتشريح. وأمكن بالرجوع إلى ما جاء فى كتابى القانون والشفاء لابن سينا توضيح كثير من نصوص الرسالة وفهم مراميها وأهدافها .

ولسنا نزعم مع إشادتنا برسالة ابن سينا أن حقائق العلم بأصوات اللغـة لم تتقدم أو لم تتطور منذ عهد تلك الرسالة ، فلدينا الآن من الإمكانيات الحديثـة ما لم يتح للقدماء من آلات وأجهزة للتصوير والتسجيل وتحليل الأصوات .

وما أعرضه اليوم هنا لا يعدو أن يكون بعض مقتطفات من كتاب صغير أقوم الآن بإعداده لينشر فى المستقبل القريب حول رسالة ابن سينا المسماة بأسباب حدوث الحروف .

بدأ ابن سينا رسالته بمقدمة أشار فيها إلى أنه قام بوضـع هـذه الرسالة تلبية لرغبة أبى منصور الجبان الذى تردد ذكره مـع ابن سينـا فى كتب التراجم . فيروى أنه حدث فى أحد مجالس الأمير علاء الدولة أيام السامانيين أن جرى ذكر مسألة من مسـائل اللغـة فتـكلم فيها ابن سينـا بمـا حضره حينئـذ . وكان بالمجلس أبو منصور الجبـان ، فأبى على ابن سينـا أن يقحم نفسه فى مسائل اللغة التى لا يحسنهـا وقال له : إنك فيلسوف وحـكيم ولم تقرأ من اللغة ما يرضى كلامك فيها ! فاستنـكف ابن سينـا من هـذه المجابهـة وتوفر على درس كتب اللغـة ثلاث سنين مستعينـا فيما تقـول الرواية ، بمعجم

الأزهرى المسمى « تهذيب اللغة » ثم نظم أشعاراً ، وكتب عدة رسائل ورفع بها إلى أبى منصور الجبان زاعماً له أنه عثر عليها فى الصحراء فى أثناء الصيد ولا يدرى أحد شيئاً عن صاحبها .

فلما عرضت تلك الرسائل والأشعار على أبى منصور فى مجلس الأمير ، وكان الأمير يعلم بحقيقة أمرها ، أخذ أبو منصور يتفقدها وأشكل عليه كثير مما فيها. فلما أخبره ابن سينا بما جهله تنبه أبو منصور وأدرك أنها جميعاً من تأليف ابن سينا، فاعتذر له عن تلك المجابهة التي بدرت منه ، وأصبح منذ ذلك الحين صديقاً مخلصاً لابن سينا ، ثم طلب منه أن يؤلف له مقالا مختصراً فى مخارج الحروف فكانت تلك الرسالة التى نحن بصددها .

ويقسم ابن سينا رسالته إلى فصول ستة :

١ — عرض فى الفصل الأول إلى ما سماه « سبب حدوث الصوت ». ولا يتم فهمنا لحديثه فى هذا الفصل إلا بالرجوع لكلامه عن السمع فى كتابه الشفاء . ومما جاء فيه أن الصوت لا يحدث إلا عن قرع أو قلع ، فالقرع مثل قرع صخرة أو خشبة يحدث معه أو بعده صوت ، وأما القلع فمثل فصل أحد شقى شيء مشقوق عن الشق الآخر ، مثل خشبة يفصل أحد شقيها عن الآخر فصلا طوليا .

ويعرض ابن سينا فى كتابه الشفاء إلى أمر كان ولا يزال محل الخلاف والنقاش بين علماء الطبيعة وذلك حين يتساءل : هل الصوت هو نفس القرع والقلع ؟ هل هو نفس التموج الذى فى الهواء ؟ أو هو شيء ثالث يتولد فى المصدر المهتز وهذا الشيء الثالث يتبع الحركة الموجية أو يصاحبها حين تصل إلى الأذن ؟

وهنا نشعر أن ابن سينا يتردد فى الإدلاء بحكم قاطع حاسم ، ولكنه فيما يبدو كان أميل إلى عد الصوت شيئاً ثالثاً ، لاهو نفس القرع والقلع ، ولا نفس التموج .

ثم يتساءل ثانية : هل للصوت وجود فى الخارج يتبع الحركة الهوائية أو يصاحبها ، أو أنه لا وجود له إلا فى السمع ، ثم يحاول جاهداً فى محاجة منطقية أن يثبت للصوت وجوداً فى الخارج فيقول : « ولعل مما يعين على إدراك أن للصوت وجوداً فى الخارج أن سامع الصوت يدرك جهته التى فيها يولد وينتهى ، فلو كان الصوت يحدث فى الأذن فقط وليس آتيا من الخارج لما أمكن تمييز جهته يميناً أو شمالا . وبهذا يتضح أن للصوت وجوداً فى الخارج لا من حيث هو مسموع بالفعل ، بل من حيث هو مسموع بالقوة .

ويضيق المقام عن ذكر كل ما جاء فى كتاب الشفاء بصدد الصوت ، ولذلك أكتفى بالإشارة إلى تلك العبارة التى اختتم بها كلامه حين جعل للصوت الإنسانى صفات ثلاثاً :

(أ) الثقيل والحاد : ويبدو أنه يريد بهذا درجة الصوت ، أو ال Pitch فالثقيل هو الصوت الغليظ كأصوات الرجال ، والحاد هو ما يشبه صوت النساء . والفرق بينهما فى رأى المحدثين سببه نسبة التردد أو عدد الذبذبات فى الثانية . فعدد الذبذبات فى الثانية مع الصوت الثقيل أقل كثيراً من عددها مع الصوت الحاد . وقد ذكر ابن سينا فى رسالته هذه الصفة وحاول تعليلها ، كما سيأتى .

(ب) خفوت الصوت وجهره : وأغلب الظن أنه يريد هنا ما يسميه المحدثون بسعة الموجة ال Amplitude التى يترتب عليها أن يكون الصوت عالياً أو منخفضاً .

(ج) وأخيراً الصوت الأملس والصلب والتخلخل . ولعله يريد بهذا نوع الصوت الـ quality وهو تلك الصفة التى تميز صوتاً من آخر وتتوقف على شكل الموجة .

٢ — أما الفصل الثانى الذى جعل عنوانه « سبب حدوث الحروف » فيبدأ بعبارة حيرتنا كثيراً وهى : « وأما حال التموج فى نفسه من جهة اتصال أجزائه وتماسكها ، أو بسطها وسخفها فيفعل الحدة والثقل » . فنحن إزاء هذا النص بين أمرين : أولهما وأرجحهما أن ابن سينا هنا يشير إلى درجة الصوت الـ Pitch ، لأن طول الموجة مع الصوت الحاد أقل منه مع الصوت الثقيل ، فأجزاء الموجة فى الصوت الحاد متقاربة متماسكة ، على حين أن أجزاءها مع الصوت الثقيل متباعدة . ولعل تعبيره ببسط الأجزاء وسخفها قد استمده من التعبير العربى « ثوب سخيف قليل الغزل » أى أن أجزاءه غير متماسكة بل مفككة .

الأمر الثانى : أن ابن سينا فى هذا النص أراد فعلا أن يصف لنا حدة الصوت وثقله الـ high and low pitch ، وجعل حدة الصوت أو ثقله متوقفاً على طبيعة الجسم المقروع ، فهو فى حالة اتصال أجزائه وتماسكها أى حين تكون كثافته كبيرة كالأجسام الصلبة من معادن ونحوها يكون الصوت عادة حاداً ، على حين أن الصوت مع الجسم الأقل كثافة كالخشب مثلا يكون ثقيلا .

ويستعمل ابن سينا فى هذا الفصل مصطلحين متميزين هما : المخارج والمحابس . وأغلب الظن أنه يريد بالمخارج مجرى الهواء أو طريقه الذى يكون : إما فى الأنف وذلك مع الميم والنون ، أو من الفم مع باقى الحروف .

أما المحابس فيبدو أن ابن سينا يريد بها ما أراده القدماء بمصطلحهم المخارج ، وهى تلك المواقع التى يتم لدى كل منها حبس الهواء سواء كان هذا الحبس تاماً أو غير تام . فالكاف مثلا لها محبس هو فى أقصى الفم حين يلتقى أقصى اللسان بأقصى الحنك التقاء محكماً يترتب عليه حبس الهواء حبساً تاماً ، فإذا انفصل العضوان فجأة تسرب الهواء فى عنف محدثاً صوتاً انفجارياً . فهذا الموضع أى أقصى اللسان مع أقصى الحنك هو ما سماه القدماء كسيبويه وغيره بمخرج الكاف وما يسميه ابن سينا بمحبسها ، فالمحبس لدى ابن سينا هو موضع معين أو نقطة معينة فى طريق الهواء ، أما المخرج فهو كل الطريق .

كذلك نلاحظ فى هذا الفصل أن ما يسميه سيبويه بالصوت الشديد وهو ما يسميه المحدثون بالانفجارى Plosive يسميه ابن سينا بالمفرد ، وأن ما يسميه سيبويه بالصوت الرخو ويسميه المحدثون بالاحتكاكى Fricative يسميه ابن سينا بالصوت المركب . ولعله لاحظ فى تسميته أن الأصوات الشديدة أو المفردة أصوات حاسمة سريعة لا تحتاج إلى جهد عضوى ، على حين أن المركبة وهى الرخوة تحتاج فى النطق بها إلى زمن أطول وجهد أكبر .

ويصور المحدثون الفرق فى الجهد العضوى بين هذين النوعين بقولهم إننا إذا طلبنا من إنسان أن يجرى نحو حائط بعيد فسيجد أنه من اليسير عليه أن يصطدم بالحائط فى آخر الشوط ، على حين أنه يصعب عليه الوقوف قبل الحائط بمسافة قصيرة جداً . وكذلك اللسان فى أثناء النطق يكون دائم الحركة لا ينقطع عنها ، يلتقى مع الحنك التقاء محكما فى حالة الصوت الشديد ، ولكنه مع الرخو يتوقف لدى مسافة قصيرة جداً من الحنك هى التى تسمح بتسرب الهواء . فالصوت الشديد أيسر من نظيره

الرخو ، ولذلك يميل كثير من الأطفال فى المراحل الأولى إلى قلب الصوت الرخو إلى نظيره الشديد التماسا لأيسر السبل واقتصادا فى الجهد العضوى فيقولون مثلا (تتى) بدلا من (ستى) .

٣ — أما الفصل الثالث فقد خصصه ابن سينا لتشريح الحنجرة واللسان . ويعنينى فى هذا الفصل غضاريف الحنجرة التى ذكر ابن سينا فى رسالته وفى كتاب القانون (الجزء الأول) أنها ثلاثة غضاريف . ولكن بالرجوع إلى كلامه فى الجزء الثانى من كتاب القانون تحت عنوان «تشريح الحنجرة والقصبة والرئة» أمكن أن نستكمل الصورة الحقيقية لرأى ابن سينا فى غضاريف الحنجرة ، وتبينت لنا الحقائق الآتية :

أولا — أن الغضروف الذى يطلق عليه ابن سينا « عديم الاسم » مرة و « الذى لا اسم له » مرة أخرى ، هو ما يسميه المحدثون Epiglottis . فكأنه حين ظهر له أن المقطع السابق « Epi » لا يعنى أكثر من « فوق أو على » وأن كلمة glottis بالإغريقية معناها اللسان ، تكون الترجمة الحرفية للمصطلح الأجنبى الإغريقى هى « فوق اللسان » . فرأى أن هذا الغضروف رغم أهميته لم يوضع له اسم مستقل أى أغفلت تسميته ، فدعاه من أجل هذا بعديم الاسم ، أو الذى لا اسم له . ويدل على هذا الفهم عدة نصوص وردت فى رسالته وفى الجزء الثانى من كتابه القانون . ويكفى هنا أن نسوق نص كتاب القانون :

« وخصوصا والازدراد لا يجامع النفس ، لأن الازدراد يحوج إلى انطباق مجرى قصبة الرئة من فوق لئلا يدخلها الطعام المار فوقها . ويكون انطباقها بركوب الغضروف المتكىء على المجرى ، وكذلك الذى يسمى الذى لا اسم له . وإذا كان الازدراد والقىء يحوجان إلى انطباق فم هذا المجرى لم يمكن أن يكون عندما يتنفس » .

فهو هنا بما لا يدع مجالا للشك يشير إلى حاجة المرء فى أثناء البلع إلى إغلاق طريق النفس ، ويرى أن هذا الإغلاق يتم بوساطة غضروفين أحدهما وصفه بالمتكىء على المجرى وأغلب الظـن أنه يعنى ما يسميـه المحدثون Cuneiform ، والغضروف الآخر ما يطلق عليـه الذى لا اسم له ، وكلنا نعـلم أن أهم وظيفـة للغضروف المسمى Epiglottis هى سد طريق التنفس فى أثناء البلع ، ويشترك معه فى هذا الـ Cuneiform .

ولـكن الأطباء العرب فى أيامنا هذه يسمون الـ Epiglottis لسان المزمار ، ففى معجم شرف للمصطلحات الطبية نجد أنه يطلق على Epiglottis عدة أسماء أشهرها لسان المزمار .

فاشتهر بيننا الآن أن الـ Epiglottis هو لسان المزمار . ولـكن ابن سينا يستعمل لسان المزمار لجزء آخر من أجزاء الحنجرة ربما هو ما يعرف لدى المحدثين باسم Rima-Glattidis وهو الفرجة التى بين الأوتار الصوتية . فيقول فى الجزء الثانى من القانون ما نصه : « وخلق لأجل التصويت الشىء الذى يسمى لسان المزمار ، يتضايق عنده طرف القصبة ثم يتسع عند الحنجرة فيبتدىء من سعة إلى ضيق ثم إلى فضاء واسع كما فى المزمار . فلابد للصوت من تضييق المحبس . وهذا الجرم الشبيه بلسان المزمار من شأنه أن ينضم وينفتح ليـكون بذلك قرع الصوت » ثم يعيد الإشارة إليه فى آخر هذا الـكلام فيقول : وفى داخلها الجرم الشبيه بلسان المزمار وهو مثل الزائدة التى تشابه رأس المزمار فيتم به الصوت » .

وهكذا نرى أن لسان المزمار عند ابن سينا شىء آخر غير المشهور الآن لدى واضعى المصطلحات العربية من رجال الطب .

ثانياً — الحقيقة الثانية التى نتبينها من كلام ابن سينا فى رسالته وفى كتابه «القانون» أنه يسمى الغضروف المعروف لدى المحدثين باسم Thyroid بالغضروف الترسى أو الدرقى . وهذه التسمية العربية ترجمة للمصطلح الأجنبى ، لأن هذا الغضروف يشبه فى شكله الترس أو الدرقة ، ولأن معنى المصطلح الإغريقى Thyroid الترس .

كذلك تبين لنا أن الغضروف المعروف لدى المحدثين باسم Arytenoid سماه ابن سينا « بالطرجهارى » من الكلمة الفارسية «طرجهاره» أى كأس للشرب ، ويقول الفيروز بادى فى باب الراء « طرجهارة » شبه كأس يشرب فيه ، وفى باب اللام « الطرجهالة » بالكسر الفنجانة كالطرجهارة . ويبدو أن هذا الغضروف قد ظهر لأطباء العرب القدماء على هذه الصورة، على حين أنه بدا للاغريق القدماء على شكل المغرفة لأن معنى Arytenoid الشبيه بالمغرفة . ويرى الدكتور شرف أن هذا الغضروف فى الحيوان يشبه فم الإبريق ولذلك سماه ابن سينا بالطرجهارى.

وهذا الغضروف مزدوج لدى أصحاب التشريح من المحدثين ، أى له فرعان كل فرع يشبه المغرفة ، ولكن ابن سينا لم يشر إلى هذا الازدواج .

ثالثاً — وأخيراً تبين لنا أن الغضروف الذى يسميه المحدثون Cricoid قد اعتبره ابن سينا جزءاً من القصبة الهوائية ولم يعتبره من غضاريف الحنجرة ، فيقول فى القانون « أما قصبة الرئة فهى عضو مؤلف من غضاريف كثيرة دوائر وأجزاء دوائر يصل بعضها على بعض، وعلى رأسه (أى هذا العضو) الفوقانى الذى يلى الفم والحنجرة » . أى إذا جاوزنا الفم والحنجرة صادفنا أول جزء من أجزاء القصبة وهو الجزء الفوقانى الكامل الاستدارة . ومن الواضح أن تسمية ابن سينا للغضروف المعروف لدى

المحدثين باسم Crieoid بالفوقانى جارية على النهج الفارسى فى استعمال « برانى وجوانى وفوقانى » .

٤ — الفصل الرابع : تحدث ابن سينا فى هذا الفصل عن الحروف العربية ، وأوضح كيفية صدور كل حرف منها ، فوصف العملية العضوية مع كل حرف وصفا مفصلا . وتميز وصفه بمصطلحات انفرد بها . وقد رتب الحروف العربية ترتيبا مخرجيا يشبه إلى حد كبير ترتيب الخليل فى كتاب العين ، فالخلاف بين ترتيبه وترتيب الخليل يسير جداً ، ولكن فيما يبدو كان لابن سينا حكمة فى ذلك الترتيب الذى آثره ، فقد جعل القاف بعد الخاء وقبل الغين ، وجعل الثاء بعد التاء مباشرة ، وأخر النون إلى آخر الحروف .

ويضيق المقام هنا عن الحديث عن هذا الفصل من رسالة ابن سينا ، ولذلك ننتقل إلى الفصل الخامس .

٥ — الفصل الخامس : يحدثنا ابن سينا فى هذا الفصل عن حروف سمعها فى لغات أخرى غير اللغة العربية ، ولكنه لم يذكر من أسماء هذه اللغات إلا الفارسية التى هى لغته الأولى والتى كان على علم وثيق بها .

ومن بين تلك الحروف التى يشير إليها تلك التى تشبه الجيم العربية فى رأيه وهى :

(ا) ذلك الصوت الذى سمعه فى أفواه الفرس حين ينطقون بالكلمة الفارسية « چاه » ، ومعناها البئر .

وهذا الصوت هو الذى يرمز إليه فى الإنجليزية ch تش .

(ب) ثلاثة أصوات يرى أن الأول منها يضرب إلى شبه الزاى ، وأن الثانى يضرب إلى شبه السين ، وأن الثالث يضرب إلى شبه الصاد .

وإذا تذكرنا أن ابن سينا قد عنى كل العناية بعلوم اليونان، وأنه اتصل بلغتهم بعض الاتصال لم يكن من الشطط فى الاستنتاج أن نقرر أن ابن سينا هنا يصف لنا أصواتا سمعها فى اللغة اليونانية القديمة .

ونحن نعلم أن اليونانية القديمة تشتمل على حرفين يسميان (زيتا ، كسى) ونعلم أن الأول منهما ينطق به حين يليه صوت لين مركب Diphthong كذلك الصوت الأول الذى وصفه ابن سينا أى DZ. أما الحرف اليونانى الثانى (كسى) فهو الذى نراه فى بعض اللغات الأوروبية الحديثة ويرمز له بالرمز X وينطق به فى اليونانية القديمة كأنه يبدأ بالكاف وينتهى بالسين أى مثل الكلمة الإنجليزية Express . على أننا فى بعض الكلمات الإنجليزية نسمع السينية من هذا الصوت مفخمة كأنما هى صادية مثل Exultation ، ولكن لا يعدان فى مثل هذه الحالة إلا فونيما واحدا ، أى أن ما يشبه الصاد يعد لونا من ألوان السين لا يتغير له المعنى ، فليس الأمر كاللغة العربية التى تجعل كلا من السين والصاد فونيما مستقلا يتغير له المعنى مثل (صبر ، سبر) . فلعل ابن سينا قد سمع الحرف اليونانى (كسى) ينطق به غالباً منتهيا بالسين وفى قليل من الأحيان منتهياً بما يشبه الصاد ، فوصف لنا الحالين وعبر عن الأول بأنه يضرب إلى شبه السين ، وعن الثانى بأنه يضرب إلى شبه الصاد .

وهكذا نرى أن ابن سينا يعتبر صوتا فارسيا هو « تش » ومعه ثلاثة أصوات يونانية هى DZ ، Ks ، كص ، يعتبر هذه الأربعة أشباها لصوت الجيم العربية لما تشتمل عليه جميعا من صفة الازدواج ، أى لأنها جميعا تبدأ بعنصر

شديد يليه عنصر رخـو . أما فى الأثر السمعى لـكل منها فالفرق واضح يبرر جعل كل منها صوتا مستقلا ذا كيان خاص .

السين الزائية الزاى السينية

وينسب الأولى للغة أهـــل خوارزم ولعله يعنى اللغة الأوزباكية إحدى اللغات التركية ، وينسب الثانية للفرس فى نطقهم كلـــة مثل « زرد » أى أصفـر .

والصوت الأول فيما يبدو « سين » جهر بها قليلا فأشبهت الزاى ، والثانى « زاى » همس بها قليلا فأشبهت « السين » ، والنتيجة واحـدة فى كلتا الحالين ، وإنما اعتبرهما صوتين مختلفـين لاختلاف الرمز لهما فى هاتين اللغتين المختلفتين . أو ربما كانا صوتـين يختلفان اختلافا ضئيلا جـداً ، ولـكن الأذن المرهفة لابن سينا قد أحست بهذا الفرق الذى يتجاهله عادة علماء الأصوات من المحدثين . ونطق الفرس للزاى السينية كما يصفه ابن سينا يشبه إلى حد كبير نطق الألمان الآن حين يميلون إلى تهميس الزاى ، ولعـل هذا النطق الفارسى للزاى لا يزال سائدا بين أهل إيران حتّى الآن .

الزاى الظائية

هذا الصوت وإن لم ينسبه ابن سينا إلى لغة معينة يبدو أنه نطق الفرس للظاء العربية ، وهو نفس الظاء العامية التى تجرى على ألسنتنا الآن ، أى التى لا تخرج معها طرف اللسان .

وتعد هذه الظاء العامية من الأصوات العربية وإن لم يرمز لهـــا القدماء برمز خاص ، فنحن نسمعها فى بعض القراءات القرآنية ولا سيمـــا فى

قراءة الكسائي لمثل قوله تعالى « حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير » . فالكسائى يجهر بالصاد فى « يصدر » ، ومتى جهر بالصاد أصبحت تلك الظاء العامية ، فلا فرق بين الصاد وهذه الظاء إلا فى صفة الجهر والهمس ، أى أن الوترين الصوتيين يتذبذبان مع هـــذه الظاء ويصمتان مع الصاد ، ولكنهما فيما عدا هذا يتماثلان تماما . وهذه الظاء العامية هى فى الحقيقة زاى مفخمة ، ولذلك حين وصف أصحاب القراءات قراءة الكسائى قالوا عنها « إشمام الصاد صوت الزاى » .

الفاء الشبيهة بالباء

نسب ابن سينا هـــذا الصوت للغة الفارسية وضرب له مثلا بكلمة فارسية هى « ڤرندى » التى معناها العنكبوت فى حالة التنكير . ولما كتب الفرس لغتهم بحروف عربية لم يجدوا بين أبجـــديتنا مايرمزون به لهذا الصوت ، فاختاروا له الرمز العربى الخاص بالواو ، ونطقوها V كما هو الشأن فى الألمانية الحديثة . فابن سينا هنا يعنى ذلك الصوت المشهور فى بعض اللغات الأوروبية الحديثة وهو V . أما وجه الشبه بينه وبين الباء فهو أن كلا من الباء وهـذا الصوت من المجهورات أى يتذبذب معها الوتران الصوتيان . ولا فرق بين الفاء وهذا الصوت إلا فى صفة الجهر والهمس، فالفاء مهموسة ونظيرها المجهور هو هذا الصوت الفارسى .

وقد استرعى انتباهنا فى المخطوطة التى نحن بصددها أن هذا الصوت قد كتب فاء فوقها ثلاث نقط . وهذه ولاشك كتابة حديثة نسبيا ، فمن المعروف أن الفرس القدماء كانوا يرمزون لهذا الصوت بالواو العربية .

الباء المشددة

ضرب لنا ابن سينا مثلا لهذا الصوت بالكلمة الفارسية « پيروزى » ومعناها النصر . وتبين لنا من هذا المثل أنه يعنى ذلك الصوت المألوف فى كثير من اللغات الأوربية والذى يرمز له بالرمز P ، ولا فرق بين هذا الصوت والباء العربية إلا فى أن الباء العربية مجهورة ونظيرها المهموس هو هذا الصوت الفارسى . وقد رمز له الفرس القدماء بباء تحتها ثلاث نقط .

هذا ملخص ما جاء فى رسالة ابن سينا عن بعض الأصوات الأجنبية . ويضيق المقام هنا عن الأصوات الأجنبية الأخرى التى عرض لها .

٦ — الفصل السادس : فى أن هذه الحروف من أى الحركات غير النطقية تسمع .

يبدو من هذا الفصل أن ابن سينا كان ممن يربطون بين أصوات اللغة والأصوات الطبيعية الأخرى . فهو هنا يحاول جاهداً أن يتلمس وجوه شبه بين أصوات اللغة وبين ما نسمعه من أصوات غير نطقية فى حياتنا العامة . فيصف لنا مع كل حرف ما يشبهه من الحركات التى نلحظها فى حياتنا سواء تمت تلك الحركات بفعل فاعل أو مصادفة . فمثلا يقول فى حالة الشين أنها تسمع « عن نشيش الرطوبات وعن نفوذ الرطوبات فى خلل أجسام يابسة نفوذا بقوة » ! ويقول عن الطاء إنها تحدث عن تصفيق اليدين بحيث لا تنطبق الراحتان بل يحصر هنالك هواء له دوى ، ويسمع عن القلع أيضا مثله » .

ويقول عن التاء أنها تسمع « عن قرع الكف بأصبع قرعاً بقوة » .

وقد قمنا بعرض الوصف الذى ذكره ابن سينا مع هذه الحروف الثلاثة على جمع من طلبة دار العلوم يبلغ عددهم ٨٣ طالباً ، ثم طلبنا منهم أن يستوحوا منه حروفاً دون أن نذكر لهم أن ابن سينا يتخيل فى تلك العمليات : شيناً ، طاء ، تاء .

ولما جمعت إجابات الطلبة اتضح لنا أن ثمانيـــة فقط هم الذين استوحوا ما استوحاه ابن سينا ، أى استنبطوا أن تلك العمليات تولد الشين والطاء والتاء .

أما عدد الذين أصابوا فى حرفين من الحروف الثلاثة كالشين والطاء فكانوا ثلاثة عشر طالباً ، والذين استوحوا الشين والتاء كانوا أربعة عشر طالباً .

ويبد أن وصف ابن سينا للعمل الذى يشبه الشين كان أكثر إيحاء ، فلم نكد نجد من بين هؤلاء الطلبة من أخطأها .

وهذه التجربة التى قمنا بها مع الطلبة إن دلت على شىء ، فإنما تدل على أن ما يمكن أن يسمى بوحى الأصوات مرجعه إلى عاملين :

أولهما : تجارب كل منا مع الأصوات فى حياته العامة وماتعود سماعه فى بيئته وما ألفه وتكرر على سمعه . ونستمد هذه التجارب عادة من أصوات لغتنا ومما نسمعه حولنا من أصوات أخرى . ولا شك أننا نختلف فى مثل تلك التجارب اختلافا واضحاً . فأبناء بيئة من البيئات قد يختلفون عن أبناء بيئة أخرى فى تلك التجارب تبعاً لاختلاف اللغات من ناحية ، ولاختلاف ظواهر الطبيعة من ناحية أخرى ؛ بل قد يختلف أبناء البيئة الواحدة فى تلك التجارب الصوتية تبعاً للظروف المختلفة التى تحيط بكل منهم . فلا غرابة أن اختلف طلبة الفرقة الواحدة فى تفسير العمليات التى وضعها ابن سينا مع الشين والطاء والتاء .

ثانيهما : العامل الثانى هو العامل النفسى وربما كان أهم من العامل الأول ؛ ذلك لأن الأثر السمعى لأى تموجات صوتية مرجعه إلى تفسير المخ لها . وهذا التفسير هو الذى يحار فى كنهه علماء الأصوات ، وهو الذى قد يختلف بين أبناء البيئة الواحدة ، بله البيئات المختلفة .

ومع هذا ، فهناك عنصر مشترك فى تفسير الأصوات بين الناس جميعاً ، كذلك هناك عنصر مشترك أكبر بين أبناء البيئة الواحدة .

ولما تحدث علماء اللغات من المحدثين عن تلك الكلمات التى استوحيت من الأصوات الطبيعية والتى يسمونها Onomatopoe أو Echo-Words رأوا أن أعضاء النطق لدى الإنسان لا تستطيع فى كثير من الأحيان تقليد كل الأصوات غير النطقية تقليداً دقيقاً . ولذلك كان اختيار الأصوات فى مثل هذه الكلمات وليد المصادفة إلى حد كبير . فاختارت الشعوب المختلفة مجاميع مختلفة من الأصوات اللغوية لتصوير أصوات الطبيعة . ويكفى أن نقارن بين الكلمات العربية المستمدة من أصوات الحيوان أو ظواهر الطبيعة بنظائرها فى اللغات الأخرى لندرك هذه الحقيقة ، فليس فيما أعرف من اللغات ما يشبه (النباح . الحفيف . الزئير) ، وغيرها من حيث الأصوات حين تقارن هذه الكلمات بما يعبر عن معانيها فى اللغات الأخرى .

ومع هذا نلحظ فى النادر من الأحيان عنصراً مشتركا بين كثير من اللغات فى بعض الكلمات المستمدة من الأصوات . فصوت الديك فى الإنجليزية يعبر عنه بمجموعة من الأصوات هى cock-a-doodle-doo « كوكادودلدو » ، وفى الدنمركية Kykeliky كيكيليكى ، وفى السويدية « كوكيليكو » Kukeliku ، وفى الفرنسية « كقيليكو » coquelico ، ولا أظن أنى بحاجة إلى التذكير بصوت الديك فى ألسنتنا الآن .

ويحضرني في هذه المناسبة تلك القصة الطريفة التي تروى في كتب اللغة والأدب والتي تتلخص في أن أحد علماء اللغة بمسجد البصرة كان يسأل بعض تلاميذه عن اشتقاق فعل الأمر من « وقى » ، وإسناده للمفرد والمثنى والجمع ، فلما أجاب تلميذه طلب منه الأستاذ أن ينطق بالأحوال الثلاثة متتابعة وأن يكرر هذا على سمعه فقال : ق ، قيا ، قوا ، . ق ، قيا ، قوا . ق ، قيا ، قوا . وتصادف أن كان يمر بالمسجد رجل يبيع أثوابا فدهش لما سمع وذهب وأحضر رجل الشرطة للبحث عن ذلك الذى يصيح بالمسجد كصياح الديكة .

لا أريد بعد هذا أن أستطرد فى الحديث عن رمزية الأصوات؛ لأن الحديث عنها طويل ولا يتسع له المجال ويكفى أن نشير هنا إلى أن فكرة الربط بين أصوات الكلمات ومدلولاتها كانت ولا تزال محل نقاش كثير بين علماء اللغات ، فمنهم من يراها عرفية ومنهم من يؤكد أنها طبيعية . أثير هذا الجدل بين فلاسفة اليونان ومناطقة العرب ولا نزال نقرؤه الآن بين المحدثين .

فحديث ابن سينا فى هذا الفصل الأخير حديث عالم من علماء الطبيعة عالج ظاهرة الصوت وبحث فى خواصها ، ثم بحث فى أصوات اللغة وحروفها ، فربط الأصوات المنطوقة وغير المنطوقة ربطا أساسه تجاربه الخاصة فى اللغات التى عرفها وأصوات الطبيعة فى بيئته، وأساسه أيضاً مزاجه الشخصى وخياله الخصب وكل ما ينتمى إلى الجانب النفسى السيكلوجى فى ابن سينا . ولذلك لا يصح أن يؤخذ حكمه هنا على أنه حكم عام ، لأنه لا يعدو أن يكون تفسيرا ذاتيا شخصيا لابن سينا نفسه .

فالربط بين أصوات الكلمات ومدلولاتها على فرض التسليم به أمر يختلف باختلاف أبناء البيئة الواحدة ، بله الشعوب والأمم ، فالخلاف

بينها واضح بيّن حتى فى تلك الأصوات الانعكاسية الغرزية . فنحن مثلا نعبر عن الألم بصيحة هى (أى) على حين أن الإنجليزى يصيح (أوتش) .

ولذلك لا ندهش حين نقرأ أن كبلنج يقول فى إحدى قصصه : « ليس هذا الرجل أفغانيا لأن الأفغان يبكون أى أى ، وليس هندستانيا لأنهم يبكون أُه هوء إنه يبكى كما يبكى الرجل الأبيض فيصيح أو أُوْ .

الفصل السادس

(١)
طول الصوت اللغوى

مما عنى به المحدثون فى تجاربهم معرفة طول الصوت اللغوى، سواء كان صوت لين أو صوتاً ساكناً ، ونعنى بطول الصوت الزمن الذى يستغرقه النطق بهذا الصوت ، مقدراً عادة بجزء من الثانية . فقد قدروا أن « الدال » المتطرفة فى الكلمات الإنجليزية تستغرق فى النطق بها حوالى ٠٥ر من الثانية ، فى حين أن صوت اللين (A) يستغرق مدة أطول هى حوالى ٤٣ر من الثانية .

ولطول الصوت أهمية خاصة فى النطق باللغة نطقاً صحيحاً . فالإسراع بنطق الصوت ، أو الإبطاء به ، يترك فى لهجة المتكلم أثراً أجنبيا عن اللغة ينفر منه أبناؤها . وليس من الضرورى أن يعرف المرء مقدار الزمن الذى يستغرقه نطق كل صوت ليصح نطقه ؛ بل إن المران السمعى يكفى عادة فى ضبط هذا الطول دون حاجة إلى المقاييس الآلية .

وطول الصوت إما أن يكون طبيعياً فيه ، أو مكتسباً . ويعنينا أولا شرح الطول الطبيعى ، فأصوات اللين بطبيعتها أطول من الأصوات الساكنة ، على أنه حين قيست أصوات اللين وجد أن الفتحة أطول من الكسرة والضمة . ويلى أصوات اللين فى الطول الطبيعى الأصوات الأنفية : وهى النون والميم فهما من أطول الأصوات الساكنة ، ثم الأصوات الجانبية كاللام ، ثم المكررة كالراء ؛ ثم الأصوات الرخوة ذات الصفير أو الحفيف .

وأقل الأصوات الساكنة طولا هى الأصوات الشديدة أو الانفجارية . وأوضح ما يكون طول الصوت اللغوى فى أصوات اللين ، لأن الفروق فى

طولها تؤثر تأثيراً كبيراً فى النطق الصحيح للغة . هذا إلى أن كل صوت لين فى لغة من اللغات يمكن أن يقسم ، من حيث الزمن الذى يستغرقه ، إلى نوعين : طويل وقصير . بل قد يكون من الممكن أن يقسم إلى ثلاثة أنواع متميزة : طويل ومتوسط وقصير . أما الأصوات الساكنة فالفروق بينها ليست من القدر بحيث تحتم علينا مثل هذا التقسيم .

واللغويون عادة يقسمون أصوات اللين إلى نوعين فقط : قصير ، وطويل . فالفتحة مطلقة صوت لين قصير ، فإذا أصبحت ما يسمى بالألف الممدودة فهى صوت لين طويل . والفرق عادة بين الفتحة الطويلة والقصيرة هو أن الزمن الذى تستغرقه الأولى ضعف ذلك الذى تستغرقه الثانية .

ومن حسن الحظ أن أصوات اللين العربية لا تختلف مقاييسها حين تطول ، كما يحدث فى كثير من أصوات اللين الإنجليزية . فلا يؤثر طول الصوت العربى فى مقياسه ؛ بل يبقى هو هو طال الصوت أو قصر .

أما العوامل المكتسبة التى تؤثر فى طول الصوت اللغوى فأهمها : النبر [١] ونغمة الكلام ، وربما كان لنحو اللغة أثر أيضا فى طول الصوت أحيانا .

فالصوت المنبور أطول منه حين يكون غير منبور . وانسجام الكلام فى نغماته يتطلب طول بعض الأصوات وقصر البعض الآخر، إذ يميل الصوت المنبور الى القصر إذا وليه صوت غير منبور ، وذلك تحقيقاً لرغبة الكلام فى أن تتقارب مقاطعه المنبورة بعضها من بعض . فإذا كثرت المقاطع غير المنبورة بعد مقطع منبور ، قللت من طوله . فالألف فى كلمة « كتاب » أطول منها فى العبارة « كتاب تلميذ » .

وقد عنى القراء منذ القدم بإطالة بعض الأصوات الساكنة فى اللغة العربية . وقد ظهر هذا جلياً فى حديثهم عن أحكام النون والميم الساكنتين .

---

(١) أنظر القسم الثالث من هذا الفصل.

فقد حاولوا أن يحولوا بين هذين الصوتين وفنائهما فيما بعدهما من الأصوات ، فأطالوا الميم حين يليها الباء وحين تكون مشددة ، كما أطالوا النون مع خمسة عشرة صوتا هي التي عرفت بالأصوات التي تخفى معها النون . ومظهر هذه الإطالة هو فيما سماه القدماء بالغنة ، إذ ليست الغنة إلا إطالة فى النون والميم كما فصلنا هذا فى الكلام عن هذين الصوتين . فإذا كان بعد النون المشكلة بالسكون ياء أو واو أصبح كل منهما صوتا أنفميا ، وشددت الياء والواو ، ولكنهما يصبحان فى هذه الحالة أطول من أى صوت مشدد آخر ، لأن طولهما هنا كطول النون المشددة . فالنون فى مثل : « كنتم » أطول منها فى « إن هو » ، وكذلك الميم فى مثل « يعتصم بالله » أطول منها فى « وهم يوقنون » . وكذلك الياء المشددة التى نتجت من إدغام النون فيها فى نحو « من يعمل » ضعف اللام الشددة فى مثل « فان لم » .

فما سماه القدماء بإخفاء النون والميم هو فى الحقيقة إطالة لهذين الصوتين ، رغبة فى الإبقاء عليهما ، ومنعهما من الفناء فيما يليهما من الأصوات ، كما شاع فى كثير من اللهجات العربية قديمها وحديثها .

وكذلك حرص القدماء على جهر الأصوات الشديدة أمثال « الدال والباء » ، لما شاع فى نطق بعض اللهجات العربية القديمة من ميل الناطقين بها إلى همس كل صوت شديد . فالصوت الشديد المجهور مائل دائما إلى أن يصبح مهموسا ، ولا سيما إذا كان مشكلا بالسكون ــ متطرفا أو فى وسط الكلمة ــ وقد جاوره صوت مهموس . ولهذا أطالوا الأصوات الشديدة المجهورة ليظهروا جهرها ، ويحولوا بينها وبين أن تصبح مهموسة ، ولا سيما إذا كانت مشكلة بالسكون . وهذه الظاهرة هى التى سماها القدماء بالقلقلة . فقلقلة الباء المشكلة بالسكون ليست إلا إطالة لها مع إضافة صوت لين قصير جداً يشبه الكسرة . وأصوات القلقلة كما رواها القدماء هى :

القاف . الطاء . الباء . الجيم . الدال

والقاف والطاء اللتان رمى القدماء إلى قلقلتهما ليستا القاف والطاء اللتين نسمعهما الآن فى قراءة المقرئين فى هذا العصر . وإنما هما القاف والطاء كما كان ينطق بهما مجهورين . فالقاف كان ينطق بها كالغين أو الجيم القاهرية ، والطاء كان ينطق بها كالضاد الحديثة التى نسمعها الآن من قرائنا ، وقد أشرنا إلى هذا من قبل .

فالقاف والطاء الأصليتان هما صوتان مجهوران حرص القدماء على جهرهما ؛ ولكن رغم هذا الحرص قد تطورا إلى صوتين مهموسين فى قراءاتنا الآن .

أما أصوات اللين العربية ، فطوراً تقصر ، وذلك مع الجزم كما فى نحو (ينام ، يقوم ، يبيع ، يرضى ، يسمو ، يرمى) حين يدخل على هذه الأفعال أداة جزم تصبح (ينمْ ، يقمْ ، يبعْ ، يرضَ ، يسمُ ، يرمِ) ، فكل الذى أصابها هو أن صوت اللين الطويل أصبح قصيراً . وهذه الظاهرة مطردة فى اللغة العربية ، تحتمها قواعد اللغة .

وكذلك أباح القراء قصر صوت اللين فى حالة الوقف بما سموه الروم . فبدلا من الوقف بالسكون على أواخر الكلمات أباح القراء الوقف بنفس الحركة ، بعد تقصيرها إلى صوت لين قصير جداً لا يكاد يسمع إلا عن قرب . فالقراء يسمحون بالوقف على « نستعين » فى (إياك نعبد وإياك نستعين) بضمة قصيرة جداً ، وسموا هذه الظاهرة الوقف مع الروم . وكما يكون الروم مع الضمة يكون أيضاً مع الكسرة والفتحة .

فمراتب الطول فى أصوات اللين فى اللغة العربية ثلاثة : أطولها فى مثل « يسمو » يليها « لم يسمُ » ، ثم يلى هذا الوقف بالروم على مثل « نستعين » ، وليس الفرق بين هذا المراتب الثلاث إلا فرقاً فى الكمية .

وأصوات اللين الطويلة فى اللغة العربية قد يزداد طولها ضعفا أوضعفين حين يليها همزة أو صوت مدغم ، سواء كان هذا فى كلمة واحدة وهو ما اصطلح القدماء على تسميته بالمد المتصل ، أو فى كلمتين وهو المد المنفصل .

وقد عنى القراء بهذه الإطالة عناية كبيره ، أفردوا لها أبوابا وفصولا فى كتبهم ووضعوا لها مراتب متعددة قاسوها أحيانا بالألفات ، وحيناً بالعد على الأصابع ؛ ولكن يظهر أن نسبة هذه الإطالة كانت ولا زالت موضع خلاف بينهم ، كل منهم يحددها ويقيسها قياسا اجتهاديا . على أنهم جميعا قد أجمعوا على الإطالة مع اختلاف فى نسبتها . ومن الواجب أن تحدد هذه النسبة تحديداً علمياً ، أدق مما هو شائع الآن بين قرائنا . ولن يكون هذا إلا بتجارب حديثة تستخدم فيها آلات القياس الحديث . ولعل بحوث المستقبل تكفل لنا هذا ، لأن طول الصوت اللغوى من أبرز الظواهر اللغوية التي يترتب عليها النطق الصحيح بأى اللغة . فالقراء فى مثل « يشاء » وفى مثل « ولا الضالين » قد يطيلون صوت اللين فوق طوله أضعافا . وهذا النوع من الإطالة لا يراعى إلا فى القراءات القرآنية ، فلا يكون فى الشعر العربى ، ويندر أن يقع فى النثر .

أما السر فى الإطالة فهو — كما يبدو لى — الحرص على صوت اللين وطوله لئلا يتأثر بمجاورة الهمزة أو الإدغام ، لأن الجمع بين صوت اللين والهمزة كالجمع بين متناقضين ، إذ الأول يستلزم أن يكون مجرى الهواء معه حراً طليقا وأن تكون فتحة المزمار حين النطق به منبسطة منفرجة ، فى حين أن النطق بالهمزة يستلزم انطباق فتحة المزمار انطباقا محكما يليه انفراجها فجأة . فإطالة صوت اللين مع الهمزة يعطى المتكلم فرصة ليتمكن من الاستعداد للنطق بالهمزة التى تحتاج إلى مجهود عضوى كبير وإلى عملية صوتية تباين كل المباينة الوضع الصوتى الذى تتطلبه أصوات اللين .

وهذا هو نفس السر فى إطالة صوت اللين حين يليه صوت مدغم ، لأن طبيعة اللغة العربية ونسجها تستلزم قصر أصوات اللين الطويلة حين يليها صوتان ساكنان فحرصا على صوت اللين وإبقاء على ما فيه من طول ، بولغ فى طوله لئلا تصيبه تلك الظاهرة التى شاعت فى اللهجات العربية قديمها وحديثها ، من ميل صوت اللين إلى القصر حين يليه صوتان ساكنان .

والصوت اللغوى قد يتأثر من حيث طوله بما يجاوره من الأصوات . ومما لاحظه المحدثون أن صوت اللين يزداد طولا إذا وليه صوت مجهور. فصوت اللين (i) فى الكلمة الإنجليزية (bid) أطول منه فى الكلمة (bit)، وكذلك لاحظوا أن الصوت الساكن يكون أطول إذا سبقه صوت لين قصير ، والعكس بالعكس فالنون فى (bin) أطول منها فى (men) ، والنون فى (man) أقصر من الاثنين ، لأن صوت اللين (a) أطول من (e) وهذه أطول من (i) .

على أن بعض اللغات لا تتأثر أصواتها من حيث الطول بمجاورة بعضها البعض ؛ بل لكل صوت مقياس محدد لا يتغير بمجاورة أنواع أخرى من الأصوات .

(٢)

المقطع الصوتى

يحتاج الباحث الى تقسيم الكلام المتصل إلى مقاطع صوتية ، عليها تبنى فى بعض الأحيان الأوزان الشعرية ، وبها يعرف نسيج الكلمة فى لغة من اللغات .

والمقاطع الصوتية نوعان : متحرك «Open» وساكن «Closed» . والمقطع المتحرك هو الذى ينتهى بصوت لين قصير أو طويل ، أما المقطع

(١) ويسمى المتحرك أيضاً بالمقطع ؛ والساكن بالمقطع المغلق .

الساكن فهو الذى ينتهى بصوت ساكن [١]. فالفعل الماضى الثلاثى « فتحَ » يتكون من ثلاثة مقاطع متحركة ، فى حين أن مصدر هذا الفعل « فتحٌ » يتكون من مقطعين ساكنين .

وقد وجد المحدثون صعوبة فى تحديد بدء المقطع ونهايته ؛ ولكنهم استطاعوا دائما تحديد وسطه أو أظهر جزء فيه .

فالكلام المتصل يتكون من أصوات لغوية تختلف فى نسبة وضوحها السمعى . وترتب على هذه النسبة أن قسموا الأصوات إلى قسمين رئيسيين : هما الأصوات الساكنة وأصوات اللين . وقد اتضح لهم أن الأصوات الساكنة بطبيعتها ، أقل وضوحاً فى السمع من أصوات اللين . على أن المحدثين قد لاحظوا أن اللام والنون والميم أصوات عالية النسبة فى الوضوح السمعى ، وتكاد تشبه أصوات اللين فى هذه الصفة ، مما جعلهم يسمونها أشباه أصوات اللين .

وقد شاهد المحدثون أنه فى حالة تسجيل الذبذبات الصوتية لجملة من الجمل فوق لوح حساس ، يظهر أثر هذه الذبذبات فى شكل خط متموج ، ويتكون هذا الخط من قمم ووديان . وتلك القمم هى أعلى ما يصل إليه الصوت من الوضوح . وأصوات اللين تحتل في معظم الأحيان تلك القمم ، تاركة الوديان للأصوات الساكنة . وقد وجد المحدثون أن اللام والنون والميم تحتل القمم فى بعض الأحيان مثلها فى هذا مثل أصوات اللين . ولهذا اعتبروا أصوات اللين ومعها اللام والنون والميم أصواتاً مقطعية ، لأنها هى التى تحدد المقاطع الصوتية فى الكلام . وقسموا لهذا مقاطع الجملة حسب ما فيها من أصوات اللين ، وفى قليل من الأحيان يضطرون إلى عد ما اشتملت عليه الجملة من لام أو نون أو ميم ،

(١) يمكن أن يسمى المقطع المتحرك بالمفتوح ، ويمكن أن يسمى الساكن بالمغلق .

وإن كان احتلال هذه الأصوات الثلاثة ، لقمم الخط المتموج قليل الشيوع . وقد روى لنا أحد المحدثين جملة فى اللغة التشيكوسلوفاكية لا تشتمل على صوت لين واحد . ولكن لندرة هذا فى اللغات ، سنهمل هنا اعتبار هذه الأصوات الساكنة من بين الأصوات المقطعية ، مكتفين دائماً بعداً المقاطع فى الكلمة أو الجملة حسب ما تشتمل عليه من أصوات لين .

فإذ التقى فى الكلام صوتا لين ، تكون منهما عادة صوت واحد أقل وضوحاً فى السمع ، ويخرج بهذا عن صفات أصوات اللين فيصبح صوتاً ساكناً أو شبيهاً بأصوات اللين . والتقاء صوتى لين ينتج لنا عادة أحد الصوتين الانتقاليين اللذين نسميهما « الواو » و « الياء » .

ففى الكلمة الإنجليزية (Creation) لانعد صوتى اللين (e و a) صوتين مقطعيين ، بل يتكون منهما عادة نوع من « الياء » .

والتقاء صوتى لين أحدهما مقطعى والآخر غير مقطعى ، ينتج عادة ذلك الصوت المركب الذى يسمى (Diphthong) ، وإذا كان المقطعى منهما أولا سمى الـ (Diphthong) هابطاً (falling) وهو الشائع فى اللغة الإنجليزية . وأما إذا كان غير المقطعى هو الأول ، سمى الـ « Diphthong » صاعداً (Rising) . وتشتمل اللغة العربية على النوعين ، فالهابط فى مثل « بيت » ، والصاعد فى مثل « يسر » . وقد مالت اللغة العربية فى تطورها إلى التخلص من النوع الأول ، فقد انقلب فى معظم اللهجات العربية الحديثة ، إلى صوت لين طويل ، كما فى نطق المصريين الآن لكلمتى « بيت وحوض » .

واللغة العربية حين النطق بها تتميز فيها مجاميع من المقاطع ، تتكون كل مجموعة من عدة مقاطع ينضم بعضها إلى بعض ، وينسجم بعضها مع بعض

فهى وثيقة الاتصال ، وبذلك ينقسم الكلام العربى إلى تلك المجاميع من المقاطع . وكل مجموعة اصطلح عادة على تسميتها بالكلمة . فالكلمة ليست فى الحقيقة إلا جزءاً من الكلام ، تتكون عادة من مقطع واحد ، أو عدة مقاطع وثيقة الاتصال بعضها ببعض ، ولا تكاد تنفصم فى أثناء النطق ، بل تظل مميزة واضحة فى السمع . ويساعد بلاشك على تمييز تلك المجاميع معانيها المستقلة فى كل لغة .

غير أن بعض القراءات القرآنية أباحت ما سمى بالإدغام الكبير فى كلمتين مثل « لذهب بسمعهم » ، « يعذب من يشاء » ، « حيث شئتما » ، وفى مثل هذه الحالة لا يسهل التمييز بين حدود الكلمتين إلا بمراعاة المعنى ، إذ فى بعض الأحيان تكون الكلمتان مجموعة واحدة من المقاطع ، أو تكونان مجموعتين لا تنطبقان على مقاطع الكلمتين حين نقرؤهما بغير الإدغام ، فطوراً نجد المقطع الأخير من الكلمة الأولى أو جزءاً منه ينضم إلى مقاطع الكلمة الثانية ، وطوراً آخر نجد المقطع الأول من الكلمة الثانية ، أو جزءاً منه ، ينضم إلى مقاطع الكلمة الأولى . وكذلك الحال فى حالة التقاء همزتين فى كلمتين مثل « هؤلاء إن كنتم » ، فما يعرض لإحدى الهمزتين فى بعض القراءات يجعل التمييز بين الكلمات عسيراً إلا إذا لوحظ المعنى .

والكلمة العربية مهما اتصل بها من لواحق (Suffixes) أو سوابق (Prefixes) لا تزيد عدد مقاطعها على سبعة . ففى كل من المثالين « فسيكفيكهمو » ، أو « أنلزمكموها » مجموعة مكونة من سبعة مقاطع . على أن هذا النوع نادر فى اللغة العربية وإنما الكثرة الغالبة من الكلام العربى تتكون من مجاميع من المقاطع ، كل مجموعة لا تكاد تزيد على أربعة مقاطع . واللغة العربية تميل عادة فى مقاطعها إلى المقاطع الساكنة وهى التى تنتهى بصوت ساكن ، ويقل فيها توالى المقاطع المتحركة ، خصوصاً حين تشتمل على أصوات لين قصيرة .

واللغات بصفة عامة تتباين فى ميلها إلى نوع خاص من المقاطع . فمن لغات وسط أفريقيا [1] ما ينفر من المقاطع الساكنة ، ويؤثر المتحركة عليها ، ولكن اللغة العربية رغم إيثارها المقاطع الساكنة قد اشتملت على النوعين : الساكن والمتحرك .

وقد أشار النحاة من القدماء إلى ميل اللغة العربية إلى المقاطع الساكنة ، حين قرروا استحالة اجتماع أربعة متحركات فى الكلمة الواحدة ، وكراهته ، فيما هو كالكلمة . ومعنى قولهم هذا كما يعبر عنه المحدثون أن اللسان العربى ينفر من توالى أربعة مقاطع متحركة فيما هو كالكلمة ؛ ولكنهم أباحوا توالى أربعة مقاطع ساكنة فيما هو كالكلمة إذ نقول « استفهمتم » .

وأنواع النسج فى المقاطع العربية خمسة فقط هى :

open:
١ ـ صوت ساكن + صوت لين قصير .
٢ ـ صوت ساكن + صوت لين طويل .

closed:
٣ ـ صوت ساكن + صوت لين قصير + صوت ساكن .
٤ ـ صوت ساكن + صوت لين طويل + صوت ساكن .
٥ ـ صوت ساكن + صوت لين قصير + صوتان ساكنان .

ورغم أن أنواع النسج الممكن تكونها من الأصوات الثلاثة « الصوت الساكن وصوت اللين القصير وصوت اللين الطويل » كثيرة جداً ، فإن كل ما عدا الأنواع السابقة لا يعد نسجاً عربياً لمقاطع اللغة العربية. وتقتصر اللغات البشرية عادة على بعض أنواع النسج الممكن تكوينها من الأصوات الثلاثة .

ففى الفعل الماضى الثلاثى مثل « كتب » تتوالى ثلاثة مقاطع من النوع

(١) أنظر صفحة ٥٦ من كتاب (لغات أفريقيا) مجموعة لغات الباتنو .

الأول ، أما مضارعه « يَكتبُ » فيتكون من مقطع من النوع الثالث مضافة إليه مقطعان من النوع الأول .

والفعل الماضى الأجوف مثل « قال » يتكون من مقطعين أولهما من النوع الثانى وثانيهما من النوع الأول .

والأنواع الثلاثة الأولى من المقاطع العربية هى الشائعة وهى التى تكون الكثرة الغالبة من الكلام العربى، أما النوعان الأخيران أى الرابع والخامس فقليلا الشيوع ، ولا يكونان إلا فى أواخر الكلمات وحين الوقف . فحين نقف على كلمة « نستعين » فى قوله تعالى « إياك نعبد وإياك نستعين » تتكون الكلمة حينئذ من ثلاثة مقاطع : أولها مقطع من النوع الثالث ، وثانيهما من النوع الأول وثالثها من النوع الرابع . وكذلك حين نقف على كلمة « المستقر » فى قوله تعالى « إلى ربك يومئذ المستقر » ، تكون هذه الكلمة مكونة من أربعة مقاطع أولها وثانيها من النوع الثالث ، وثالثها من النوع الأول، ورابعها من النوع الخامس .

على أن هناك من المقاطع ما يعادل النوعين الرابع والخامس فى زمن النطق بهما أو ربما أكثر ، وقد تقع هذه المقاطع غير متطرفة أى فى أول الكلمة أو وسطها وذلك حين يكون بعد حرف المدّ صوتان ساكنان كما فى « ولا الضالين » ، أو يكون بعده همزة كما فى « يشاءون » ، وهنا نرى أصحاب القراءات يطيلون ألف المد فى الضالين بحيث تعادل فى زمن النطق بها صوت اللين الطويل مضافاً إليه صوت ساكن ؛ بل منهم من يطيلها فوق هذا القدر ، وعلى هذا تكون كلمة « ضالين » مكونة من مقطعين هما ضال + لين :

ونلاحظ أن المقطع الأول تكون من أصوات ثلاثة :

صوت ساكن + صوت لين طويل + صوت ساكن .

وهذا نوع من المقاطع نادر الوجود فى النثر العربى ، ولا وجود له فى الشعر ، لأنه هنا فى أول الكلمة ، وهذا النوع يكون عادة فى نهاية الكلمة .

أما فى كلمة « يشاءون » فنلحظ أنها فى القراءات يكون المقطع الثانى فيها وهو « شاء » مكونا مما يعادل :

صوت ساكن + صوت لين طويل + صوت ساكن .

وهذا هو ما يعادل المقطع الرابع الذى ألفناه عادة متطرفا وفى حالة الوقف .

ولكن مثل هاتين الحالتين مقصور على القراءة القرآنية ، ولذلك نؤثر المرور بهما مراً سريعاً فى حديثنا عن المقاطع العربية .

وتوالى المقاطع من النوع الأول أو من النوع الثالث جائز مستساغ فى الكلام العربى ، وإن كانت اللغة العربية فى تطورها تميل إلى التخلص من توالى النوع الأول . أما توالى النوع الثانى فهو مقيد غير مألوف فى الكلام العربى ، ولا يسمح الكلام العربى بتوالى أكثر من اثنين من هذا النوع .

وإذا نظرنا إلى الكلمات العربية ، الأسماء منها والأفعال ، نجد أن أوزان المشتق من الأسماء والأفعال محصورة ، أجمع عليها النحاة ، وتلك هى التى سنحاول البحث فى مقاطعها هنا . أما أوزان الاسم الجامد فكثيرة جداً لا تكاد تقع تحت حصر ، ومن الخير ألا نعرض لها هنا .

فالكلمة المشتقة فى اللغة العربية ، اسما كانت أو فعلا ، حين تكون مجردة

من اللواحق والسوابق (كالضمائر وال المعرفة) لا تكاد تزيد على أربعة مقاطع ، ويندر أن نجدها تتكون من خمسة مقاطع مثل « يتعلمُ » « يتسابقُ » ، فنسج الكلمة الأولى من هذين المثالين هو :

مقطعان من النوع الأول + مقطع من النوع الثالث + مقطعان من النوع الأول .

أما نسج الكلمة الثانية فهو :

مقطعان من النوع الأول + مقطع من النوع الثانى + مقطعان من النوع الأول .

وكذلك الأسماء المشتقة من هذين الفعلين قد تتكون من خمسة مقاطع مثل « متعلمٌ » ومتسابقٌ »، ولكن لندرة هذا النوع من الكلمات سنفرض هنا أن كلمات اللغة العربية لاتزيد على أربعة مقاطع .

وحين نستعرض نسج الكلمات العربية ذات الثلاثة أو الأربعة المقاطع نجد أشكال النسج قليلة ، إذا قيست بما يمكن أن يتكون من تلك المقاطع العربية التى أشرنا إليه آنفاً .

والنوع الرابع والخامس من المقاطع فى اللغة العربية محدودة الاستعمال لانراه إلا متطرفا ، وفى بعض حالات الوقف ، أما الأنواع الثلاثة الأولى فهي التي يتكون منها نسج الكلمة العربيةفى الكلام المتصل . وقد تقع تلك الأنواع الثلاثةفى أول الكلمة أو وسطها أو آخرها ، فليس منها مايختص بموضع ما من الكلمة .

وإذا نظرنا إلى الكلمات العربية التي تكونت فعلا من تلك المقاطع الثلاثة الأولى وجدنا أشكال نسجها محدودة . لأن أشكال النسج التى يمكن أن تتكون للكلمات ذات الثلاثة أو الأربعة المقاطع ، ومن الأنواع الثلاثة

الأولى للمقاطع ، تجاوز المائة ، فى حين أن المستعمل فعلا فى اللغة لا يكاد يجاوز ربع هذا العدد . إذ لدينا أنواع ثلاثة من المقاطع هى :

١ — صوت ساكن + صوت لين قصير .

٢ — صوت ساكن + صوت لين طويل .

٣ — صوت ساكن + صوت لين قصير + صوت ساكن .

ومن هذه الأنواع الثلاثة يمكن أن نكون أشكالا مختلفة لنسج الكلمة العربية ، مراعين أن بعض الكلمات يشتمل على ثلاثة مقاطع ، والبعض الآخر يشتمل على أربعة . فبعملية رياضية بسيطة نستطيع أن نعرف الأشكال الممكنة لنسج الكلمة . ولكن هناك فرقاً بين ما هو ممكن عقلا وماهو واقعى نراه فعلا مستعملا فى لغتنا . فقد يكون نسج الكلمة العربية ذات المقاطع الثلاثة مثلا :

مقطع من النوع الثالث + مقطع من النوع الثانى + مقطع من النوع الأول .

والكلمات التى تتبع هذا النسج كثيرة (يرتاعُ . يختارُ . يمتازُ) إلخ كما قد يكون النسج مثل :

مقطع من النوع الأول + مقطع من النوع الثانى + مقطع من النوع الثالث .

وكلمات هذا النسج أمثال (منادٍ . معادٍ . محيطٌ) إلخ

كذلك قد يكون النسج مثل :

مقطع من النوع الثانى + مقطعان من النوع الأول .

وكلمات هذا النسج أمثال (قاتلَ ، بايعَ) إلخ .

أما الكلمات ذات المقاطع الأربعة ، فقد يكون نسجها مثلا :

مقطع من النوع الأول + مقطع من النوع الثالث + مقطعان من النوع الأول .

وكلمات هذا النسج أمثال (يفهِّمُ ، يقدّمُ ، يدحرجُ) إلخ .

تلك هى أمثلة من أنواع النسج للكلمات العربية التى نراها مستعملة فعلا .

ومعرفتنا لأنواع النسج المستعملة فى اللغة ، يسهل علينا الحكم على نسج الكلمة العربية ، ونسج ماليس بعربى من الكلمات . ويضيق المقام هنا عن ذكر كل أنواع النسج المستعملة فعلا فى اللغة العربية ، ولكن استخراجها من كلمات اللغة أمر ليس بالعسير ، والمرء حين يعرفها يستطيع الحكم بمجرد النظر على أن مثل النسج التالى غير عربى :

مقطع من النوع الثالث + مقطعان من النوع الثانى .

وكذلك النسج الآتى غير عربى :

مقطع من النوع الثانى + مقطعان من النوع الثالث .

فالكلمات التى نراها على مثل هذين النسجين نحكم على أنها أجنبية عن لغتنا .

هذه هى أهمية معرفة نسج الكلمة العربية ، لأن اللغات بصفة عامة تختلف اختلافاً بيناً فى نسج كلماتها .

وليس من نسيج المقاطع العربية هذا النوع :

صوتان ساكنان + صوت لين قصير + صوت ساكن .

فإذا اشتملت كلمة على مثل هذا المقطع ، أمكن الحكم بسهولة على أنها غير عربية . ونلحظ هذا المقطع فى مثل الكلمة الإنجليزية (congratulation) ؛ فى حين أن نسيج الكلمة الإنجليزية (dictation) يوافق النسج العربى فى مثل « مرتاعٌ . مستاءٌ » ، لأن مثل هذه الكلمات يتكون من المقاطع الآتية : مقطع من النوع الثالث + مقطع من النوع الثانى + مقطع من النوع الثالث .

(٣)

النبر (Stress)

النبر هو نشاط فى جميع أعضاء النطق فى وقت واحد . فعنـد النطق بمقطع منبور ، نلحظ أن جميع أعضاء النطق تنشط غاية النشاط ؛ إذ تنشط عضلات الرئتين نشاطاً كبيراً ، كما تقوى حركات الوترين الصوتيين ويقتربان أحدهما من الآخر ليسمحا بتسرب أقل مقدار من الهواء ، فتعظم لذلك سعة الذبذبات . ويترتب عليه أن يصبح الصوت عالياً واضحاً فى السمع . هذا فى حالة الأصوات المجهورة ؛ أما مع الأصوات المهموسة فيبتعد الوتران الصوتيان أحدهما عن الآخر أكثر من ابتعادهما مع الصوت المهموس غير المنبور . وبذلك يتسرب مقدار أكبر من الهواء .

وكذلك يلاحظ مع الصوت المنبور نشاط فى أعضاء النطق الأخرى ،

كأقصى الحنك واللسان والشفتين . ولكنا حين النطق بالصوت غير المنبور ، نلحظ فتوراً فى أعضاء النطق . فالمسافة بين الوترين الصوتيين مع المجهورات تتسع نسبياً ، وبذلك يقل ضغط الهواء فى أثناء تسربه ، وتقل سعة الذبذبات ، كما نلحظ أن تلك المسافة مع المهموسات لا تكون من الاتساع بحيث تسمح بمرور قدر كبير من الهواء . وكذلك تفتر باقى أعضاء النطق ، فلا يسد أقصى الحنك الفراغ الأنفى سداً محكما ، كما يحدث مع الصوت المنبور ، وكذلك نلحظ أن الوضع اللسانى يكون أقل دقة وإحكاماً ، ويضعف نشاط الحركة فى الشفتين . ويترتب على كل هذا التحول فى عضلات النطق ، أن يقل وضوح الصوت فى السمع ، وينخفض الصوت فيصعب تمييزه من مسافة عندها يمكن تمييز الصوت المنبور .

والمرء حين ينطق بلغته ، يميل عادة إلى الضغط على مقطع خاص من كل كلمة ، ليجعله بارزاً أوضح فى السمع من غيره من مقاطع الكلمة . وهذا الضغط هو الذى نسميه بالنبر .

واللغات تختلف عادة فى موضع النبر من الكلمة ، منها ما يخضع لقانون خاص بمواضع النبر فى كلماته كالعربية والفرنسية ، ومنها ما لا يكاد يخضع لقاعدة ما فى هذا ، كالإنجليزية . فالفرنسى يضغط عادة على المقطع الأخير من كل كلمة .

ونطق اللغة لا يكون صحيحاً إلا إذا روعى فيه موضع النبر .

فالفرنسى حين ينطق بالإنجليزية يضغط على المقاطع الأخيرة من الكلمات متأثراً بعاداته اللغوية ، فتنفر الأذن الإنجليزية من نطقه الذى تشوبه لهجة أجنبية قد تؤدى إلى اضطراب فى الفهم . لأن بعض الكلمات الإنجليزية يختلف استعمالها باختلاف موضع النبر فيها . فأمثال الكلمات

الإنجليزية Torment ، Augment لايفرق بينها حين تستعمل فعلا أو اسما إلا اختلاف موضع النبر .

وليس لدينا من دليل يهدينا إلى موضع النبر فى اللغة العربية ، كما كان ينطق بها فى العصور الإسلامية الأولى ، إذ لم يتعرض له أحـــد من المؤلفين القدماء .

أما كما ينطق بها القراء الآن فى مصر ، فلها قانون تخضع له ولاتـكاد تشذ عنه . ويمـكن أن يلخص هذا القانون فى أنه لمعرفة موضع النبر من الـكلمة العربية ، نبدأ أولا بالنظر إلى المقطع الأخير ، فإذا وجدناه من النوع الرابع أو الخامس ، فهو إذن المقطع الهام الذى يحمل النبر ، ولا يـكون هذا كما أشرت آنفاً إلا فى حالة الوقف . فالنبر فى الـكلمة العربية لا يـكون على المقطع الأخير إلا فى حالة الوقف وحين يـكون المقطع الأخير من النوع الرابع أو الخامس ، أى عبارة عن :

صوت ساكن + صوت لين طويل + صوت ساكن

أو

صوت ساكن + صوت لين قصير + صوتان ساكنان .

ففى الوقف على « نستعين » فى قوله تعالى « إياك نعبد وإياك نستعين » أو على « المستقر » فى قوله تعالى « إلى ربك يومئذ المستقر » نجد النبر على المقطعين « عين » ، « قرّ » .

أما إذا وجدنا الـكلمة لاتنتهى بهذين النوعين من المقاطع ، كان النبر على المقطع الذى قبل الأخير ، بشرط ألا يكون هذا المقطع من النوع الأول ومسبوقاً بمثله من النوع الأول أيضاً .

وموضع النبر فى الكثرة الغالبة من الكلمات العربية هو المقطع الذي قبل الأخير مثل « استفهمَ » أو « ينادى » أو « قاتلَ » أو « يكتبُ » . ففى المثالين الأخيرين رغم أن المقطع الذى قبل الأخير من النوع الأول لم يسبق بمقطع نظير له من النوع الأول أيضا .

أما فى الفعل الماضى الثلاثى مثل « كتبَ ، فرحَ ، صعبَ » فالنبر يكون على المقطع الثالث حين تعد المقاطع من آخر الكلمة ، أى على (كَ فَ صَ) .
وكذلك فى الكلمات أمثال « اجتمعَ انكسرَ » ، أو أمثال المصادر « لعبٌ . فرحٌ » ، أو الأسماء« عنبٌ . بلحٌ » نجد النبر على المقطع الثالث حين نعد من آخر الكلمة .

وهنالك موضع رابع للنبر العربى ، وإن كان نادرا ، وهو حين تكون المقاطع الثلاثة التى قبل الأخير فى الكلمة من النوع الأول ، مثل« بلحةٌ . عربةٌ . حركةٌ » ففى هذه الحالة يكون النبر على المقطع الرابع حين نعد مقاطع الكلمة من الآخر ، أى على (بَ . عَ . حَ) .

فالنبر العربى أربعة مواضع أشهرها وأكثرها شيوعا المقطع الذى قبل الأخير .
ويمكن أن نلخص تلك المواضع كما يلى :

لمعرفة موضع النبر فى الكلمة العربية ، ينظر أولا إلى المقطع الأخير فإذا كان من النوعين الرابع والخامس ، كان هو موضع النبر، وإلا نظر إلى المقطع الذى قبل الأخير فإن كان من النوع الثانى أو الثالث ، حكمنا بأنه موضع النبر ، أما إذا كان من النوع الأول ، نظر إلى ما قبله فإن كان مثله أى من النوع الأول أيضا ، كان النبر على هذا المقطع الثالث حين نعد من آخر الكلمة .
ولا يكون النبر على المقطع الرابع حين نعد من الآخر إلا فى حالة واحدة وهى أن تكون المقاطع الثلاثة التى قبل الأخير من النوع الأول .

هذه هى مواضع النبر العربى ، كما يلتزمها مجيدو القراءات القرآنية فى القاهرة .

أما مواضع النبر فى اللهجات الحديثة الأخرى فقد تخضع لقوانين أخرى لا محل لذكرها هنا . فنحن مثلا نلحظ بين أهالى الصعيد من يختلفون عن القاهريين فى موضع النبر أحيانا . فهم حتى فى قراءة القرآن الكريم يميلون إلى الضغط على المقطع الثالث حين نعد المقاطع من الآخر متى كان المقطع الذى قبل الأخير من النوع الأول. ويظهر الفرق بينهم وبين القاهريين فى نبر أمثال « ربنا. عملهم » إذ نلحظ أن القاهريين ومعظم سكان الوجه البحرى يضغطون على ما قبل الأخير فى الكلمة الأولى أى على (بَ) ويضغطون على (عَ) فى الكلمة الثانيه ، أما أهل الصعيد فيضغطون على المقطع (ر بْ) فى الكلمة الأولى ، وعلى المقطع « مَ » فى الكلمة الثانية.

ولزيادة الإيضاح نقول إن الصعيدى متى كانت الكلمة غير مختتمة بمقطع من النوعين الرابع والخامس وكان مقطعها الذى قبل الأخير من النوع الأول انتقل بالضغط فوراً إلى الثالث حين نعد من الوراء دون نظر أو رعاية لأى شىء آخر .

أما القاهرى وأمثاله فلاينتقلون هنا بالضغط إلا حين يكون المقطعان (ماقبل الأخير وما سبقه) من النوع الأول . ولا يكاد الصعيدى يبتعـد بالضغط عن المقطع الثالث حين نعد من نهاية الكلمة ، ولكن القاهرى فى مثل (بلحةٌ) يرجع بالضغط إلى الوراء حتى يصل إلى المقطع الرابع وهو (بَ) .

ويجب الا نتصور أن مثل هذه العملية تتم مع الشعور بها فى أثناء

الـكلام ، فما هى إلا إحدى العادات اللغوية التى درجنا عليها وأصبحت لنا بمثابة السليقة ...

ولحسن الحظ لاتختلف معانى الـكلمات العربية ولا استعمالها باختلاف موضع النبر منها .

هذا هو مايمكن أن يسمى بنبر الـكلمات . وهناك نوع آخر من النبر يسمى نبر الجمل ، وهو أن يعمد المتـكلم إلى كلمة فى جملته فيزيد من نبرها ويميزها على غيرها من كلمات الجملة ، رغبة منـه فى تأكيدها أو الإشارة إلى غرض خاص ، وقد يختلف الغرض من الجملة تبعاً لاختلاف الـكلمة المختصة بزيادة نبرها . ونبر الجملة شائع فى كثير من اللغات . ففى جملة عربية مثل (هل سافر أخوك أمس ؟) يختلف الغرض منها باختلاف الـكلمة التى زيد نبرها . فحين نزيد نبر كلمة « سافر » فى هذه الجملة ، قد يكون معناها أن المتـكلم يشك فى حدوث السفر من أخى السامع ، ويظن أن حدثاً آخر غير السفر هو الذى تم . فإذا ضغط المتـكلم على كلمة (أخوك) فهم من الجملة أن المتـكلم لايشك فى حدوث السفر وإنما الذى يشك فيه هو فاعل السفر ، فربما كان أباه أو عمه أو صديقه لاأخاه . وأخيراً إذا زيد نبر كلمة «أمس» فهم من الجملة أن الشك فى تاريخ السفر .

وزيادة نبر الـكلمة فى الجملة ، لايعدو أن يكون زيادة فى المقطع المهم من هذه الـكلمة . ففى كلمة مثل (أخوك) ، نعلم من القواعد السابقة أن المقطع المنبور هو (خو) ؛ فإذا زيد نبر هذه الـكلمة فى جملتها فليس المقصود بهذا سوى زيادة نبر هذا المقطع (خو) ، ليصبح أوضح فى السمع مما كان .

والنبر بنوعيه ليس إلا شدة فى الصوت أو ارتفاعا فيه : وتلك الشدة

أو الارتفاع يتوقف على نسبة ضغط الهواء المندفع من الرئتين ، ولا علاقة له بدرجة الصوت أو نغمته الموسيقية .

(٤)

موسيقى الكلام (Intonation)

برهنت التجارب الحديثة على أن الإنسان حين ينطق بلغته لايتبع درجة صوتية[1] واحدة في النطق بجميع الأصوات ، فالأصوات التي يتكون منها المقطع الواحد قد تختلف في درجة الصوت وكذلك الكلمات قد تختلف فيها ، ومن اللغات مايجعل لاختلاف درجة الصوت أهمية كبرى ، إذ تختلف فيها معاني الكلمات تبعاً لاختلاف درجة الصوت حين النطق بها . ومن أشهر هذه اللغات اللغة الصينية ، إذ قد تؤدى فيها الكلمة الواحدة عدة معان ، ويتوقف كل معنى من هذه المعاني على درجة الصوت حين النطق بالكلمة . ويمكن أن نسمي نظام توالي درجات الصوت بالنغمة الموسيقية . ففي اللغة الصينية كلمة (فان) ، تؤدى ستة معان لاعلاقة بينها هي : (نوم . يحرق . شجاع . واجب . يقسم ، مسحوق) ، وليس هناك من فرق سوى النغمة الموسيقية في كل حالة .

والتسلسل الذي نلحظه في درجة الصوت يخضع لنظام خاص يختلف من لغة إلى أخرى . ولابد من معرفة هذا النظام في اللغة التي يراد تعلمها ، وإلا فقد الكلام صبغته الخاصة ، وبعد عن النطق الطبيعي الخاص بكل لغة .

والبحث عن نظام درجات الصوت وتسلسله في الكلام العربي ، يحتاج إلى عون خاص من الموسيقيين عندنا .

---

1) Pitch

ولسوء الحظ حتى الآن لم يهتد موسيقيونا الى السلم الموسيقى فى غنائنا ، أو بعبارة أخرى لم يتفقوا عليه . لهذا نؤثر ترك الحديث عن موسيقى الكلام العربى إلى مجال آخر ، عسى أن تكفل لنا البحوث المستقبلة القيام بهذا .

(٥)

انتقال النبر

قد يطرأ على الكلمة من الأحكام اللغوية مايستوجب انتقال النبر من موضعه إلى مقطع قبله ، أو آخر بعده من الكلمة .

فاشتقاق كلمة من أخرى قد يؤدى إلى تغير موضع النبر . فالفعل الماضى (كتبَ) يحمل النبر على المقطع (كَ) فإذا جئنا بالمضارع (يكتبُ) لاحظنا أن النبر قد انتقل إلى المقطع الذى يليه وهو (تُ) ، وكذلك إذا اشتققنا من المصدر (انكسار) فعلا ماضياً مثل (انكسرَ) نلحظ أن النبر ينتقل إلى المقطع الذى قبله ؛ لأنه فى الكلمة الأولى على المقطع (سا) ؛ وفى الثانية على المقطع (كَ) .

وقد يطرأ على الكلمة من العوامل اللغوية مايستوجب أيضاً انتقال النبر من موضعه ، ويلاحظ هذا بصفة خاصة مع أدوات الجزم . فالنبر فى الفعل (يكتبُ) على المقطع (تُ) ؛ فإذا جزم الفعل انتقل النبر إلى المقطع الذى قبله وهو (يَكْ) .

كذلك نلحظ انتقال النبر حين يسند الفعل إلى الضمائر ؛ أو حين يتصل بالكلمة ضمائر النصب أو الجر ؛ على شريطة أن يغير كل هذا من نسج الكلمة الأصلية : فالنبر فى الفعل الماضى (كتبَ) على المقطع (كَ) ، فاذا

أسند إلى معظم ضمائر الرفع المتصلة ؛ انتقل إلى المقطع الذى يليـه . ففى « كتبتُ » أو « كتبنا » نجد النبر فوق (تبْ) ؛ ولـكنه يبقى فى مكانه فى حالة الإسناد إلى واو الجماعة مثل (كتبوا) ؛ وكذلك المصدر (استفهامٌ) إذا اتصل بالضمير « نا » فأصبح « استفهامنا » انتقل النبر من المقطع « ها » إلى المقطع « مُ » .

ونلحظ فى كل هذا أن انتقال النبر لايتجاوز مقطعاً واحداً . على أنه فى بعض الأحيان قد ينتقل النبر مقطعين ؛ ففى إسناد الفعل الماضى « سمع » إلى جماعة المخاطبات يصبح « سمعتُنّ » ؛ فينتقل النبر من (سَ) إلى (تنْ) مجاوزا فى انتقاله مقطعين . ولا يكاد يجاوز النبر فى تنقله أكثر من مقطعين . والقاعدة التى نعرف بها موضع النبر والتى سبق شرحها هى هى فى كل الحالات مهما أصاب الـكلمة من تغير فى نسجها .

الفصل السابع

– ١ –

المماثلة (Assimilaiton)

تتأثر الأصوات اللغوية بعضها ببعض فى المتصل من الكلام. فحين ينطق المرء بلغته نطقا طبيعيا لا تكلف فيـــه ، نلحظ أن أصوات الكلمة الواحدة قد يؤثر بعضها فى البعض الآخر ، كما نلحظ أن اتصال الكلمات فى النطق المتواصل قد يخضع أيضاً لهذا التأثر . على أن نسبة التأثر تختلف من صوت إلى آخر . فمن الأصوات ما هو سريع التأثر يندمج فى غيره أكثر مما قد يطرأ على سواه من الأصوات . ومجاورة الأصوات بعضها لبعض فى الكلام المتصل ، هى السر فيما قد يصيب بعض الأصوات من تأثر .

والأصوات فى تأثرها تهـــدف إلى نوع من المماثلة أو المشابهة بينها ، ليزداد مع مجاورتها قربها فى الصفات أو المخارج . ويمكن أن يسمى هذا التأثر بالانسجام الصوتى بين أصوات اللغة . وهذه ظاهرة شائعة فى كل اللغات بصفة عامة ؛ غير أن اللغات تختلف فى نسبة التأثر وفى نوعه .

واللغة العربية فى تطورها إلى لهجات الكلام الحديثة ، مالت ميلا كبيراً إلى هذا التأثر ، إذ نلحظ فى اللهجات الحديثة ظواهر مختلفة لتأثر أصوات الكلام بعضها ببعض فى أثناء النطق .

وقد تكوّن لهذا فى هذه اللهجات قوانين خاصة بتأثر الأصوات وميلها إلى الانسجام مع مايجاورها ، ممـــا أدى إلى تطور فى النطق ببعض أصوات اللغة الفصيحة .

وقد فطن القراء منذ القدم لذلك ، وخشوا أن يصيب النطق القرآنى شيء

من التغيير الصوتى ، فعنـــوا بوصف كل صوت عربى وصفاً دقيقاً ، واستذكروا ماشاع فى لهجات الكلام من انحراف عن النطق الصحيح للصوت العربى .

فلحرصهم على الأصوات الشديدة المجهورة ، التى تعرضت للهمس فى بعض اللهجات الكلامية ، سموها أصوات القلقة ، وقلقلوها فى نطقهم ليأمنوا بهذا من همسها . فالقلقلة ليست فى الحقيقة إلا مبالغة فى الجهر بالصوت ، لئلا تشوبه شائبة من همس كما شاع فى لهجات الكلام ، ولكن رغم هذا الحرص الشديد قد تطورت بعض أصوات القلقلة ، فأصبحت لاتسمع فى قراءتنا الآن إلا مهموسة ، ومثل هذه « القاف » و « الطاء »[1].

والقراء فى كتبهم قد حذروا المتعلمين من الزلل فى النطق بالأصوات العربية ، وأبانوا لهم الأخطاء الشائعة فى لهجات الكلام . ومن ذلك مانقرؤه فى كتاب النشر فى القراءات العشر لابن الجزرى صفحة ٢٢٠ جزء أول، إذ يحذر المتعلمين من تفخيم « الباء » إذا كان بعدها صوت مفخم نحو « بطل » . كما أشار إلى وجوب العناية بالتاء ، لأن بعض الناس ينطقون بها رخوة فتصير نوعاً من « السين » ، وإلى العناية بنطق الجيم لأن أهل الشام ينطقون بها كثيرة التعطيش ، وفى مصر وبعض بوادى اليمن ينطق بها كمجهور الكاف (وهى الجيم القاهرية) ، وكذلك تميل الجيم المشكلة بالسكون إلى قلبها « شيناً » إذا وليها صوت مهموس كما فى « اجتمعوا » .

كما روى أن بعض النبط ينطقون بالذال « دالا » ، وبعض العجم ينطقون بها « زايا » ، هـــذا إلى أن بعض الأعراب ينطقون بالقاف « كافاً » صماء[2] .

---

(١) فى النطق القديم لهما .

(٢) لعله يريد بهذا كالجيم القاهرية .

هذا بعض ماأورده ابن الجزرى ، محذراً منه المتعلمين ليجتنبوا ماشاع فى لهجات الـكلام من الانحراف فى نطق بعض الأصوات العربية . ويستدل من هذه الإشارة أن بعض الأصوات العربية كان قد أصابها شىء من التطور فى القرن الثامن الهجرى عصر ابن الجزرى ، بله العصور الحديثة التى ازداد فيها تطور الأصوات وتأثرها بعضها ببعض .

والمحدثون من علماء الأصوات اللغوية قرروا أنه قد يتجاور صوتان لغويان ويتأثر الأول منهما بالثانى ، واصطلحوا على تسمية هذا النوع من التأثر بالرجعى regressive .

وأحياناً يتأثر الصوت الثانى بالأول وسموا هذا بالتأثر التقدمى Progressive

فتأثر الأصوات المتجاورة بعضها ببعض نوعان :

رجعى : وفيه يتأثر الصوت الأول بالثانى . وهذا النوع كثير الشيوع فى اللغة الفرنسية والعربية أيضاً .

تقدمى : وفيه يتأثر الصوت الثانى بالأول وهو الشائع فى اللغة الانجليزية كما أنه قد يوجد أيضاً فى اللغة العربية.

والإبدال القياسى الذى يشير إليه النحاة دائماً فى صيغة « افتعل » حين تـكون فاؤها « دالا » ، « ذالا » ، أو « زايا » ، أو أحد أصوات الأطباق، يتضمن نوعى التأثر الرجعى والتقدمى .

فصياغة « افتعل » من (دعا . ذكر . زاد) هى فى الأصل ، (ادْتعى اذْتـكر . ازْتاد) ، فاجتمع فى كل من هذه المثل صوتان متجاوران : الأول منها مجهورَ والثانى مهموس ، فتأثر الثانى بالأول وانقلب إلى صوت مجهور أيضاً ليجتمع صوتان مهجوران • ولأن التاء المهموسة حين يجهر بها تصير « دالا » أصبحت هذه المثل :

ادّعى . اذدكر . ازداد

وهذا تأثر تقدمى لأن الثانى تأثر بالأول . على أنه قد أصاب الكلمتين الأخيرتين تطور آخر ، إذ صارتا فى بعض الأحيان (اذّكر . ازّاد) ، ففنى الصوت الثانى فى الأول ونطق بهما صوتاً واحداً كالأول ، وهذا التأثر تقدمى أيضاً، غير أن الشائع الكثير الاستعمال فى « اذّكر » هو « ادّكر » ، أى أن الصوت الأول قد فنى فى الصوت الثانى ، وبذلك صار التأثر رجعياً .

وكذلك حين تكون فاء « افتعل » أحد أصوات الإطباق نجد التأثر فى معظم الأحيان تقدمياً ، وقد يكون رجعياً أيضاً .

فمثلا حين نصوغ « افتعل » من « ظلم » نجد الصيغة فى الأصل « اظتلم » وقد اجتمع فى هذا المثال صوتان متجاوران ، الأول منهما مجهور مطبق ، وقد أثر فى الثانى فجعله مجهوراً مطبقا مثله ، فوجب إذن أن تصبح التاء «ضاداً» كالتى ننطق بها الآن . وهذه الضاد الحديثة هى التى سماها القدماء « طاء »[1] فلا غرابة أن روى لنا القدماء هذه الصيغة بعد تأثرها « اظطلم » ، ولعلهم كانوا ينطقون بها « اظضلم » ، وهذا مثل آخر للتأثر التقدمى . ثم زاد هذا التأثر حتى فنى الصوت الثانى فى الأول فصارت الكلمة « اظّلم » . على أنه قد رويت الكلمة (اطّلم) أيضا أى أن الصوت الأول فنى فى الثانى وهو تأثر رجعى . ومثل هذا يمكن أن يقال حين نصوغ (افتعل) من (ضرب) ، إذ تصير الكلمة أولا (اضترب) فيؤثر الصوت الأول فى الثانى ليصبح مثله مجهوراً مطبقا ، وبهذا يجتمع فى الكلمة نوعان من الضاد : أولاهما هى الضاد القديمة والثانية هى الضاد الحديثة التى كان يكتبها القدماء (طاء) أى (اضطرب) . وقد يزداد تأثر الثانى بالأول فتصير الكلمة (اضّطرب) .

---

(١) على حسب النطق القديم .

وهو تأثر تقدمى ، ولا يجوز غيره فى هذه الصيغة . أما حين نصوغ « افتعل » من « صبر » ، فنجد الصيغة أولا « اصتبر » ، وقد اجتمع فى هذه الكلمة صوتان مهموسان ، غير أن أحدهما مطبق والآخر مستقل فقلبت التاء إلى نظيرها المطبق وهو الطاء الحديثة كما ننطق بها الآن، ومن أجل هذا صارت الكلمة «اصطبر»، ثم زاد تأثر الثانى بالأول فأصبحت الكلمة « اصّبر» ولا يجوز فيها غير هذا .

(٢)
درجات التأثر

الأصوات المتجاورة تختلف فى نسبة تأثرها بعضها ببعض ، فقد لا يعدو التأثر أن يكون مجرد انقلاب الصوت من الجهر إلى الهمس أو العكس . وأقصى ما يصل إليه الصوت فى تأثره بما يجاوره أن يفنى فى الصوت المجاور ، فلا يترك له أثراً . وفناء الصوت فى صوت آخر هو ما اصطلح القدماء على تسميته بالإدغام .

وتأثر الأصوات اللغوية بعضها ببعض ليس مقصوراً على الأصوات الساكنة، بل قد يكون أيضاً فى أصوات اللين وهو ما يسمى بانسجام أصوات اللين Vowel harmony ، غير أنا هنا سنكتفى بشرح التأثر ونسبته فى الأصوات الساكنة ، لوضوح التأثر فيها وضوحاً لا يدع مجالا للشك .

ويمكن أن نقسم درجات التأثر ونسبته إلى الموضوعات الآتية :

١ ــ الجهر والهمس :

إذا التقى صوت مهموس بصوت مجهور ، فقد يقلب أحدهما إلى نظير الآخر ، بحيث يتكون منهما صوتان مهموسان أو مجهوران ، فحين نصوغ « افتعل » من فعل فاؤه صوت مجهور ، نلحظ أن « تاء » افتعل المهموسة

تقلب أحياناً إلى نظيرها المجهور وهو الدال؛ ليجتمع فى الصيغة صوتان مجهوران. هذا هو السر فيما يحدث فى الأفعال التى فاؤها (دال . ذال . زاى) حين نصوغ منها « افتعل » لأن كلا من (الدال . والذال . الزاى) صوت مجهور . وليس الأمر مقصوراً على الأفعال التى فاؤها (دال . ذال . زاى) ؛ بل إن القاعدة يمكن أن تطرد فى كل فعل فاؤه صوت مجهور ؛ فلو أمكن أن نصوغ افتعل من فعل مثل « بعث » الذى يبدأ بصوت مجهور ، لكان من الجائز المقبول أن نرى نفس هذه الظاهرة . ولهذا ذكر النحاة فى كتبهم أنه قد سمع فى « اجتمع »و« اجتزّ » ، «اجدمع » و « اجدزّ » . لأن الجيم صوت مجهور يناسبه مجهور مثله ، فقلبت التاء دالا من أجل هذا فى هذه الرواية رغم قلة شيوعها. وقد اشتملت اللغة العربية على بعض كلمات صيغتها افتعل وفاء الفعل صوت مجهور ، ومع هذا لم يتم فيها هذا التغير الصوتى مثل (اجتمع . اغتصب . امتنع) . وهذا النوع من الأفعال قد أصابه فى بعض لهجات الكلام نفس التطور الذى نحن بصدده .

والشرط الأساسى لتحقق تأثر الصوت بما يجاوره أن يكون التقاؤهما مباشراً بحيث لا يفصل بينهما أى فاصل ولو كان هذا الفاصل حركة قصيرة ، ولا يتم هذا إلا حين يكون الصوت الأول مشكلا بما يسمى السكون . فحين نصوغ افتعل من الفعل « ذكر » نجد أن التاء قد جاورت الذال مجاورة مباشرة ولكن مجاورتها فى « تذكر » غير مباشرة . ولا يتجاور فى اللغة العربية صوت مجهور مع نظيره المهموس ، فالدال لا تكاد تجاور التاء ، والزاى لا تجاور السين ، والذال لا تجاور الثاء وهكذا . فإذا اقتضت صيغة من الصيغ أن يتجاور صوت مجهور مع نظيره المهموس مجاورة مباشرة وجب أن يقلب أحدهما بحيث يصبح الصوتان إما مهموسين أو مجهورين . أما إذا التقى مجهور بغير نظيره المهموس فالغالب فى اللغة العربية ألا يتم التأثر إلا حين يختلفان اختلافاً كبيراً فى الصفة . فحين نصوغ افتعل

من الفعل « زاد » نرى أن الزاى قد جاورت التاء مجاورة مباشرة ، ولبعد ما بينهما فى الصفة يتم التأثر بقلب التاء إلى نظيرها المجهور، وهكذا تصبح الكلمة « ازداد » أى يجتمع فيها صوتان مجهوران ، وذلك لأن الزاى أقصى مراحل الرخاوة فى حين أن التاء من الأصوات الشديدة ، فالبون بينهما كبير ، ولذلك تحقق التأثر . أما فى مثل « اغتصب » فلم يتم التأثر لأن رخاوة الغين قليلة إذا قيست برخاوة الزاى . وربما كان هذا هو السر فى اقتصار التأثر المألوف فى صيغة « افتعل » على المبدوء بالزاى والدال، لأن هذين الصوتين أكثر الأصوات المجهورة رخاوة .

والغرض من مثل هذا التأثر هو التقريب بين الصوتين المتجاورين ما أمكن، تيسيراً لعملية النطق واقتصاداً فى الجهد العضلى ، فحين نصوغ افتعل من الفعل « ظلم » نجد أن الظاء قد جاورت التاء مجاورة مباشرة مع اختلافهما فى أمور ثلاث :

١ ـ الإطباق لأن الظاء مطبقة والتاء غير مطبقة
٢ ـ الظاء كثيرة الرخاوة والتاء صوت شديد
٣ ـ الظاء مجهورة والتاء مهموسة.

ولتقريب مسافة الخلف بينهما أمكن أن يصبح الفعل « اظطلم » فلما زاد التقريب بينهما فوق هذا أصبح الفعل « اظَّلم » ، وهكذا نرى أن التقريب بين الصوتين المتجاورين تختلف نسبته ، فأحياناً نراه تقريباً بينهما فى الجهر والهمس فقط ، وأحياناً نجده فى الشدة والرخاوة أيضاً .

٢ — انتقال مجرى الهواء من الفم إلى الأنف وبالعكس :

الأصوات صنفان : منها ما يتخذ الهواء مجراه حين النطق بها خلال الفم وهى الكثرة الغالبة فى اللغة العربية ، ومنها ما يتخذ الهواء معها مجراه

من الأنف كالنون والميم . وقد لاحظ المحدثون أن الصوت من النوع الأول قد ينتقل إلى نظيره من النوع الثانى ؛ تحت تأثير ظروف لغوية خاصة . فللنون نظائر بين أصوات الفم مثل الدال والتاء ، ولا فرق بين النون والدال إلا فى أن الهواء يتخذ مجراه مع الأولى خلال الأنف ، ومع الثانية خلال الفم ، أما موضع اللسان بالنسبة للحنك الأعلى مع كل منهما ، فيكاد يتحد تمام الاتحاد ، وكذلك لا فرق بين الميم والباء إلا فى أن الهواء مع الأولى يتسرب من الأنف ومع الثانية من الفم ، وشكل الشفتين مع كل منهما واحد ، هذا إذا صرفنا النظر عن صفة الشدة فى كل من الدال والباء ، وراعينا المخرج وحده .

وقد روى لنا هذا التأثر مطرداً فى بعض أحكام القراءات ، مثل اجتماع الباء مع الميم فى مثل « اركب معنا » فقد قلبت الباء ميما، أى أن صوت الفم « الباء » انتقل إلى نظيره من أصوات الأنف « الميم » . كما اجتمعت النون واللام فى « فإن لم تفعلوا » ، وقلب صوت الأنف « النون » إلى أحد نظرائه من أصوات الفم « اللام » ، لأن كلا من النون واللام من الأصوات الشبيهة بأصوات اللين كما تقدم شرح هذا .

٣ — انتقال مخرج الصوت :

من أنواع التأثر التى قد تعرض لكثير من الأصوات أن ينتقل الصوت من مخرجه الأصلى إلى مخرج آخر ، فيستبدل به أقرب الأصوات إليه فى هذا المخرج الجديد ، فإذا انتقلت التاء من مخرجها متجهة نحو أقصى الحنك ، استبدل بها الكاف التى تشركها فى الهمس والشدة، وقد روى النحاة أن« عصيتَ » أصبحت « عصيكا » فى بعض اللهجات العربية القديمة .

كما إذا انتقل مخرج الكاف متجها نحو أصول الثنايا ؛ استبدل بها التاء . ونلحظ هذا بصفة خاصة فى بعض اللهجات العربية الحديثة إذ يقول بعض المصريين : « اسكنجرية » بدلا من « اسكندرية » ، فانتقال المخرج يبرر لنا قلب الكاف تاء أو العكس . ومما روى فى أحكام القراءات موضحاً هذا ، ما أجمع القراء عليه من أن النون المشكلة بالسكون إذ وليها باء ، تقلب ميما مثل: «أنبئهم»، «من بعد» فوجود الباء فى هذا النوع من الأمثلة استلزم انتقال النون من مخرجها إلى مخرج الباء ، وترتب على هذا الانتقال أن استبدل بالنون صوت نظير لها فى المخرج الجديد ؛ وأقرب أصوات هذا المخرج الجديد إلى النون هو (الميم) لأن كلا منهما من الأصوات الشبيهة بأصوات اللين ، فضلا عن أن النون والميم صوتان أنفيان .

٤ — تغير صفة الصوت من الشدة إلى الرخاوة أو العكس :

ويصحب هذا التأثر عادة إدغام ، كما هو الحال فى بعض القراءات ، كإدغام الدال فى الذال أو الثاء فى التاء وسيأتى بيانه .

٥ — الإدغام :

قد يترتب على تجاور صوتين متجانسين أو متقاربين أن أحدهما يفنى فى الآخر ، وهو ما اصطلح على تسميته فى كتب القراءات بالإدغام . والإدغام يتم فى بعض الأحيان بحدوث أكثر من نوع من أنواع التأثر السابقة . والقراء عادة يقسمون الإدغام إلى إدغام ناقص ، فيه لا يتم فناء أحد الصوتين بل يترك الصوت بعد فنائه أثراً يشعر به كما هو الحال فى الإدغام مع الغنة ، والقراء يكادون يجمعون على أن هذا لا يكون إلا حين تلتقى النون المشكلة بالسكون (بالياء) أو (الواو) مثل (من يقول .

من وال) وقد تقدم شرح الغنة فى مثل هذا . فإذا لم نلحظ أثراً للصوت بعد فنائه سموه إدغاماً كاملا أو فناء كاملا .

والإدغام عندالقراء نوعان: إدغام صغير وهو الشائع المروى عن جمهورهم، وفيه يتحقق مجاورة الصوتين المتجانسين أو المتقاربين إذ لافاصل بينهما ، وإدغام كبير وفيه يفصل بين الصوتين المتجانسين أو المتقاربين صوت لين قصير . وينسب هذا النوع الأخير من الإدغام إلى « أبى عمرو » ، أحد القراء السبعة .

والإدغام بنوعيه عبارة عن فناء الصوت الأول فى الثانى ، بحيث ينطق بالصوتين صوتا واحدا كالثانى ، وهو لهذا تأثر رجعى . وهو جائز الوقوع فى كل صوت من أصوات اللغة العربية غير أنه نادر بين أصوات الحلق ، لأنها ليست بأصل للإدغام كما يقول (المبرد) فى « المقتضب » . ولعل السر فى إظهار النون ولام التعريف مع أصوات الحلق أن هذه الأصوات غير مستعدة بطبيعتها لفناء الأصوات فيها .

(٣)

الأمثلة القرآنية الجائز فيها الإدغام

لم ترو لنا فى القراءات أمثلة للإدغام فى كل أصوات اللغة التى يجوز الإدغام فيها ، ولكن ما روى لنا يكفى لتكوين فكرة واضحة عما يبرر إدغام صوت فى آخر فى اللغة العربية .

والأمثلة القرآنية للإدغام ، حين نستعرضها صوتاً صوتاً ، باحثين عما يمكن أن يدغم فيه كل صوت ، نلحظ أنها قد خلت من إدغام أصوات الحلق فى مجانسها أو مقاربها ، إلا مثلا واحداً أباح الإدغام فيه كثير من القراء ، وهو إدغام الحاء فى العين فى قوله تعالى: «فمنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وأُدْخِلَ الجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ(١)» . والقوانين الصوتية تبرر هذا الإدغام ، لأنه لا فرق بين الحاء والعين إلا فى أن الأولى مهموسة والثانية نظيرها المجهور . كما قد خلت تلك الأمثلة القرآنية من إدغام أصوات الإطباق فى غيرها من الأصوات ، إلا مثلا واحداً أباح إدغامه كثير من القراء ، وهو حين تلتقى الضاد مع الشين فى قوله تعالى: «فإذا استَأْذَنوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فأْذَنْ لِمنْ شِئْتَ مِنهُمْ»(٢) على أن القراء قد اختلفوا حتى فى رواية هذه الحالة المفردة . لهذا لن نحاول تبرير إدغام الضاد فى الشين من الناحية الصوتية ، لأننا غير واثقين كل الثقة من النطق الأصلى للضاد .

ويظهر أن السر فى عدم ورود أمثلة قرآنية لأصوات الإطباق مدغمة فى غيرها ، هو أن شيوع هذه الأصوات فى اللغة قليل ، وقلة شيوع الصوت تجعله أقل تعرضاً لظاهرة الفناء فى غيره . هذا إلى أن هذه الأصوات تحتاج إلى جهد عضلى كبير فى النطق بها ، مما يستلزم أنه لا بد لفنائها من الكلام ، أن يمر الصوت فى أكثر من مرحلة قبل الفناء فى غيره ، مثل الانتقال من الاستعلاء إلى الاستفال ، أو من الشدة إلى الرخاوة ، أو من الجهر إلى الهمس ، أو نحو ذلك .

---

(١) سورة آل عمران « الآية ١٨٥ » .

(٢) سورة النور « الآية ٦٢ »

ومما يستحق الذكر أن الأمثلة القرآنية قد خلت أيضاً من ذكر « الزاى » و« الشين » مدغمتين فى غيرها من الأصوات ؛ وليس لهذا ما يبرره من الناحية الصوتية سوى مجرد المصادفة .

بقى إذن أن نستعرض الأصوات التى تدغم فى مجانسها أو مقاربها ، كما رويت لنا فى الأمثلة القرآنية ، وكتب القراءات .

الباء

روت كتب القراءات أن هذا الصوت يجوز إدغامه فى الميم والفاء ، مثل : « يابُنَىَّ ارْكبْ مَعَنَا ولا تكُنْ معَ الكافرين[1] » ومثل : « وَإنْ تَعْجَبْ فَعجَبٌ قَولُهمْ أئِذَا كُنَّا تُرَابًا أئنَّا لفِى خَلْقٍ جَدِيد[2] » أما إدغام الباء فى الميم فيبرره من الناحية الصوتية أن مخرج كل منهما الشفتان ، وأنه لافرق بين الباء والميم إلا فى أن الهواء مع الأولى يتخذ مجراه من الفم ، ومع الثانية يتخذ مجراه من الأنف ، فعملية الإدغام هنا هى مجرد انتقال الصوت الأول من بين أصوات الفم ، إلى نظير له بين أصوات الأنف وقد سبق شرح هذا .

وأما إدغام الباء فى الفاء ، فأقل شيوعاً ، لأنه يستلزم أولاً قلب الباء وهى مجهورة ، إلى نظيرها المهموس وهو الصوت الشائع فى اللغات الأوربية والذى يرمز إليها بالرمز (P) ، وهو صوت شديد انفجارى ، مخرجه الشفتان ، وإذا لم ينحبس معه النفس وأصابته صفة الرخاوة بأن يسمع

---

(١) سورة هود « الآية ٤٢ » .
(٢) سورة الرعد « الآية ٥ » .

له صفير ، انقلب إلى صوت قريب الشبه جداً بالفاء ؛ لأنها رخوة مهموسة وبهذا يتم الإدغام . فعملية الإدغام هنا تبدأ أولا بهمس الباء لتشبه الفاء المهموسة ، ثم يلي هذا أن يسمح للهواء معها بالمرور ، بحيث يحدث حفيفاً أو صفيراً كشكل الأصوات الرخوة . فإذا تم هذا للباء صارت كالفاء فى كل الصفات ، مخرجاً وصفة ، وهو ما يبرر هذا النوع من الإدغام .

التاء

يدغم هذا الصوت فى عدة أصوات ، وقد روت كتب القراءات أمثلة لكل حالة . فهى تدغم إدغاماً صغيراً فى كل من الأصوات الآتية :

١ ـ « الثاء » مثل قوله تعالى « ألاَ بُعْداً لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ(١) » ، وقد تم فى هذا الإدغام عمليتان : الأولى أن نسمح للهواء مع التاء بالمرور لتصبح رخوة كالثاء ، والثانية أن مخرج الصوت الأول قد انتقل إلى الأمام متجهاً نحو مخرج الأصوات المسماة باللثوية ، وبها ماثل الصوت الأول الصوت الثانى كل المماثلة فتم الإدغام .

٢ — « الجيم » مثل قوله تعالى « كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا »[٢] وفى هذا الموضع جهر أولا بالتاء ، فصارت « دالا » ثم انتقل مخرج الدال من أصول الثنايا العليا إلى وسط الحنك ، وبهذا التقى بالجيم ، لأنها أقرب أصوات وسط الحنك إلى الدال فى الصفة و بهذا تم الإدغام .

---

(١) سورة هود « الآية ٩٥ » .
(٢) سورة النساء « الآية ٥٦ » .

٣ — « الظاء » مثل قوله تعالى : « وَمِنَ البَقَرِ والغَنمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهما[١] . وهنا جهرنا أولا بالتاء فصارت دالا ، لأن الصوت الثانى أى الظاء صوت مجهور ، ثم سمح للهواء معها بالمرور فصارت رخوة ، ثم انتقل مخرجها إلى الأصوات المسماة باللثوية ، وبهذا صارت « ذالا » ، ولا فرق بين الذال والظاء إلا فى أن الصوت الثانى من أصوات الإطباق . فالإدغام هنا له مايبرره من الناحية الصوتية .

٤ — « السين » مثل قوله تعالى : « وَجاءَتْ سَيَّارَةٌ[٢] » وكل الذى حدث فى هذا الإدغام هو أن سمحنا للهواء بالمرور مع التاء ، فأصبحت رخوة وبهذا أشبهت كل المشابهة السين فى رخاوتها وهمسها فتم الإدغام .

٥ — « الصاد » مثل قوله تعالى : « أوْ جاءُوكمْ حَصِرَتْ صدُورُهمْ[٣] » ، أصاب التاء هنا ما أصابها فى المثال السابق مع السين . فحين سمح للهواء معها بالمرور وصارت رخوة ، أشبهت السين كل المشابهة . وليس هناك فرق بين السين والصاد ، إلا فى أن الثانية مطبقة . وهكذا تم الإدغام بين التاء والصاد .

٦ — « الزاى » مثل قوله تعالى : « مَأوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً[٤] » وهنا جهر بالتاء أولا ، فصارت « دالا » لأن الزاى

---

(١) سورة الأنعام « الآية ١٤٦ » .
(٢) سوره يوسف « الآية ١٩ » .
(٣) سورة النساء « الآية ٩٠ » .
(٤) سورة الإسراء « الآية ٩٧ » .

مجهورة ، ثم سمح للهواء معها بالمرور ، فأصبحت رخوة تتحدث عند النطق بها صفيراً كالزاى ، وبذلك جاز إدغامها فى هذا الموضع .

وتدغم التاء إدغاماً كبيراً فى الأصوات الآتية :

١ — « الذال » مثل قوله تعالى : « إنّ الحَسَنَاتِ يُذهِبْنَ السيِّئاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذّاكِرِين(١) » ، سقط أولا صوت اللين الفاصل بين التاء والذال ليتم تجاور الصوتين — وكذلك يجب أن يحدث مثل هذا فى كل إدغام كبير — ثم انتقلت التاء بمخرجها إلى مخرج الأصوات المسماة باللثوية ، مع السماح للهواء بالمرور حين النطق بها لتصبح رخوة كالذال ؛ وبذلك تمت المماثلة بين التاء والذال وأدغمت الأولى فى الثانية .

٢ — « الشين » مثل قوله تعالى : « وَالذّين يَرْمُون المُحْصَنَاتِ ثمّ لَمْ يَأتُوا بأربعَة شُهَدَاء فَاجْلدُوهُمْ ثَمَانين جَلْدَة(٢) » . الإدغام هنا نادر يصعب أن تبرره القوانين الصوتية كما يراها المحدثون ، لأن سقوط صوت اللين من تاء « أربعة » يقلب التاء هاء ، فإذا سمحنا عند النطق بها هى مشكلة بالسكون أن تكون تاء ، كما يحدث فى بعض اللهجات العربية الحديثة أمكن أن نفسر إدغام التاء فى الشين . ويظهر أن من أدغموا فى هذا الموضع قد راعوا هذا ، ولعل من اللجهات العربية القديمة ما نطق بالتاء المربوطة حين تشكل بالسكون تاء . والذى يمكن أن يكون قد حدث للتاء فى هذا الإدغام أن مخرجها انتقل إلى وسط الحنك ، مع السماح للهواء بالمرور حين النطق بها لتصير رخوة كالشين . وبهذا اتحد الصوتان همساً ورخاوة ومخرجاً فتم الإدغام .

---

(١) سورة هود « الآية ١١٤ » .

(٢) سورة النور « الآية ٤ » .

٣ — « الضاد » مثل قوله تعالى : « وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً[١] » ، ويظهر أن هذا الإدغام قد تمّ بعد أن تطور النطق بالضاد ، فأصبحت كما ينطق بها الآن أي الصوت المطبق للدال[٢] وعلى هذا فقد جهر بالتاء أولا فأصبحت « دالا » ولا فرق بين الدال والضاد الحديثة إلا فى أن الثانية مطبقة . وهكذا يتم الإدغام فى هذا المثال الذى لم يرو غيره فى القرآن الكريم .

٤ — « الطاء » مثل قوله تعالى : « الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ »[٣] . وفى هذا الموضع إذا افترضنا أن النطق بالطاء هنا هو النطق القديم ، أى يشبه الضاد الحديثة ، كان الإدغام فى هذا المثال كالإدغام فى المثال السابق . أما إذا افترضنا أن الطاء هنا ، كان ينطق بها وقت الإدغام كما ينطق بالطاء الآن ، أى مهموسة ، فلا فرق إذن بينها وبين التاء إلا فى الإطباق ، وهكذا يتم الإدغام .

الثـاء

تدغم الثاء إدغاماً صغيراً فى الأصوات الآتية :

١ — « الذال » مثل قوله تعالى : « فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا[٤] » ؛ وهو المثل الوحيد فى القرآن الكريم . والإدغام هنا واضح جلى ، لأنه لا فرق بين الثاء والذال إلا فى أن الأولى مهموسة

---

(١) سورة العاديات « الآية الأولى » .

(٢) انظر هذا فى موضعه .

(٣) سورة الرعد « الآية ١٣ » .

(٤) سورة الأعراف « الآية ١٧٦ » .

والثانية نظيرها المجهور، فتى جهر بالثاء أصبحت « ذالا » ، وبذلك يكون الإدغام بين صوتين متماثلين كل المماثلة .

٢ — «التاء» مثل قوله تعالى : «قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ[(١)] » ؛ وهنا انتقل مخرج « التاء » إلى الأصوات المسماة باللثوية ، مع السماح للهواء بالمرور معها لتصبح رخوة بعد أن كانت شديدة،وبذلك يتحد الصوتان فى الرخاوة والمخرج والهمس فيتم الإدغام .

وتدغم إدغاماً كبيراً فى الأصوات الآتية :

١ — « السين » مثل قوله تعالى : « وَوَرِثَ سُلَيمانُ دَاوُدَ[(٢)] » ؛ وكل الذى حدث فى هذا الإدغام أن الثاء انتقل مخرجها قليلا إلى الوراء فصادف مخرج أصوات الصفير ، وبذلك اتحدت مع السين فى الهمس والرخاوة فجاز الإدغام .

٢ — « الشين » مثل قوله تعالى : « فَكُلَا مَنْ حَيْثُ شِئْتُمَا[(٣)] » انتقل مخرج الثاء إلى وسط الحنك ، فشابهت الشين فى الهمس والرخاوة وبذلك تم الإدغام .

٣ — « الضاد » مثل قوله تعالى : « هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ المُكْرَمِينَ »[(٤)] . لا بد هنا من عمليتين : جهر الثاء لتصبح « ذالا »

إبراهيم المكرمين »[(٤)] . لابد هنا من عمليتين : جهر الثاء لتصبح « ذالا »

لأن الضاد صوت مجهور ، ولابد أيضاً من انحباس النفس معها لتصبح صوتاً شديداً انفجارياً ، مع انتقال فى المخرج لتقرب من الضاد ، ويتم الإدغام .

---

(١) سورة الكهف « الآية ١٩ » .
(٢) سورة النمل « الآية ١٦ » .
(٣) سورة الأعراف « الآية ١٩ » .
(٤) سورة الذاريات « الآية ٢٤ » .

الجيم

تدغم الجيم في صوتين إدغاماً كبيراً :

١ — « الشين » مثل قوله تعالى : « ذلكَ مَثَلُهُمْ في التَّوْرَاة ومَثَلُهُمْ في الإنجِيل كزَرْعٍ أخْرَجَ شَطْأَهُ[1] » . ويتم الإدغام في هذا الموضع بأن تفقد الجيم جهرها ، ثم تزداد رخاوتها ، وبذلك تماثل الشين في المخرج والهمس والرخاوة .

٢ — « التاء » مثل قوله تعالى : « مِنَ اللهِ ذى المعَارِجِ تَعْرُجُ الملائكةُ والرُّوحُ إلَيْهِ[2] » . وهنا يجب همس الجيم أولا ، لأن التاء صوت مهموس ثم ينتقل مخرجها نحو الثنايا ، مع انحباس النفس انحباساً كاملا لتصبح في شدة التاء ، وهكذا يتم الإدغام .

الدال

تدغم الدال إدغاماً صغيراً في الأصوات الآتية :

١ — الذال : مثل قوله تعالى : « وَلَقَدْ ذرَأْنا لِجَهنَّمَ كثيراً مِنَ الجِنِّ والإنْسِ »[3] . وهنا لا بد من انتقال مخرج الدال إلى الأصوات المساة باللثوية ، ثم السماح للهواء بالمرور في حالة النطق بها ، لتصبح رخوة كالذال ، وهكذا يتم الإدغام .

---

(١) سورة الفتح الآية « ٢٩ » .

(٢) سورة المعارج « الآية الثالثة والرابعة » .

(٣) سورة الأعراف « الآية ١٧٩ » .

٢ — الظاء : مثل قوله تعالى : « ومَنْ يفعَلْ ذَلكَ فقَد ظَلمَ نفسَهُ[١] » . إذا جاز إدغام الدال فى الذال كما فى المثال السابق ، جاز إدغامها أيضاً فى الظاء ، لأنه لافرق بين الذال والظاء إلا فى الإطباق .

٣ — الضاد . مثل قوله تعالى : « قَدْ ضَلوُا ضَلالاً بعيداً[٢] » . إذا افترضنا أن النطق بالضاد فى هذا المثال هو النطق القديم كان الإدغام هنا كالإدغام فى المثال السابق ، أو بعبارة أدق أشبهه شبهاً كبيراً ؛ أما على افتراض أن نطق الضاد هنا كالنطق الحديث لها ، فليس هناك حينئذ فرق بين الدال والضاد إلا فى الإطباق .

٤ — « الجيم » : مثل قوله تعالى : « لقَدْ جاءكم رَسُولٌ منْ أنفُسِكُمْ[٣] » . ينتقل مخرج الدال إلى وسط الحنك ، مع السماح قليلا بمرور الهواء ، وبذلك تقل شدتها فتشبه الجيم ، وهكذا يتم الإدغام .

٥ — « الشين » : مثل قوله تعالى : « قَدْ شغفَهَا حُباً[٤] » . الإدغام هنا كالإدغام فى المثال السابق ، غير أن الدال هنا يجب همسها ، لأن الشين صوت مهموس .

٦ — « السين » : مثل قوله تعالى : « قَدْ سألَهَا قوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ[٥] » . لا بد هنا من همس الدال والسماح للهواء معها بالمرور لتصبح رخوة ، وبذلك تماثل السين فى الهمس والرخاوة .

---

(١) سورة البقرة « الآية ٢٣١ » .
(٢) سورة النساء « الآية ١٦٧ » .
(٣) سورة التوبة « الآية ١٢٨ » .
(٤) سورة يوسف « الآية ٣٠ » .
(٥) سورة المائدة « الآية ١٠٢ » .

٧ — « الزاى » : مثل قوله تعالى : « وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ[١] » . لجواز الإدغام هنا يجب أن يسمح للهواء بالمرور مع الدال لتصبح رخوة ، وهكذا تشبه الزاى فى المخرج والرخاوة والجهر .

٨ — « الصاد » مثل قوله تعالى : « وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ[٢] » . إدغام الدال هنا كإدغامها فى السين ، لأنه لافرق بين السين والصاد إلا فى الإطباق .

٩ — « الثاء » . مثل قوله تعالى : « وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا[٣] » لابد هنا من همس الدال ، وجعلها رخوة ، مع الانتقال بمخرجها إلى الأصوات المسماة باللثوية .

الذال

تدغم الذال إدغاماً صغيراً فى الأصوات الآتية :

١ — « التاء » مثل قوله تعالى : « وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ[٤] » . ينتقل مخرج الذال إلى الوراء قليلا ، ثم ينطق بها مهموسة شديدة ، وهكذا يتم الإدغام .

٢ — « الدال » مثل قوله تعالى : « وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ[٥] »

---

(١) سورة الملك « الآية ٥ » .

(٢) سورة الإسراء « الآية ٨٩ » .

(٣) سورة آل عمران « الآية ١٤٥ » .

(٤) سورة إبراهيم « الآية ٥ »

(٥) سورة الكهف « الآية ٣٩ » .

الإدغام هنا كالإدغام فى المثال السابق ، غير أن الذال هنا تحتفظ بجهرها لأن الدال مجهورة .

٤ — « الجيم » : مثل قوله تعالى : « إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ[١] » . ينتقل مخرج الذال إلى وسط الحنك ، فتشبه الجيم لأن أقرب أصوات وسط الحنك إلى الذال هى الجيم ، فكلاهما مجهور ، وإن كانت الجيم أكثر شدة .

٤ — « السين » : مثل قوله تعالى : « لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ[٢] » . تهمس الذال أولا ، ثم ينتقل مخرجها قليلا الى الوراء لتشبه السين همساً ورخاوة .

٥ — « الزاى » مثل قوله تعالى : « وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ[٣] » . الإدغام هنا كالإدغام فى المثال السابق ، غير أن الذال تحتفظ بجهرها .

٦ — « الصاد » مثل قوله تعالى . « وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ[٤] » . الإدغام هنا كالإدغام مع السين ، لأنه لا فرق بين السين والصاد الا فى الإطباق .

الراء

لاتدغم الراء فى الأمثلة القرآنيـــة إلا فى اللام ، مثل قوله تعالى « قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ

---

(١) سورة الصافات « الآية ٨٤ » .
(٢) سورة النور « الآية ١٢ » .
(٣) سورة الأنفال « الآية ٤٨ » .
(٤) سورة الأحقاف « الآية ٢٩ » .

ذُنوبكم[١]» ، والذى يبرر هذا الإدغام هو قرب المخرج مع اتحاد فى الصفة ، لأن كلا منهما صوت متوسط بين الشدة والرخاوة . ولا يكاد يسمع للراء حفيف ، مثلها فى ذلك مثل أشباه أصوات اللين التى منها اللام. هذا إلى أن الراء فى نظر المحدثين من أوضح الأصوات الساكنة فى السمع . فهى لهذا تشبه اللام والنون والميم التى تعتبر حلقة وسطى بين أصوات اللين والأصوات الساكنة ، وكل الذى يتطلبه إدغام الراء فى اللام هو ترك التكرار المختصة به الراء .

السين

تدغم السين إدغاماً كبيراً فى صوتين هما الزاى والشين :

١ — « الزاى » : مثل قوله تعالى : « وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ[٢] »

وهو إدغام واضح جلى ، إذ لافرق بين السين والزاى إلا فى أن الأولى مهموسة ونظيرها المجهور هو الزاى .

٢ — (الشين) : مثل قوله تعالى : « واشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا[٣] »

يتم الإدغام هنا بانتقال مخرج السين الى وسط الحنك ، وبهذا تشبه الشين همساً ورخاوة .

---

(١) سورة آل عمران « الآية ٣١ » .

(٢) سورة التكوير « الآية ٧ » .

(٣) سورة مريم « الآية ٥ » .

الفاء

تدغم في صوت واحد هو الباء ، فى مثل واحد فى القرآن الكريم هو : « إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ[1] » . ولم يرو الإدغام هنا إلا عن الكسائى ، فى حين أن باقى القراء أظهروها . ولتبرير هذا الإدغام يمكن أن يقال إن الفاء جهر بها أولا ، فأصبحت ذلك الصوت الشائع فى اللغات الأوربية والذى يرمز إليه بالرمز (V) ، ومثل هذا الصوت إذا ذهبت رخاوته بانحباس الهواء معه ليصبح انفجاريا ، أشبه الباء كل الشبه ، وبهذا يمكن الإدغام .

القاف

تدغم إدغاماً كبيراً فى صوت واحد وهو الكاف ، مثل قوله تعالى : « وَقَدْ خَلَقَكُم أَطْوَاراً[2] » . لأن القاف ، كما ينطق بها الآن ، لافرق بينها وبين الكاف إلا فى أن القاف أعمق قليلا فى أقصى الحنك .

الكاف

تدغم ادغاما كبيراً فى صوت واحد وهو القاف ، مثل قوله تعالى : « وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لكَ قالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَالا تَعْلَمُونَ[3] » .

وقد اشترط القراء فى إدغام القاف فى الكاف ، أو العكس ، أن يكون قبل الصوت المدغم متحرك .

---

(١) سورة سبأ « الآية ٩ » .

(٢) سورة نوح « الآية ١٤ » .

(٣) سورة البقرة « الآية ٣٠ » .

اللام

هذا الصوت لكثرة شيوعه فى اللغة العربية ، طرأ عليه مالم يطرأ على غيره من الأصوات الساكنة ، إذ نلحظ سرعة تأثره بما يجاوره من الأصوات ، وميله إلى الفناء فى معظم أصوات اللغة . فلام التعريف كما يقول « المبرد » فى « المقتضب » ، تدغم فى ثلاثة عشر صوتا ، ولا يجوز فى اللام معهن إلا الإدغام ؛ فإن كانت اللام غير لام المعرفة جاز إدغامها فى جميع هذه الأصوات الثلاثة عشر ، وكان فى بعض أحسن منه فى البعض الآخر .

وقد رويت لنا اللام التى ليست للتعريف مدغمة ، فى الأمثلة القرآنية فى عشرة أصوات فقط هى :

الراء . التاء . الثاء . الزاى . السين . الضاد . الطاء . الظاء . النون . الدال .

وأمثلتها فى القرآن الكريم هى على الترتيب :

١ — « قالُوا يا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لن يَصِلوا إِلَيْكَ[1] »

والإدغام هنا إدغام كبير ، يشترط فيه أن يكون ما قبل الصوت المدغم متحركا .

٢ — « قُلْ يأَهلَ الكِتابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا باللهِ[2] » .

٣ — « هَلْ ثُوِّبَ الكُفَّار ما كانوا يَفْعَلون[3] » .

---

(١) سورة هود « الآية ٨١ » .

(٢) سورة المائدة « الآية ٥٩ » .

(٣) سورة المطففين « الآية ٣٦ » .

٤ — « بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ[١] » .

٥ — « بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمراً[٢] » .

٦ — « بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ[٣] » .

٧ — « بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ[٤] » .

٨ — « بَلْ ظَنَنتُمْ أَنْ لَنْ يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً[٥] » .

٩ — « بَلْ نَقْذِفُ بِالحَقِّ عَلَى البَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ[٦] » .

١٠ — « وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيسَ مِنَ اللهِ فِي شَيءٍ[٧] » .

والذى يبرر إدغام اللام فى كل هذه الأصوات ، أن اللام أكثر الأصوات الساكنة شيوعاً فى اللغة العربية ، لأن نسبة شيوعها حوالى ١٢٧ مرة فى كل ألف من الأصوات الساكنة . ولا شك أن الأصوات التى يشيع تداولها فى الاستعمال تكون أكثر تعرضا للتطور اللغوى من غيرها . هذا إلى أن جميع الأصوات التى تدغم فيها اللام تندرج تحت تلك المجموعة الكبرى من الأصوات المتقاربة المخارج التى سبق شرحها ماعدا الشين ، ولهذا

---

(١) سورة الرعد « الآية ٣٣ » .
(٢) سورة يوسف « الآية ٨٣ » .
(٣) سورة الأحقاف « الآية ٢٨ » .
(٤) سورة النساء « الآية ١٥٦ » .
(٥) سورة الفتح « الآية ٤٨ » .
(٦) سورة الأنبياء « الآية ١٨ » .
(٧) سورة ال عمران « الآية ٢٨ » .

يعد إدغام لام التعريف فى الشين أمراً غريباً ، قد يبرره أن الشين أقرب أصوات الحنك للمجموعة الكبرى التى سبقت الإشارة إليها ، أو لصفة التفشى التى تقترب بها إلى مخرج اللام كما يقول القدماء من علماء الأصوات .

— ٤ —

إشارة سيبويه إلى ظاهرة المماثلة

أعتقد أنه من الإنصاف لعلماء العربية القدماء أن نختتم هذا الفصل بعرض سريع لتلك الإشارات التى وردت فى كتاب سيبويه ، ثم ترددت بعد ذلك فى الخصائص لابن جنى ، حول ما نسميه بالمماثلة وهى الظاهرة التى سماها سيبويه ومن جاءوا بعده بالمضارعة حيناً وبالتقريب حيناً آخر ، ولكنهم كما سنرى قصروها على أمثلة محدودة متناثرة وقعت لهم فيما يبدو عن طريق المصادفة ، فلم توصف فى كتبهم على أنها ظاهرة عامة ، ولم تفصل على النحو الذى شهدناه آنفاً ، بل هى مجرد لمحات سريعة ، ولكنها مع ذلك تدل على عبقرية هؤلاء العلماء بالنسبة للعصور التى عاشوا فيها .

فقد تناول سيبويه فى أكثر من موضع من كتابه ما يحدث من تأثر الأصوات المتجاورة بعضها ببعض وسمى هذه الظاهرة بالمضارعة[1] ، كما سماها أيضاً بالتقريب[2] ، وتناول كذلك ما سميناه بأقصى درجات التأثر بين المتجاورين ، أى الإدغام[3] .

وتتضح ظاهرة المماثلة عند سيبويه فى الباب الذى عقده تحت عنوان « هذا باب الحرف الذى يضارع به حرف من موضعه ، والحرف الذى

---

(١) ج ٢ ص ٤٢٦ (٢) ج ٢ ص ٤٢٧ (٣) ج ٢ ص ٤٠٤ .

يضارع ذلك الحرف وليس من موضعه » . ويعنى سيبويه بالحرف الذى يضارع به حرف من موضعه [الصاد الساكنة إذا كانت بعدها الدال ، وذلك نحو : مصدر ، أصدر ، والتصدير] . وبعد أن يبين سيبويه أن إدغام الصاد فى الدال ، أو إبدال الدال حرفاً يناسب الصاد كالطاء مثلا غير ممكن فى هذه الأمثلة ، ويفسر ما حدث فى هذه الأمثلة بأنه مضارعة الصاد بالزاى ، أى تقريبها منها ، لأن الزاى مجهورة كالدال ، فيتحقق بهذا الانسجام بين المتجاورين .

ومما يؤيد أن ما حدث فى الصاد هو تقريبها من الزاى قول سيبويه « ولم يبدلوها زايا خالصة كراهية الإجحاف بها للإطباق » . ويشير سيبويه بهذا إلى أن الصاد أبدلت إلى تلك الظاء العامية التى نسمعها فى نطق الناس فى لهجات الحديث لكلمة « ضابط » حين يقولون « ظابط » .

على أن سيبويه يعقب على كلامه بقوله إنه سمع بعض العرب الفصحاء يجعلون هذه الصاد زايا خالصة أى بدون إطباق ، ويشبه هذا بذهاب الإطباق فى الإدغام حين نطقوا قولهم (افحصْ سالماً) (افحسّالماً).

ويعلل سيبويه إبدال الصاد زايا فى تلك الأمثلة بقوله [وإنما دعاهم إلى أن يقربوها ويبدلوها أن يكون عملهم من وجه واحد ، وليستعملوا ألسنتهم فى ضرب واحد ، إذ لم يصلوا إلى الإدغام ، ولم يجسروا على إبدال الدال صادا ، لأنها ليست بزيادة كالتاء فى افتعل] .

ويشير سيبويه إلى أن شرط تأثر الصاد بالدال أن تكون الصاد ساكنة فيقول [فأما الذى يضارع به الحرف من مخرجه فالصاد الساكنة إذا كانت بعدها الدال] ، ثم يقول [فإن تحركت الصاد لم تبدل ، لأنه قد

وقع بينهما شيء] يعنى الحركة الفاصلة بين الحرفين فلا تتحقق المجـاورة المباشرة .

على أن سيبويه مع هذا يقرر [أنهم ربما ضارعوا بها وهى بعيدة نحو مصادر، والصراط ، لأن الطاء كالدال] .

ونلحظ فى كل ما تقدم أن سيبويه يقصر كلامه فى المضارعة على حرف واحد هو الصاد حين تليها الدال .

وتـكاد تنحصر الأمثلة الأخرى التى أوردها سيبويه فى : أشدق حين تجهر الشين ، اجتمعوا التى نطقها بعض العرب اجدمعوا فجهروا بالتاء ، فى قولهم مصطبر على وزن مفتعل فجعلوا التاء طاء . ويعلل الإبدال فى المثل الأخير بقوله [فأبدلوا مكان التاء أشبه الحروف بالصاد وهى الطاء ليستعملوا ألسنتهم فى ضرب واحد من الحروف ، وليـكون عملهم من وجه واحد ، إذ لم يصلوا إلى الإدغام] . وهو يريد بهذا أن نطق الصاد وهى مطبقة لا يلائم نطق التاء المرققة ، فأبدلوا مكان التاء طاء للانسجام بين الصوتين المطبقين .

على أن سيبويه يعد من المضارعة قلب السين صادا إذا كان بعدها حرف من حروف التفخيم كالقاف والخاء وحروف الإطباق ، ولـكنه يؤكد لنا [أن الأعرف الأكثر الأجود فى كلامهم ترك السين على حالها ،وإنما يقولها من العرب بنو العنبر] .

ومن ملاحظات سيبويه التى تستحق التنويه بها قوله فى تفسير قول بعض العرب « يستيع » بدلا من « يسطيع » [أبدلوا التاء مكان الطاء ليـكون ما بعد السين مهموساً مثلها كما قالوا « ازدان » التى أصلها ازتان ليـكون ما بعد الزاى مجهوراً مثلها] .

وأما المماثلة بين الحركات المتجاورة وهى التى تسمى Vowel-harmony فقد أشار إليها سيبويه ، فى باب الإمالة حين قال [وإنما أمالوا الألف للكسرة التى بعدها ، أرادوا أن يقربوها منها كما قربوا فى الإدغام الصـاد من الزاى] . ويؤيد هذا قوله فى باب ما تقلب فيه الواو ياء إذا سكنت وقبلها كسرة فى مثل ميزان ، ميعاد [فكان العمل من وجه واحد أخف عليهم ، كما أنهم إذا أدنوا الحرف من الحرف كان أخف عليهم نحو قولهم : ازدان ، اصطبر] .

الفصل الثامن

(١)

التطور التاريخي للأصوات

اتضح لنا فيما سبق أن الضاد والقاف والطاء ، كما وصفت لنا فى كتب القراءات ، قد أصابها بعض التطور ، حتى صارت إلى النطق الحديث الشائع بين قرائنا الآن . فقد انتقل مخرج الضاد إلى الدال ، وأصبحنا الآن لا نفرق بين الدال والضاد إلا فى الإطباق . كما أن كلا من القاف والطاء القديمتين قد أصبح مهموساً فى نطقنا الحديث ، بعد أن كانتا مجهورتين . وهذا نوع من التطور التاريخى الذى قد يعرض للأصوات اللغوية .

هذا إلى أن أصواتاً أخرى من أصوات اللغة العربية قد أصابها نوع من التطور التاريخى ، حتى صارت إلى النطق الحديث فى لغة الكلام الآن . ويضيق المقام هنا عن استقصاء هذا فى كل اللهجات العربية الحديثة . ولهذا نكتفى بضرب بعض الأمثال : فقد تطورت الجيم العربية الفصيحة إلى الجيم القاهرية الخالية من التعطيش ، أو الجيم الشامية الكثيرة التعطيش . وليس لهذا ما يبرره سوى انتقال المخرج من مكانه فى كلتا الحالتين : مرة إلى الوراء حتى أصبح من مخرج الكاف ، فكانت الجيم القاهرية التى هى صوت شديد مجهور ، نظيره المهموس هو الكاف ، وأخرى إلى الأمام حتى أصبح من مخرج الشين ، وتلك هى الجيم الشامية التى هى صوت مجهور نظيره المهموس هو الشين . وقد ازدادت الجيم فى الحالة الأولى شدة وفى الثانية رخاوة .

كذلك ينطق بالذال العربية « دالا » فى لغة الكلام المصرية ، وأحياناً زايا . فما أصاب الذال فى الحالين هو انتقال مخرجها قليلا إلى الوراء ، غير أنه فى الحالة الأولى قد أصبحت صوتا شديداً ، وفى الثانية احتفظت برخاوتها .

وتطورت « الثاء » فى لغة الكلام المصرية « إلى تاء » فى معظم الأحيان ، وإلى « السين » فى قليل من المواضع . وقد انتقل مخرجها إلى الوراء قليلا فى الحالين ، غير أنها أصبحت شديدة ،فى حالة قلبها « تاء » ، واحتفظت برخاوتها فى الحالة الثانية .

والظاء العربية ينطق بها أحياناً « ضاداً » وأحياناً زاياً » مطبقة،وقد احتفظت بالإطباق فى الحالين ، وبالرخاوة فى الحالة الثانية فقط .

أما « القاف » فأحياناً نسمعها فى اللهجات المصرية همزة ، وأخرى « جيما » كالجيم القاهرية خالية من التعطيش . ومن الصعب تفسير الظاهرة الأولى أى قلب « القاف » همزة ، ويظهر أن هذا التطور كان نتيجة انتقال القاف من مخرجها وتعمقها بين أصوات الحلق ، فاستبدل بها الهمزة التى هى أقرب أصوات الحلق شبهاً بالقاف من حيث الشدة ، لأن جميع أصوات الحلق ما عدا الهمزة أصوات رخوة .

أما قلب القاف « جيما » كالجيم القاهرية فهو مجرد انتقال فى مخرجها قليلا إلى الأمام ، ولأن القاف فى الأصل صوت مجهور استبدل بها « الجيم » التى هى صوت مجهور أيضا . ويعدّ تطور القاف إلى « الجيم » من الأدلة على أن القاف كانت فى الأصل القديم مجهورة كما سبقت الإشارة إلى هذا .

هذا وقد روى لنا النحاة ومؤلفو المعاجم كلمات متفرقة ، زعموا أن كلا منها ينطق بطريقتين مثل :

[صراط = سراط] . ومثل [لعلّ = رعلّ] ومن العسير الحكم على الأصل فى النطقين ، لنحاول تبرير هذا التطور الصوتى، إلا أن نتخذ لهجة خاصة نجعلها هى الأصل الذى نقيس عليه أو ننسب إليه ولتكن لهجة قريش مثلا. غير أن روايات النحاة ناقصة مبتورة ، يندر أن تنسب النطق الخاص لقبيلة ما ، بل تكتفى فى معظم الأحيان بالإشارة إلى أن من العرب من ينطق هكذا . لهذا لا نستطيع أن نميز الأصل من الفرع . وربما لم يكن هناك أصل ولا فرع ، بل إن الصوت الواحد فى بعض الكلمات نطق به نطقاً مختلفاً فى بيئات مختلفة . وكل هذا مما يجب أن تعرض له البحوث المستقلة فى اللهجات العربية القديمة ، وفى تطور الأصوات العربية .

ولا بأس من ذكر بعض الأمثلة التى رواها النحاة وأصحاب المعاجم :

أمغرت الشاة = أنغرت .	رَفَل = رفن
أصيلالا = أصيلانا .	اضطجع = الطجع
عصيكا = عصيتَ .	استخذ = اتخّذ
لص = لصت .	جدف = جدث
حنظل = حظل	بنان = بنام
أسود قاتم = قاتن .	مدحه = مدهه
أغن = أخن .	وكنة = وقنة
لعلّ = لعنّ .	الأبعاد = الأبماط[1]
تملثم = تلعذم .	

(١) يؤيد هذا المثال ماذكرناه آنفا ، من أن الطاء القديمة هى الضاد الحديثة .

وقد أفرد ابن جنى فى كتابه الخصائص فصلين لهذا النوع من الكلمات ووضع لها قانوناً عاماً هو « تصاقب الألفاظ لتصاقب* المعانى » وسماه بالاشتقاق الأكبر .

فإذا أضيف إلى هذا ما رواه القدماء عن [عنعنة تميم وقُطعة طيء وكشكشة أسد وشنشنة اليمن وكسكسة ربيعة واستنطاء هذيل وعجعجة قضاعة وتلتلة بهراء وطمطمانية حمير] ، رأينا الأمر أكبر من أن يتعرض له هنا بالتفصيل ، وأولى به بحث خاص فى اللهجات العربية القديمة ، ليتضح لنا أمور ثلاثة :

١ — الصوت الأصلى وما تطور إليه .

٢ — الأصوات التى مرجع اختلاف النطق بها اختلاف البيئات ، وليس بينها أصل أو فرع .

٣ — الكلمات التى تشابهت أصواتها لمجرد المصادفة ولا علاقة بينها من الناحية الاشتقاقية .

(٢)

المخالفة (Dissimilation)

من التطورات التى تعرض أحياناً للأصوات اللغوية ما يمكن أن يسمى بالمخالفة ، وهى أن الكلمة قد تشتمل على صوتين متماثلين كل المماثلة فيقلب أحدهما إلى صوت آخر لتتم المخالفة بين الصوتين المتماثلين . وقد دلت البحوث التى قام بها علماء الأصوات ، أن ظاهرة المخالفة قد شاعت فى كثير من اللغات السامية . وليست هذه الظاهرة إلا تطوراً تاريخيا فى الأصوات . ولم يفطن علماء العربية القدماء لهذه الظاهرة ، أو لم

يولوها ما تستحق من عناية ، واضطرب تفسيرهم لها . فقد أشار إليها سيبويه فى باب سماه « باب ماشذ فأبدل مكان اللام لكراهية التضعيف وليس بمطرد » ، ثم ضرب أمثلة لهذا [كتسريت وتظنيت وتقصيت] . كما أشير إلى هذا أيضا فى أمالى الشجرى حين قال « وأما ما حذفوا منه وعوضوا فنحو تظننت قالوا تظنيت فعوضوا من النون الياء » ، ثم ضرب أمثلة (تتلعى من اللعاعة . تسريت من السر . وتقضى من التقضض ، ولا أملاه بدلا من أملله ، ودساها من دسسها ، ويتمطى من يتمطط) .

والحقيقة أن الأمر أكبر من تلك الإشارات التى لاتقنع الباحث المدقق . لأننا نلحظ أن كثيراً من الكلمات التى تشتمل على صوتين متماثلين كل المماثلة يتغير فيها أحد الصوتين إلى صوت لين طويل — وهو الغالب — أو إلى أحد الأصوات الشبيهة بأصوات اللين فى بعض الأحيان ، ولاسيما اللام والنون . والسر فى هذا أن الصوتين المتماثلين يحتاجان إلى مجهود عضلى للنطق بهما فى كلمة واحدة . ولتيسير هذا المجهود العضلى يقلب أحد الصوتين إلى تلك الأصوات التى لاتستلزم مجهوداً عضلياً ، كأصوات اللين وأشباهها .

وهذا التطور هو إحدى نتائج نظرية السهولة التى نادى بها كثير من المحدثين ، والتى تشير إلى أن الإنسان فى نطقه يميل إلى تلمس الأصوات السهلة التى لاتحتاج إلى جهد عضلى ، فيبدل مع الأيام بالأصوات الصعبة فى لغته نظائرها السهلة ، وقد اعترف القدماء بكراهية التضعيف ، ولعلهم كانوا يريدون بهذا أنه يحتاج إلى مجهود عضلى .

وإن نظرة سريعة فى كتب اللغة وقواميسها ساعدتنى على جمع عشرات من أمثلة ، فيها معتل العين أو اللام يشترك فى المعنى مع مضعف من نفس المادة . ويظهر أن الأصل فى كل هذه الأمثلة هو التضعيف ، ثم سهل مع

تطور الزمن بالاستعاضة عن أحد الصوتين المتماثلين بالياء أو الواو لخفتهما ، وفى بعض الأحيان استعيض عن الصوت بأحد أشباه أصوات اللين كاللام والنون ؛ وإن كان هذا قليلا فى اللغة العربية .

وهناك أمثلة لتأييد هذا الرأى :

١ — الطحّ ؛ البسط : طحا كسعى : بسط .

٢ — المحّ : صفرة البيض ، والماح صفرة البيض .

٣ — الجبّ والجوب : القطع .

٤ — عسّ : طاف بالليل . والعوس : الطوفان بالليل .

٥ — زحّه : نحاه عن موضعه . زاح يزيح : بعد وذهب وأزحته .

٦ — غسّ = غمس ، انغسّ = انغمس .

٧ — قيراط أصلها قرّاط . ودينار : أصلها دنّار ،

٨ — قصيت أظفارى : قصصت .

٩ — وأما بفعل الصالحين فيأتمى : فيأتمُّ .

١٠ — غمّ الهلال حال دونه سحاب رقيق ، وغامت السماء .

١١ — حنّ عليه : حنا عليه .

فقد قلب أحد الصوتين المدغمين فى كل هـــذه الأمثلة إلى صوت لين طويل .

وهناك بعض الأمثلة التى يحتمل فيها أن أحد الصوتين المتماثلين قلب إلى أحد أشباه أصوات اللين :

١ — تشنّر فى قبيح تمادى وتعمق : الشنفير السىء الخلق .

٢ — تحدّس الأخبار أراد أن يعلمها من حيث لا يعلم به . تحدس الليل : أظلم ، فعلاقة الخفاء بين الفعلين واضحة .

٣ — الرسّ : دفن الميت ، والرمس : الدفن أيضاً .

٤ — العبَّاس : الأسد ، والعنبس : الأسد أيضاً .

يتضح من كل ما تقدم أن الأصوات فى تطورها تهدف إلى الاقتصاد فى الجهد العضلى ، فالمماثلة تقرب بين الأصوات المتجاورة فى الصفة والمخرج ، وقد يصل هذا التقريب بين الصوتين المتجاورين أن يصبحا متماثلين تمام التماثل ، وهنا قد تبدأ عملية المخالفة التى تهدف أيضاً إلى التقليل من الجهد العضلى ، فنرى أحد المتماثلين المتجاورين يقلب إلى صوت لين طويل أو إلى ما يشبه أصوات اللين كاللام والنون ، وفى هذا أقصى مراحل التيسير فى الجهد العضلى . فحين نصوغ « افتعل » من الفعل « ظلم » نلحظ أن « اظتلم » قد تجاورت فيها الظاء والتاء وهما مختلفتان فى الجهر والهمس ، والشدة والرخاوة ، والإطباق والاستفال ، فقربت مسافة الخلف بينهما لتيسير النطق وأصبح الفعل « اظطلم » ، ثم زاد التيسير حين اتحد الصوتان المتجاوران تمام الاتحاد وأصبح الفعل « اظّلم » ، وهكذا تماثل الصوتان وهو أقصى ما يصل إليه التيسير فى عملية المماثلة . فإذا افترضنا أن أحد العرب نطق بهذا الفعل على صورة جديدة وهى « انظلم »[1] لا يعدو الأمر أنه قد لجأ إلى عملية المخالفة ليخالف بين الظاءين المتجاورين بأن استبدل بإحداها « نونا » ليزيد النطق تيسيراً . وإذا علمنا أن الأصوات تختلف فيما تتطلبه من جهد عضلى للنطق بها ، وأن أشق الأصوات هى المطبقة والرخوة بوجه عام ، أدركنا أن المخالفة لا تكاد تتم إلا حين يتجاور صوتان متماثلان من أصوات الإطباق أو الأصوات الرخوة . على أن المخالفة قد تكون فى النادر من الأحيان بين

(١) رويت هذه الصيغة فى المطولات من كتب النحاة .

الأصوات الشديدة مثل : (إجّار) التى روى فيها أيضاً (إنجار) وكلاهما بمعنى سطح المنزل .وفى حديث الهجرة : استقبل الناس فى المدينة النبى صلى الله عليه وسلم على الأناجير . وكذلك « إجاص » روى فيها أيضاً « إنجاص » . فشرط المشقة التى نصف بها تجاور المتماثلين أن يكونا من غير الأصوات التى تشبه أصوات اللين ، فتجاور اللامين أو النونين لا يحتاج إلى تيسير ، وعليه لا تتناوله حماية المخالفة إلا فى النادر من الأحيان .

الفصل التاسع

الطفل والأصوات اللغوية

(١)

تطور الصوت اللغوى عند الطفل : نظرية التقليد .

قال أحد الفلاسفة « لم يقم المرء فى كل سنى حياته الطويلة بشىء يثير الدهشة ويدعو إلى العجب أكثر مما قام به حين تعلم النطق » .

فقد بدأ الطفل مراحل نطقه بالصراخ ، الذى لم يرد منه فى أول الأمر التعبير عما يشعر به ، ولكننا نسارع عادة إلى الطفل حين يصرخ رغبة منا فى عونه ومساعدته . فلا يلبث الطفل أن يربط عملية الصراخ بما يقدم إليه أهله من وسائل الترفيه عنه ، ويتخذ هذا الصراخ سلاحاً يسله كلما شاء إحدى تلك الوسائل . فالصراخ الذى لم يكن فى أول الأمر إلا نشاطاً عضلياً ، قد يصبح بعد قليل من الزمن عملا إرادياً عند الأطفال ، يستغله الطفل دون رحمة لمن يقضون الليل وهو فوق أذرعتهم يغنون له الأغانى أو يؤرجحونه فوق الأيدى مفضلا كل هذا على النوم فى سريره هادئاً مطمئناً .

وخير وسيلة هى أن يترك الطفل يبكى متى تأكد الأبوان أنه قد نال قسطه من الغذاء والنظافة ، ففى بكاء الطفل تمرين لعضلات صوته .

ثم يلى هذه المرحلة مرحلة المناغاة ، فينطق الطفل بصوت لين يسبق عادة بأحد الأصوات الساكنة التى تشبه أصوات اللين ، مثل « لا » « نا » ، ولكن هذه الأصوات إذا قورنت بمثيلها من أصوات الكبار ظهر بعض الفرق ؛

لأن اتساع فم الطفل فى هذه المرحلة لا يزال بحاجة إلى بعض النمو ليستطيع النطق بصوت « لا » ، كما ينطق بها الكبار .

فطول الشدق حين يولد الطفل حوالى ٤٥ مليمتراً ، ثم تزيد نسبة الطول إلى ٦٠ مليمتراً فى الشهر الثالث ، وإلى ٧٥ مليمتراً فى آخر العام الأول ثم ينمو بعد ذلك طول الشدق نمواً بطيئاً جداً ، لأن طول الشدق عند الطفل فى سن الخامسة هو نفس الطول عند الكبار ، لأنه فى الرجال حوالى ٩٩ مليمترا وفى النساء حوالى ٩٠ مليمترا .

لهذا اختلفت أصوات أطفالنا عن أصواتنا بعض الاختلاف فى السنين الأولى من حياتهم. بل حتى حين ينطقون ببعض أصوات تشبه أصواتنا ، نلحظ اختلافهم عنا فى عملية النطق من حيث وضع اللسان من الفم .

ويبدأ الطفل عادة فى نهاية العام الأول بتقليد أصوات الكبار حوله تقليداً ناقصا بطبيعة الحال . وهنا يبدأ المرحلة التى تعنينا فى بحث أصوات الأطفال اللغوية .

ورغم أن المحدثين من علماء الأصوات قد أجمعوا على أن الطفل يبدأ النطق بما يسهل عليه من الاصوات ، قد اختلفوا بعض الشىء فى ترتيب الأصوات اللغوية ، من حيث سهولتها على الطفل . على أنهم جميعاً قد اعتبروا الأصوات الشفوية كالباء والميم من أوائل الأصوات التى يستطيع الطفل النطق بها ، وعللوا هذا بأن الطفل يرى حركة الشفتين حين يسمع هذه الأصوات من أمه أو أبيه !

ولكن هذه العلة تستلزم مقدرة عقلية أكبر مما يمكن أن تكون عند الطفل فى مثل هـذه المرحلة . لأن ربط رؤية الشفتين بسماع الأصوات الشفوية يحتاج إلى عملية عقلية لا يصل إليها الطفل إلا فى مرحلة متأخرة .

هذا إلى أن انتباه الطفل فى هذه المرحلة يتجه عادة إلى عينى أمه أكثر من الاتجاه إلى حركات شفتيها . وليس ببعيد أن الطفل الذى يولد أعمى لا يبصر قد يبدأ النطق أيضاً بالأصوات الشفوية .

فالسر فى البدء بالنطق بهذه الأصوات ، هو أن عضلات النطق بها ، هى نفس العضلات التى يستخدمها فى الرضاعة .

ثم يتدرج الطفل فى النطق بالأصوات الصعبة ، التى منها ما يستحيل عليه النطق به قبل أن يبدأ أكل أطعمة أكثر صلابة من اللبن .

ولا يكاد ينتهى العام الأول فى نمو الطفل حتى يكون قد مهر فى تكرير مقاطع متماثلة مثل (دَ دَ دَ) وتكرير المقاطع مسلاة للطفل ، خير عنده من أية لعبة يمكن أن تهدى إليه . وقد تتضمن تلك المقاطع أصواتاً يصعب على الطفل فيما بعد ، النطق بها فى كلمات من لغة أبويه ، بل قد تتضمن أصواتاً لا وجود لها فى لغة الآباء . ومنشأ تلك الصعوبة فيما بعد هو الفرق بين النطق بالصوت لمجرد اللعب والتسلية ، والنطق به قصداً ، فى موضع خاص من الكلمة مكتنفاً بأصوات خاصة . ولهذا تعرض للطفل صعوبات جمة حين يبدأ المرحلة الإرادية فى تقليد نطق أبويه أو من حوله من الكبار .

فإذا تحرر الطفل من لغته الخاصة وبدأ تقليد الكبار حوله استطاع الباحث المدقق أن يعرف فى معظم الحالات السر فيما قد يتعرض لنطق الطفل من نقص فى تقليد لغة أبويه . وهذا النقص فى التقليد يخضع عادة لقواعد تبررها القوانين الصوتية ، وعلاقة الأصوات بعضها ببعض .

١ — فكثير من الأطفال يبدلون الكاف تاء لأن الصوتين يتحدان فى صفتى الهمس والشدة ، ولا فرق بينهما إلا فى المخرج . فانتقال المخرج

من أقصى الحنك إلى أدناه يبرر إبدال الكاف تاء ، لأن أقرب أصوات طرف اللسان إلى الكاف ، هى التاء . فقد يقول الطفل المصرى « تلب » فى « كلب »، والطفل الإنجليزى قد يقول «tat » فى « cat» وهكذا .

والأطفال الذين يميلون إلى إبدال الكاف « تاء » ، يميلون أيضاً إلى قلب « الجيم » التى هى مجهورة « الكاف » « إلى دال» التى هى مجهورة «التاء ». فيقولون فى « عجين » « عدين » ، وفى « جدّى » « ددّى »

٢ — وصوت « الراء » صوت شاق عسير على معظم الأطفال ، فأحياناً نسمعه «واواً » ، مثل « ربّع » قد يقولون « وبّع ، وأحيانا نجدها ، لاما « فيقول الطفل فى ورق »«ولق » ، وأحيانا نسمعها منهم« غينا » أو مهموس الغين وهو الخاء ، مثل « بابور » قد ينطقون بها « بابوغ » أو « بابوخ » ، ولاشك أن الواو واللام أسهل من الراء ، لأنهما لايحتاجان إلى جهد عضلى كبير ، هذا إلى أن العلاقة الصوتية بين كل من اللام والواو وبين الراء واضحة جلية لأن كلا من اللام والراء من الأصوات المائعه (liqcuids) التى تشبه أصوات اللين. والواو كما سبق شرح طبيعتها الصوتية ليست فى الحقيقة إلا صوت لين انتقاليا ، فعلاقتها بالراء إذن واضحة . فإذا أضيف إلى هذا أن الراء عند الأطفال يغلب أن تكون لهوية ، انضم إلى اشتراك الراء والواو فى الصفة قربهما فى المخرج ، ولكون الراء عند بعض الأطفال لهوية ، أمكن أيضا أن يستعيضوا بها بعض الأصوات القريبة من اللهاة كالغين .

٣ — « الذال »اونظيرها المهموس « الثاء » صوتان عسيران على الأطفال وعلى كثير من الكبار أيضا ، فقد تطورت « الذال » من النطق العربى القديم إلى الدال أو الزاى فى لهجات الكلام الحديثة ، كما تطوت الثاء إلى التاء أو السين وقد سبق شرح هذا .

وقد تطورت الذال « th » فى ألسنة الأطفال الإنجليز إلى « V » وتطورت الثاء « th » إلى « f » ، فيقولون فى « Mther » « Muvver » ويقولون فى « trow » « frow » . هــذا ولاتزال بعض اللهجات الإنجليزية تلتزم النطق بالثــاء « فاء » ، فيقولون فى : « thnak You » « fank You » .

وقد روى مثل هذا التطور فى اللهجات العربية القديمة : [جدث : جدف ، ثوم : فــوم] ، لأن مثل هــذا التطور الصوتى ليس إلا نتيجة انتقال قليل فى المخرج ، لتصادف الأصــوات المسماة باللثوية أشباهها فى مخرج آخر ، مع احتفاظها بصفات الجهر والهمس أو الشدة والرخاوة .

وفى قليل من الأحيان نرى عكس هــذه الظاهرة عند بعض الأطفال المصريين ، إذ يقولون فى « فوق » « ثوق » وفى « فول » « ثول » .

ومثل هؤلاء الأطفال يحاولون هنا المبالغة فى الوضوح السمعى لهذا الصوت ، لأن الأطفال مــع ميلهم إلى أيسر السبل يحرصون أيضا على توضيح الأصوات وزيادتها علواً وارتفاعا . ومثل هــذا مثل الطفل الذى يقول فى الفعل « هات » « حات » ، لأن الحاء أوضح فى السمع من الهاء .

٤ — وكثير من الأطفال يقلبون الشين « سينا » فيقولون « سمس » بدلا من « شمس » ، والسين « فاء » فى مثل « Sweet, Swing » « Fweet, Fwing » . والعلاقة الصوتية واضحة هنــا لاتحتاج إلى عناء فى الــكشف عنها .

٥ — الطفل أيضا فى نطقه يتلمس أيسر الطرق ، ومالا يــكلفه جهداً عضليا . وهو لهذا لايميل إلى توالى صوتــين أحدهما مجراه الأنف كالميم والنون ، والآخر مجراه الفم كباقى الأصــوات . ولهــذا يميل إلى جعل مجرى كلا الصوتين المتجاورين إما من الفم فقط ، أو من الأنف فقط .

ولهذا قد نسمع بعض أطفالنا فى المراحل الأولى يقولون فى « تين » « نين » ففى هذا المثال جهر الطفل أولا بالتاء فأصبحت « دالا » ثم جعل مجرى الدال من الأنف فصارت « نوناً » ، إذ لا فرق بين النون والدال إلا فى أن الأولى مجراها من الأنف والثانية من الفم ، أما موضع اللسان مع كل منهما فيكاد يكون متحداً . ويظهر أن الصوت الثانى هو المتفوق دائماً أى أنه هو الذى يؤثر فى الأول ، ويقلبه تبعاً له ، لأنه آخر ما يسمع الطفل من أصوات الكلمة ، ولهذا نسمع بعض أطفالنا يقولون فى « موز » « بوس » ، فقد قلبت الميم هنا إلى نظيرها من أصوات الفم وهو « الباء » ، هذا إلى همس الصوت الأخير من الكلمة فأصبحت الزاى « سينا » .

ومثل هذا يمكن أن يقال حين نسمع طفلا يقول فى « سمك » « بك » . فقد بتر أولا المقطع الأول ، ثم قلب الميم إلى نظيرها من أصوات الفم وهى « الباء » .

٦ — وتقليد الطفل لأصوات الكبار ، قد يعرض له عدة مراحل فى التطور ، تجعل من العسير إلا على عالم بطبيعة الأصوات اللغوية أن يكشف عن سر تطورها ، ومعرفة القواعد التى خضعت لها فى هذا . ولأضرب مثلا حول طفلة أوشكت على الثالثة من عمرها ، فقد نطقت بالكلمات الإنجليزية :

Smoke . sneeze . smell . snow

كما يلى بالترتيب :

poke , teeze , pell , tow

فحين نحلل أصوات هذه الأمثلة الأربعة نراها فى الأصل تبدأ بصوت السين ، يليه صوت أنفى . وقد قلب أولا الصوت الأنفى إلى ما يناظره من

أصوات الفم : فالميم قلبت « باء » والنون « دالا » ، ولـكن البـاء والدال صوتان مجهوران ، لا يناسبان السين المهموسة التي بدأت بها الـكلمات الأصلية، لذلك همست الباء فأصبحت (p) وهمست الدال فصارت (t) ، ثم سقطت السين من كل كلة من هذه الـكلمات. وليس هذا بغريب لأنى سمعت طفلا مصريا لم يناهز الثانية من عمره ينادى خادمه المسمى « فتوح » قائلا « بوح » ، فقد كون من صوتى « الفاء » والتاء صوتاً واحـداً هو الذى يرمز إليه فى اللغات الأوربية بالرمز(p) ، وهو يشرك كلا من الفاء والتاء فى الهمس ، ويشارك الفـاء فى المخرج لأن كلا منهما شفوى ، ويشارك التاء فى الصفة لأن كلا منهما شـديد أو انفجارى .

٧ — سقوط الصوت :

وقد يكون الصوت سهل النطق به مفرداً ، فإذا كان فى مجموعة من الأصوات صعب على الطفل ، فيتخلص منه ويسقط الصوت من الـكلمة . فـكثير من أطفال الانجليز ينطقون الـكلمات

Black, Tram, Plug

كما يلى على الترتيب :

bak , tam , pug

ومثل هـذا ما قد نسمعه من بعض أطفـالنا ، حـين يقولون فى « كورة » « أوله » ، وفى « جرس » « ألس » أو « أغس » ، وفى « سقف » « سف » .

٨ — بتر المقاطع :

يصعب على الطفل عادة النطق بمجموعة من المقاطع دفعة واحـدة حين يسمعها ممن حوله من الـكبار ، ولهذا نلحظ أنه يقتصر على المقاطع الأخيرة منها ، فربما قال فى « عربجى » « بجى » فقط ، وفى « أنبوبة » «بوبة» . وليس هذا لأن الطفل لا يستطيع النطق بسلسلة من المقاطـع ، بل السر فى هـذا هو ضعف الذاكرة السمعية للطفل ، فلا يدرى كيف يرتب تلك المقاطع كما سمعها ، ولا كيف بدأت ، فيـكتفى بالنطق بالمقاطع الأخيرة . والطفل فى مناغاته لنفسه قد ينطق بسلسلة طويلة من المقاطع المتباينة الأصوات ، ولـكن نطقه لهـــا حينئذ غير إرادى ، فإذا أريد إليه النطق بمثلها نطقاً إرادياً فيما بعد ، تعـثر وقصرت ذكراته السمعية عن النطق بها ، فيـكتفى ببعض منها ، ويبتر من الـكلمة مقاطعها الأولى فى غالب الأحيان . وكثير من أطفـالنا يقولون فى « شكولاته » « آته » .

٩ — التـكرار :

ومما نلحظه فى لغة الطفل فى المراحل الأولى ، ميله إلى تـكرار المقاطع المتماثلة ، مما أدى إلى أن لغة الأطفال قد اشتملت على كثير من كلمات أو عبارات مكررة المقاطع ، مثل « ننه ، دادا ، ماما ، بابا ، مـمّا ».

وليس من الضرورى أن نعزو هذا إلى أن الطفل حينئذ يمر فى نفس الطور الذى مر فيه الإنسان الأول ، أو أن نقارن هذه الظاهرة بلغة القبائل البدائية ، وما يشيع فيها من ميل إلى تـكرار المقاطع فى كثير من كلماتها ، ليس من الضرورى كل هذا ، بل يمـكن أن تفسر هذه الظـاهرة تفسيراً أبسط ، وهو أن الطفل يلذ له تـكرار نفس العمل مرة ومرتين وثلاثاً ، فـلا غرابة أن يـكرر مقاطـع كلمـاته . فـكما يجد لذة فى تـكرار حركة رجليـه ويديه ، كـذلك يسر

بتكرار النطق بمقاطع متماثلة . هذا هو السر فيما نلاحظه من تكرار فى المقاطع عند الأطفال . وليس بغريب إذن أن نسمع طفلا مصريا يقول فى « محمل » « ممعم » ، ففضلا عن أنه قد جهر بالحاء فأصبحت « عيناً » لأن الميم التى بعدها صوت مجهور ، قد جعل الكلمة مكونة من مقطعين متماثلين كل المماثلة. وليس بغريب أيضاً أن نسمع بعض أطفالنا يقولون فى « فول » « لول » ، وفى « فيل » « ليل » .

١٠ — نغمة الكلام : (Intonation) .

يستطيع الطفل منذ الشهور الأولى أن يميز بين نغمة التدليل ونغمة الزجر ، وينمو هذا الاستعداد مع الطفل ، فيسترعى انتباهه نغمة الكلام وموسيقاه ، أكثر مما يسترعى انتباهه ما اشتمل الكلام عليه من كلمات ومعان . ولهذا نلحظ كثيراً من الأطفال ، فيما بعد ، يتفاخرون بأنهم يستطيعون الكلام بالإنجليزية مثلا ، ثم لا نسمع منهم إلا نغمة النطق فى كلام الإنجليز .

(٢)

طريق الصواب

يحاول الطفل محاولات عدة للوصول بنطقه إلى النطق الصحيح ، كما ينطق من حوله من الكبار . وقد يمرن الطفل نفسه فى بعض خلواته الذاتية على النطق بمجموعة من الأصوات ، لم يحسن النطق بها أمام أبيه أو أمه .

وهناك احتمالان فى نطق الأطفال للأصوات :

١ — أحدهما أن يشعر الطفل بالنطق الصحيح للأصوات ، ولكنه لا يجد عضلات نطقه مطاوعة له ، وحينئذ يظل النقص فى تقليده للأصوات

مدة أخرى ، خلالها يأبى على الكبار أن يقلدوا نطقه الناقص ،ويريدهم على النطق الصحيح الذى يشعر به بأذنيه وإن كان لايحسنه بلسانه ، فإذا قالت له أمه «عدين» وهى تريد « عجين » رفض قبول هذا النطق ، وحاول تصحيحه لها . ومع هذا فيظل هو يقول « عدين » حتى تكمل عضلات نطقه ، وتمرن المران الكافى ، فيحسن القول كالكبار .

٢ — والآخر أن يكون السر فى نقص تقليد الطفل هو عدم استقرار عضلات سمعه ، وحينئذ يقلد تقليداً ناقصاً . ومصدر هذا النقص هو السمع لاعضلات النطق . وخير وسيلة فى مثل هذه الحالة أن يترك الطفل حتى يستقر سمعه فيصحح هو نفسه الخطأ فيما بعد .

وطريق النطق بالصواب عند الأطفال ليس مستقيما فى كثير من الأحيان ، أى أن الطفل حين يحاول إصلاح خطئه لاينجح دائماً من الشوط الأول بل قد يزل زللا آخر . ولهذا قد نسمع بعض الأطفال يقلدون كلمة من الكلمات تقليداً ناقصاً ، فإذا مر عليهم أسابيع سمعنا نفس الكلمة تتخذ فى أفواههم شكلا آخر قبل أن يصل بها إلى النطق الصحيح .

وقد روى بعض الأدباء من الإنجليز أن ولده قد مر فى مراحـــل عدة قبل أن يستطيع النطق بكلمة « pléase » نطقاً صحيحاً . فقد نطق بها أولا « bi » ثم bli ثم « pi:z » ، وغير ذلك من الصور قبل أن يصـل إلى النطق الصحيح .

كما روى بعض الأدباء من الفرنسيين أن طفله نطق بكلمة « merci » أولا « mesi » ثم peti ثم « méti » ثم « meni » قبل أن يستطيع النطق بهـا بها نطقا صحيحا .

وليس بغريب لهذا أن نسمع أن ذلك الطفل المصرى الذى أشرنا إليه آنفاً ، قد نطق اسم خادمه « فتوح » قائلا أولا « پوح » ثم « بتوح » قبل أن يستطيع النطق باسم خادمه نطقاً صحيحاً .

وقد مر نطق نفس هذا الطفل فى مراحل مختلفة حينما حاول تقليد الكلمات الآتية : حلاوة ــ موز ــ افتح .

فقد قال فى الأولى : (« آلة » ثم « حالة » ثم « حلاوة ») .

وقال فى الثانية : (« بيس » ثم « بوس » ثم « موز ») .

وقال فى الثالثة : (« اتحّ » ثم « ابتح » ثم « افتح ») .

وفى كل صورة من هذه الصور يستطيع عالم الأصوات اللغوية أن يفسرها تفسيراً علمياً ، وأن يجد ما يبرر مثل هذا النطق فى القوانين الصوتية .

(٣)

صياغة كلمات من مناغاة الأطفال

يستلقى الطفل فى سريره هادئاً مطمئناً فيبدأ فى تحريك يديه ورجليه ، بينما تصدر منه تلك الأصوات الفطرية التى نسميها مناغاة . وتكاد تنحصر تلك الأصوات فى صوتى الشفة [الميم والباء] ، وصوت طرف اللسان الذى نسميه بالدال هو ونظيره المهموس « التاء » مضافا إلى كل هذا صوت النون ومعظم أصوات اللين . فهذه هى أحب الأصوات عند الطفل فى مراحله الأولى ، يكررها ويتسلى بها ، دون أن يربط بينها وبين أى معنى من المعانى . فالطفل يبدأ المناغاة واللعب بلسانه وشفتيه ، دون أن يكون له أول الأمر مقصد يهدف إليه ، بل يصدر كل هذا عنه فى صورة

غرزية ، ولمجرد التسلية واللهو . فشله فى تحريك لسانه وشفتيه فى هذه المرحلة كشله فى تحريك عضلاته الأخرى كاليدين والرجلين .

ثم لا يلبث أن يربط بين تصرف الكبار حوله ، وبين تلك الأصوات التى تصدر منه . وهو فى مناغاته يندر أن يجمع بين صوتين ساكنين ، ولكنه عادة ينطق بصوت ساكن من الأصوات السابقة ويضيف إليه صوت لين . وبذا يكون مقطعاً بسيطاً مثل (da'ba 'ma) ويلذ للطفل تكرار أمثال تلك المقاطع فنسمع منه أحيانا : (bobo, mama,nene) إلخ .

وقد يبدأ المقطع بصوت لين ، كما قد ينتهى مقطعه بصوت لين أيضاً . ففى بعض الأحيان نسمع منه (amama, atete, ababa) الخ .

وفى كل مرة يناغى الطفل نفسه ، يفد إليه أحد الكبار حوله مستمتعـاً بأصوات الطفل ، فرحاً مسروراً بمناغاته ، فلا يلبث الطفل أن يربط بين أحد أصواته وبين شخص معين ، ممن يعيشون حوله كالأم أو المربية ، وهنا يخيل للكبار أن الطفل يدعوهم ، ويخلع عليهم اسماً من اختراعه ، لأنهم تعودوا ألا ينطقوا هم أنفسهم بشىء إلا حين يكون له معنى من المعانى ، فيحملون أصوات الطفل معانى من اختراعهم . فإذا نطق الطفل بالمقطع (ma) أو كرره فأصبح (mama) أو (amama) وصادف أن جاءته حينئذ أمه أو مربيته فى أثناء تلك المناغاة ، ربط هذا الطفل بين تلك الأصوات وبين مجىء أمه أو مربيته . وقد تحمل الأم أو المربيـــة تلك الأصوات معنى من المعانى ، كأن تظن أن الطفل يسميها (ma) أو (mama) ، فتملـكها نشوة السرور ، وتعيد على سمع الطفل أصواته مشيرة إلى نفسها رغبة منها فى أن يتعرف الطفل عليها ويدعوها بهذا الأسم المحبب إليها ، وأن تكون هى أول إنسان يتعلق به الطفل فى بيئتها .

وقد ترتب على هذا أن لاحظ المحدثون وجود شبه بين كلمات خاصة فى كل لغات العالم . ولا تدل تلك الكلمات على تفرع اللغات من أصل واحد ، أو أن بعضها قد استعار تلك الكلمات من البعض الآخر ؛ ولكن الذى تدل عليه هو أن الطفل فى كل العالم قد آثر المناغاة بأصوات خاصة ، نطق بها نطقاً غرزياً ،وأن الكبار فى كل الشعوب هم الذين وضعوا لتلك الأصوات معانى خاصة ، وحملوها مالم يقصده الطفل

فنى جميع لغات العالم كلمات بسيطة المعنى ، عريقة النشوء ، يمكن إرجاعها جميعاً إلى الأصوات الفطرية التى تصدر من الطفل فى مراحله الأولى . فمن أصوات (الميم والباء والنون والدال والتاء)، تلك الأصوات المحببة عند الطفل فى مناغاته، نشأت تلك الكلمات المشتركة بين لغات البشر ، حين كون الطفل منها مقاطع متحركة ، ثم كرر تلك المقاطع ، فنسب إليه الكبار حوله من المعانى ما شاءت لهم رغباتهم . فمعانى تلك الكلمات من وضع الكبار ولكن أصواتها من عبث الأطفال ولهوهم .

على أن تلك الأصوات البسيطة ، تتبع فيما بعد النسج الخاص للكلمة فى كل لغة . فأحياناً يصيبها زيادة فى أصواتها ، كأن يضاف إليها صوت الراء ، وهو ما شاع فى الفصيلة الهندية الأوربية ، متبعة فى كل حالة النسج الخاص للكلمات فى كل لغة من لغات هذه الفصيلة .

وأول ما يستلفت نظر الطفل فى هذه المرحلة ، هو منظر الأم والمربية والأب . والطفل يجد أيضاً لذة ومتعة فى ثدى أمه ، وفى طعامه وشرابه ، ومشيه ونومه ، إلى غير ذلك من الأحداث التى تترك أثراً قوياً فى نفس الطفل . فهو لهذا يبدأ بالمناغاة من أجل أمه وأبيه ، أو رغبة فى طعام أو شراب أو نوم . وقد أدى هذا إلى أن الكلمات التى تعبر عن مثل هذه المعانى فى لغات البشر ، قد اشتركت فى أصولها أو عنصرها الأساسى ، لأنها جميعاً

نتيجة مناغاة الأطفال ، وهى طبيعية فيهم ، وتـكاد تنحصر فى أصوات خاصة هى : الميم ، الباء ، النون ، الدال ، التاء .

وحين نستعرض الـكلمات التى تعبر عن الأمومة فى كل لغات البشر ، نجد عنصرها الأساسى فى غالب الأحيان هو صوت الميم ، وفى بعض الأحيـان الباء ، بل قد يـكون النون أيضاً . ففى الإنجليزية (mother) والفرنسية (mére) والعربية أم . وفى اللغات السلافية نجد الباء هى العنصر الأساسى للـكلمات التى تعبر عن الأمومة . وفى السنسكريتية نجد (nana) معناها الأم . ومثل هذا ما شاع فى بعض البيئات المصرية ، أمثال (ne:na) ، (anna) التى جاءت إلينا من التركية .

والـكلمات التى تدل على الأبوة تـكاد تشترك فى عنصر أساسى بين لغات البشر وهو « الباء » أو مهموسها « P » ، مثل « baba » ، « Papa » التى منها جاءت الإنجليزية « Father » ، والفرنسية « pére » . فقد تطورت البـاء المهموسة إلى فاء فى الـكلمات الإنجليزية ، وهو أمر تبرره القوانين الصوتيـة . وكذلك نرى العبرية والسريانية تحتفظ بالباء كعنصر أسـاسى للـكلمات التى تعـبر عن الأبوة . وقد يـكون العنصر الأساسى فى معنى الأبوة صوتا آخر مثل الدال فى « dada » الإنجليزية . وقد استغل هـــذا الصوت فى لغة كلامنـا ، إذ منه جاءت الـكلمة « dada » التى تعـبر عن المربيـة . وبعض اللغات يجعل العنصر الأساسى لمعنى المربيـة « الميم » ، فنسمـع فى الألمـانية والسويدية « amme » بمعنى المربية ، كما نسمع شيئاً قريباً من هذا فى بعض البيئات عندنا .

وكلمات الأطفال للتعبير عن الطعام والشراب ، وثدى الأم ، والنوم ، وكل ما يلذ له يـكاد ينحصر عنصرها الأساسى فى تلك الأصوات التى أشرت إليها

آنفاً . ففى لغة الكلام عندنا نسمع أحياناً « mamma » ، « nenna »
« tata ».. الخ .

ويدهش الكبار أحيانا حين يخلط الطفل بين معانى تلك الكلمات فيقول « baba » ، حين يراد منه أن يقول « mama » ،حتى تكمل مرحلة خاصة فى نمو الطفل عندها ترسخ المعانى التى وضعت لأصواته .

هذا هو الطور الأول لنشوء مثل هذه الكلمات ، أما الآن فقد استقرت الشعوب على تسمية الأب والأم باسم خاص لا يسمح بغيره . فإذا نطق الطفل فى مصر بمثل « mama » أمام أبيه ، حاول الكبار حوله تصحيح نطقه ، ليعودوه ما تعودوا ، حتى ينشأ الطفل فى كل بيئة لغوية ، ملقبا الأب أبا ، والأم أما . لأن اللغات الآن قد استقرت على أمر خاص يعلمه الطفل ، ولا ينساق الكبار مع طبيعته محاولين وضع معان جديدة لأصواته .

وقد تستعير بعض اللغات من اللغات الأخرى كلماتها التى تدل على الأمومة أو الأبوة ، رغبة فى تقليد شعب ناهض ، أصاب حظا كبيراً من المدنية والرق .

ويزعم بعض الكبار أن الطفل عادة يعرف أباه قبل أن يعرف أمه ، لمجرد أنهم سمعوه يقول « baba » قبل قوله « mama » والحقيقة أن الأطفال يختلفون فى البدء بصوت خاص فى مناغاتهم ، فمنهم من يبدأ بالباء ومنهم من يبدأ بالميم . فإذا حاول طفل من النوع الأول أن يلقب أمه بكلمة « hba » أنكرت عليه هذا ولم تتقبله منه ، ولا تزال به حتى «ينطق » « mama » لأنها لم تألف تسمية الأم بمقاطع مثل«baba».

الفصل العاشر

عوامل تطور الأصوات اللغوية

لا نريد أن نعرض هنا لما قد يصيب أصوات اللغة من تطور نتيجة انتقال اللغة من بيئتها ، واتصالها بلغة أخرى ، وما قد يكون بين اللغتين من صراع ، ولا إلى ما قد يصيب أصوات اللغة ، نتيجة نزوح شعب أجنبي إلى بيئتها فتتأثر أصوات تلك اللغة بأصوات لغة الغازين أو النازحين ؛ لا نريد أن نعرض لمثل هذه البحوث ، لأنها ستخرجنا عن الغرض المقصود من هذا الكتاب . وإنما نهدف فى هذا الفصل إلى الحديث عن تلك الظاهرة التى نلحظها ، من فرق بين لغة السلف والخلف ولم تتغير بيئة اللغة ، أو ينزح إليها غير أهلها . على أننا حتى فى هذا ، لن نعرض هنا إلا إلى التطور الصوتى ، تاركين تطور القواعد النحوية ، وتطور الدلالة بين معانى الكلمات للبحوث المستقبلة .

يشير الباحثون عادة إلى اللغة ، وتطورها على مرور الزمن ، بأن اللغة كائن حي يخضع للتطور والتغير من جيل إلى آخر . فاللغة دائمة التطور مهما أحيطت بسياج من الحرص عليها ، والمحافظة على خصائصها ، لأن اللغة ليست فى الحقيقة إلا عادات صوتية ، تؤديها عضلات خاصة ، ويتوارثها الخلف عن السلف . غير أن تلك العضلات لا تؤدى تلك العادات الصوتية ، بصورة واحدة فى كل مرة ؛ بل قد يلحظ عالم الأصوات بعض الفروق الدقيقة بين نطق أبناء اللغة الواحدة ، فى البيئة الواحدة .

وقد أكد لنا المحدثون أنه ليس بين أبناء اللغة الواحدة اثنان ينطقان نطقاً متماثلا فى كل الصفات ، بل إن المرء الواحد قد ينطق الصوت الواحد من لغته نطقين متباينين فى ظروف متباينة ، وقد تدق أمثال تلك الفروق ، حتى على أصح

الآذان انتباها ، وأكثرها ملاحظة . فإذا تراكمت تلك الفروق الدقيقة ، وتبلورت مع مرور الزمن ، أصبحت من الوضوح بحيث لاتدع مجالا للشك فى أن لغة الخلف تغاير لغة السلف فى أصواتها بعض المغايرة .

وقد يبدو التطور الصوتى بين لغة الخلف و السلف فى بعض الأحيان ضئيلا . وذلك لأن الوسيلة التى لدينا للكشف عن خصائص لغة الأجداد ، هى الكتابة، وما سجل من كلام السلف ، ولكن الكتابة وسيلة ناقصة للتعبير عن اللغات ، لهذا لاتظهر لنا الكتابة القديمة كل الخصائص الصوتية فى لغة القدماء . وستكون مهمة اللغويين فى المستقبل البعيد أيسر ، ونتائجهم أدق ، حين يبحثون فى التطور الصوتى للغة ، لأنهم سيجدون أمامهم أسطوانات وأشرطة سجلت عليها الكلمات تسجيلا صوتيا دقيقا ، وحينئذ ستكون نظرياتهم مؤيدة بأدلة لامجال للطعن فيها .

أما ما أثاره المحدثون من نظريات حول التطور الصوتى للغة ، فهو أكبر من أن يستوعب هنا ، ولهذا سنكتفى بالإشارة إلى كل منها ، موضحين نواحى القوة والضعف فيها .

ومن المحدثين من عزوا التغيير الصوتى فى اللغة إلى سبب واحد أساسى ، تشترك فيه جميع اللغات . ولكن الأكثرين يرجحون أن عدة أسباب قد اشتركت فى نشوء هذا التغير ، ومن الصعب أن نؤكد أى هذه الأسباب كان العامل الأساسى فى كل تطور من التطورات :

(١)
اختلاف أعضاء النطق

يزعم بعض العلماء أن تغيير الأصوات من جيل إلى جيل ، ليس إلا نتيجة تطور عضلى فى أعضاء النطق . فقد تبع الاختلاف فى تكون أعضاء النطق ، تغير فى الأصوات . ومثل هذه النظرية ، على ما بها من جاذبية

وطرافة ، لم يستطع أحد من علماء التشريح البرهنة عليها بل لقد برهن معظمهم على أن أعضاء النطق عند الإنسان ، تتحد فى جميع تفاصيلها ، من وجهة نظر علم التشريح . وقد برهن بعضهم على أن حنجرة أشهر المغنين لا تمتاز عن حنجرة الرجل العادى من هذه الناحية ، والفرق بين المغنى وغيره أن الأول يملك زمام تنفسه ، ويسيطر على ما يندفع من الرئتين من هواء سيطرة تامة . ومثله فى هذا مثل صاحب الخط الجميل ، لا فرق بين عضلات يديه من الناحية التشريحية وبين عضلات أى رجل عادى ، ولكن سيطرة صاحب الخط الجميل على حركات أصابعه سيطرة تامة ، هى مصدر جمال خطه . وكذلك الراقصة الماهرة لا فرق بين تركيب أعضاء جسمها ، وبين أية امرأة أخرى ، ولكن الراقصة تستطيع السيطرة على حركات جسمها سيطرة لا يضارعها فيها غيرها من النساء .

ومصدر السيطرة على التنفس ، وضغط الهواء المندفع من الرئتين ، وكذلك مصدر السيطره على حركات الأصابع وأعضاء الجسم ، هو فى آخر الأمر المخ . فالأمر إذن ليس مرجعه فى الحقيقة إلا إلى الناحية العقلية أو السيكلوجية .

هذا إلى أنه قد ثبت بالتجربة ، أن مدرس « الفوناتيك » يستطيع أن يعلم تلاميذه ، أى صوت من الأصوات ، فى أى لغة من لغات العالم مع شىء من المران والشرح العلمى ، دون أن يصحب عضلات نطق التلاميذ أى تغير فى تكوينها التشريحى .

ولسنا نعنى بتطور الأصوات فى اللغة ، أن القديم منها يفنى فناء كلياً دون أن يترك أثرا له ، أو أن أصواتاً جديده لا وجود لها من قبل تنمو وتنتشر فى الكلام ، وإنما الذى نعنيه هو أن الأصوات القديمة تنتقل من مخارجها وتستعمل فى مخارج جديدة ، أو يبطل استعمالها فى مكانها الأصلى .

حقاً إن بعض القبائل البدائية قد اتخذت عادة بتر جزء من الشفتين

والأسنان ، قصد التجميل والزينة ، مما ترتب عليه أن أصبح يستحيل على المرء فيها النطق ببعض الأصوات ، ولـكن مثل هذا لا يقام له وزن فى الحديث عن التطور الطبيعي للأصوات اللغوية .

(٣)

البيئة الجغرافية

من المحدثين من يجعلون من الطبيعة الجغرافية لبيئة اللغة أثراً كبيراً فى نوع التطور الذى قد يصيب هذه اللغة ، وعلى رأس هؤلاء H. Collitz ، فقد عزا تطور الأصوات الشديدة فى اللغة الألمانية إلى نظائرها الرخوة ، للطبيعة الجغرافية فى بعض جهات ألمانيا ، وقد أكد فى مقالاته أن الجهات الجبلية تميل لغاتهـا إلى التخلص من أمثال b.d.g. ، فتهمس أولا ، وتصبح على الترتيب p.t.k. ، ثم تقلب هذه إلى نظائرها الرخوة (الفاء . الثاء . الهاء) على الترتيب . وقد أشار فى مقالاته إلى أن البيئة الجبلية تتطلب نشاطاً كبيراً فى عملية التنفس ، ويتبع هذا الميل بالأصوات من الشدة إلى الرخاوة .

وقد تصدى له (Jespersen) مفندا هذا الزعم ، ومشيرا إلى أن التطور الذى أشار إليه (Collitz) قد حدث أيضاً فى البيئات السهلة ، وأنه لا أهمية لنشاط الرئتين فى النطق بالأصوات اللغوية ، بل المهم هو ما تقوم به الحنجرة وسائر أعضاء النطق الأخرى .

وإذا كانت أصوات اللغات فى بعض الجهات الجبلية تميل إلى الخشونة كما فى جهات القوقاز ، فليس السر فى هذا الطبيعة الجبلية ، بل يجب أن يبحث عن سر آخر ، لأن كثيرا من الجهات السهلة قد اشتركت أصواتها فى هذه الصفة .

وعلى هذا فمن الصعب الحكم على أثر الطبيعة الجبلية فى أصوات اللغة وتطورها .

أما إذا قيل إن الطبيعة الجغرافية ، لها أثر فى الأخيلة والمعانى ، فهذا مما لا جدال فيه ، ولكنه ليس موضوع بحثنا .

(٣)
الحالة النفسية

بعض العلماء يعزون تطور الأصوات من شدة إلى رخاوة ، أو العكس ، إلى الحالة النفسية التى يكون عليها الشعب . فالشعب حين يميل إلى الدعة والاستقرار ، تميل أصوات لغته إلى الانتقال من الشدة إلى الرخاوة . فإذا اعتز الشعب بقوته وجبروته مال إلى العكس . وأصحاب هذا الرأى يلتمسون أدلة على قولهم من التطور التاريخى الذى أصاب الشعب الألمانى ، وما تبع هذا من تطور فى أصوات اللغة . غير أن مثل هذا ، لا يستحق منا أن نقف عنده أكثر من ذلك ، لأن الربط بين أصوات اللغة ، والحالة النفسية عند الشعوب ، لا يجد ما يؤيده فى تاريخ الشعوب الأخرى .

غير أنه قد يستأنس لهذا الرأى بما نعرفه عن اللهجات العربية القديمة وميل البيئات المتحضرة فى جزيرة العرب إلى الأصوات الرخوة ، فى حين أن البيئات البدوية كانت تميل إلى الأصوات الشديدة .

(٤)
نظرية السهولة

تنادى هذه النظرية بأن الإنسان فى نطقه لأصوات لغته ، يميل إلى الاقتصاد فى المجهود العضلى ، وتلمس أسهل السبل ، مع الوصول إلى ما يهدف اليه ، من إبراز المعانى وإيصالها إلى المتحدثين معه . فهو لهذا يميل إلى استبدال

السهل من أصوات لغته ، بالصعب الشاق الذى يحتاج إلى مجهود عضلى أكبر . ومثل الإنسان فى هذا ، مثله فى معظم الظواهر الاجتماعية ، يحاول عادة الوصول إلى غرضه عن أقصر الطرق كلما أمكن ذلك . وليس معنى هذا أن هذه النظرية تنطبق على كل الحالات ، وإنما يمكن تطبيقها على كثير من التطورات الصوتية فى اللغة . فإذا وجد الباحث أن التطور الصوتى كان عكسياً ، أى من السهل إلى الصعب — كما وجد فعلا فى بعض الحالات — فعليه أن يبحث عن أسباب أخرى خاصة تبرر هذا التطور ، وهو ولا شك سيجدها فى ظروف خاصة باللغة التى قد يحدث فيها هـذا النوع من التطور . فليس ينقض هذه النظرية أن نجد أحياناً أصواتاً سهلة ، تطورت إلى أصعب منها فى بعض الحالات .

وممن نادوا بهـذه النظرية « Gurtius Whitney » . وقد لاقت هذه النظرية بعض المعارضين ، الذين بنوا كل أدلتهم لدحض هذه النظرية على ما لم يقله أحد من مؤيديها . فقد تصوروا أن هذا التطور يستلزم المواضعة والاتفاق ، وأن للمرء إرادة فى مثل هذا التطور .

والحقيقة أن أنصار هذه النظرية ، قد أوضحوا لنا بما لا يدع مجالا للبس والإبهام ، أن هذا التطور غير إرادى ، فهو يحدث دون أن يشعر به المتـكلم ، ودون أن يعمد إليه قصداً . فالمرء فى الحقيقة حين ينطق بالصوت السهل بدل الصعب يخيل إليه دائماً أنه ينطق بالصوت الأصلى دون تغيير فيه ، فالعملية إذن لا شعورية ، وهى لهذا بعد تـكررها تترك أثراً فى تطور كثير من أصوات اللغات . كما أنها ليست عملية ذات أثر سريع ، بل تمر فى أطوار من اللغة حتى يظهر أثرها واضحاً جليا بعد أجيال .

حقا أنه من الصعب فى بعض الأحيان الحـكم على أى الصوتين أسهل أو أصعب ، ولـكن مما لا شك فيه أن الأصوات الساكنة الشبيهة بأصوات اللين كاللام والنون مثلا ، لا تحتاج إلى مجهود عضلى كالذى تحتاجه بعض

الأصوات كالظاء،الغين . فإذا قيل لنا إن السين والفاء قد قلبتا فى بعض التطورات اللغوية الى هاء ، لانشك لحظة فى أن الصوتين قد قلبا الى صوت أسهل منهما . وقد حدث هذا التطور فعلا فى بعض اللغات .

هذا ويجب أن ينظر الى هذه النظرية ، لا على أنها العامل الوحيد فى تطور الأصوات ، بل على أنها قد تكون أحد العوامل ذات الأثر البين فى التطور الصوتى ، فقد سبق أن أشرنا إلى أن التطور الصوتى بصفة عامة ، ليس إلا نتيجة عدة عوامل مجتمعة .

وقد كان القدماء من مؤلفى اللغة العربية ، يشيرون إلى هذه النظرية فى ثنايا كتبهم ، إشارات مبهمة غامضة ، حين عزوا كثيراً من التطورات الصوتية فى اللغة العربية ، الى ما سموه ثقل الصوت أو خفته . فقد نسبوا الخفة الى الفتحة ، والثقل الى الضمة والكسرة .

وقد نسبوا الثقل الى الهمزة ، والكراهية الى توالى المتحركات فى الكلمة الواحدة ، أو توالى الأصوات المتماثلة ، ثم رتبوا على كل هذا ، ظواهر لغوية مشروحة ومعروفة فى كتب النحاة .

وقد يؤيد هذه النظرية،ذلك التطور الذى حدث فى بعض الأصوات الرخوة للغة العربية ، كالذال والثاء والظاء ، إذ أصبحت فى لغة الكلام أصواتاً شديدة ، هى الدال والتاء والضاد . لأنه قد يكون أسهل على المرء وهو يجرى بأقصى سرعته ، أن يصطدم بحائط أمامه ، من أن يحاول الوقوف قبل الحائط بمسافة قصيرة .

وكذلك اللسان قد يسهل عليه الاصطدام بالحنك ، والالتقاء به التقاء محكما ، ينحبس معه النفس ، ما يكون مع الأصوات الشديدة ، من أن تقف حركته عند مسافة قصيرة من الحنك ، ليكون بينهما مجرى يتسرب منه الهواء كما يحدث فى الأصوات الرخوة ، وليس بغريب لهذا أن تسمع طفلا مصريا يقول فى « زيت » « ديت » .

وقد حاول بعض العلماء الانتقاص من هذه النظرية ، لأنها فى رأيهم تنسب إلى الإنسان الكسل ، مع أنه يزداد نشاطا على مر الأيام والحقيقة أن هناك فرقا بين ما تنادى به النظرية ، من أن الإنسان يميل إلى الاقتصاد فى المجهود العضلى ، وبين الكسل . لأن الكسل فى العمل لا يؤدى النتيجة المرجوة التى يهدف إليها المرء ، فى حين أن الاقتصاد فى المجهود العضلى قد يؤدى الى الغرض المنشود عن طريق أقصر .

(٥)

نظرية الشيوع

قد نادى بهذه النظرية Vilelm Thomsen ، وغيره من المحدثين . وتقرر هذه النظرية أن الأصوات التى يشيع تداولها فى الاستعمال ، تكون أكثر تعرضا للتطور من غيرها .

وقد كان القدماء من علماء العربية يحسون بصحة هذه النظرية وإن لم يحاولوا تطبيقها فى تفسير كثير من الظواهر اللغوية ، ولكنهم كانوا يشيرون إلى الفكرة فى ثنايا كتبهم ولا سيما فى حديثهم عن الترخيم فى النداء .

وممن آمن بهذه النظرية كل الإيمان وطبقها على اللغة الصينية « O. K. Ziph » فى كتابة .

Selected studies of the principle of relative frepueney in language

فالصوت اللغوى إذا شاع استعماله فى الكلام كان عرضة لظواهر لغوية ، كان القدماء يسمونها حينا إبدالا ، وحينا آخر إدغاما . هذا وقد يتعرض الصوت الكثير الشيوع للسقوط من الكلام .

وقد حاولت فى مقال نشر فى مجلة كلية الآداب بجـامعة الإسكندرية تطبيق نظريتى السهولة والشيوع ، على الأصل الاشتقاقى لما يسمى بحروف العلة فى اللغات السامية . وقد جاء . هذا المقال ما نصه « وصلنا فيما قررناه آنفا إلى أن اللام والنون والميم تعد من الناحية الصوتية أشباها لأصوات اللين ، وإلى أن الواو والياء أنصاف لأصوات اللين . فهل كان كل من الواو والياء فى الأصـــل السامى القديم ، أحد الأصوات الثلاثة اللام أو النون أو الميم ؟ » . ثم جاء فى تعالى هذا « ولتطبيق نظريتى السهولة والشيوع ، نجد أولا أن الواو والياء من الناحية الصوتية ، أسهل من اللام والنون والميم ، ولـكن الفرق بينهما ليس مما يحتاج إلى جهد عضلى كبير . والذى يمـكن أن يكون قد برر الانتقال من النطق باللام أو النون أو الميم ، إلى النطق بالواو أو الياء ، ليس عنصر السهولة وحده ، وإنما يضاف إليه أثر شيوع هذه الأصوات الثلاثة فى اللغة العربيـــة . فعلينا إذن أن نبين نسبة تداول كل من اللام والنون والميم فى الـكلام العربى . ولقد حصرت عدد كل منها فى عشرات من صفحات القرآن الـكريم ، الذى لا شك أنه يمثل أصدق الأساليب العربية ، وقد اتخذت هذه الصفحات كنماذج يقاس عليها . ثم استعنت بأهل الرياضة فأجروا لى تلك العملية الرياضية التى تستخدم فى علم الإحصاء وفى كثير من العلوم الحديثة ، لتغنينا عن استقراء جميع أفراد الأصوات . وقد كانت النتيجة التى وصلت إليها أن نسبة شيوع اللام ١٢٧ مرة فى كل ألف من الأصوات الساكنة . والميم ١٢٤ والنون ١١٢ والهمزة ٧٢ مرة والهاء ٥٦ مرة والواو ٥٢ مرة والتاء ٥٠ مرة والياء ٤٥ والباء ٤٣ مرة والـكاف ٤١ مرة وكل من الراء والفاء ٣٨ مرة والعين ٣٧ مرة والقاف ٢٣ مرة ، وكل

من السين والدال ٢٠ مرة والذال ١٨ مرة والجيم ١٦ مرة والحاء ١٥ مرة والخاء ١٠ مرات والصاد ٨ مرات والشين ٨ مرات والضاد ٦ مرات وكل من الغين والثاء ٥ مرات وكل من الزاى والطاء ٤ مرات والظاء ٣ مرات .

فنحن نرى من النسب السابقة ، أن اللام والنون والميم تكون مجموعة من الأصوات الساكنة ، هى أكثرها شيوعاً فى اللغة العربية . ولا يبعد أن تكون هذه الظاهره شائعة فى كل اللغات السامية ، فمن النظرات الخاطفة أثناء قراءتى فى العبرية والسريانية أستطيع أن أتنبأ بهذه النتيجة . إلى أن جاء فى المقال : « نخلص من كل هذا الشرح إلى أن الطور الأول لظاهرة الإعلال هو تحول اللام والنون والميم إلى ياء أو واو ! ولسنا نعنى أن كل لام أو نون أو ميم ، قد تحولت إلى ياء أو واو ! لأن معنى هذا أن اللغة يجب أن تكون خالية من اللامات والنونات والميمات ، وهو ما يخالف الواقع . فهناك عوامل خاصة ، وظروف لغوية خاصة ، وجدت فى بعض الكلمات دون البعض الآخر ، وفى بعض البيئات دون البعض ، مما أدى إلى حدوث هذا التغير فى بعض الكلمات فقط . وتلك العوامل الخاصة يمكن أن تلخص فى كون الصوت منبوراً ، أو خالياً من النبر ، وفى طول الصوت ، أو قصره ، وغير ذلك من عوامل نجهلها الآن ، لبعد العهد بيننا وبين ذلك العصر الذى تم فيه هذا الانقلاب الصوتى .

وقد يتساءل المرء بعد هذا : هل رويت لنا آثار فى اللغة العربية تؤيد ما نذهب إليه من أن الواو والياء ، كانتا فى الأصل ، لاماً أو نوناً أو ميما ؟ وللإجابة عن هذا ، يجب البحث والتنقيب فى المطولات من المعاجم العربية ، عن ألفاظ اشترك معناها ولم يختلف لفظها إلا فى أنا نجد مكان الياء أو الواو منها ، لاماً أو نوناً أو ميما .

وإنى فى نظرة عجلى ، عثرت فى قاموس المحيط على مايقرب من مائتى كلمة تؤيد ماأذهب إليه . وليس من المقول أن اشتراك المعنى بين كل هذه الكلمات ، كان بجرد مصادفة ، فهى من الكثرة بحيث تدع اللغوى يفكر فى سر هذا الاشتراك ، ويحاول الكشف عنه . وسأكتفى هنا بذكر بعض من الأمثلة التى عثرت عليها .

١ — وشر الخشبة بالميشار : إذا نشرها بالمنشار .

٢ — الوقص : العيب والنقص .

٣ — اللكز : الوكز .

ولأهمية هـــذا البحث وأصالته رأيت أن أورد هنا نص هذا البحث وهو :

هذا بحث عام فى أصول الياء والواو ، ثم كيف يقلب كل منهما إلى صوت لين طويل . وهذا نوع من البحث يمكن أن يسمى الإبدال التاريخى ، وينتمى هذا البحث إلى ذلك الفرع اللغوى الذى يسميه الغربيون tEymology

وصلنا فيما قررناه آنفاً إلى أن اللام والنون والميم تعد من الناحية الصوتية أشباهاً لأصوات اللين ، وإلى أن الواو والياء أنصاف لأصوات اللين . فهل كان كل من الواو والياء فى الأصل السامى القديم أحد الأصوات الثلاثة : اللام والنون والميم ؟ هذه هى النظرية التى سأحاول تحقيقها هنا . لقد فطن المتقدمون من علماء العربية إلى نوع من العلاقة بين الواو والياء من ناحية ، والنون والميم من ناحية أخرى . وقد هداهم لهذا حسهم المرهف ، ولكنهم لجأوا فى تعليل هذه العلاقة إلى الناحية المنطقية التى ستظهر جلياً حين أروى طرفاً من أقوالهم .

فيقول ابن جنى فى كتابه سر صناعة الإعراب « إنهم أدغموا النون فى الميم لاشتراكهما فى الغنة والهوى فى الفم ، ثم إنهم حملوا الواو فى هذا على الميم فأدغموا فيها النون لأن الواو ضارعت الميم بأنهما من الشفة وإن لم تكن النون من الشفة . ثم إنهم حملوا الياء على الواو فى هذا لأنها ضارعتها فى المد ، وإن لم تكن معها من الشفة ، فأجازوا إدغام النون فى الياء » .

ويقول فى موضع آخر « إن للنون شبهاً بحروف اللين قويا لأشياء منها الغنة التى فى النون كاللين الذى فى حروف اللين ، ومنها اجتماعها فى الزيادة معهن ومعاقبتها لهن فى الموضع الواحد من المثال الواحد ، وكذلك حذفت النون فى لم يك الحق كما حذفوهن — أى حروف اللين — كذلك فى نحو غزا القوم ، وجعلوها أيضاً فى الرفع نحو يقومان ويقومون » .

وجاء فى المقتضب المبرد « تضارع النون الواو والياء لأنها تزاد فى موضع زيادتهما ، وتكون النون علامة إعراب ، وتبدل من الألف وتبدل الألف منها نحو رأيت زيداً ، ففى الوقف تبدل النون ألفاً » .

فنحن إذن نرى أن بعضاً من علماء العربية المتقدمين قد أحس ببعض ما نحس به ، وإن أخطأ تفسيره فعمد إلى المنطق يفسر به الظواهر اللغوية .

الواو والياء كانتا فى الأصل إذن أحد الأصوات الثلاثة اللام والنون والميم . وقد أدت عوامل التطور اللغوى إلى هذا الانقلاب .

إننا حين نستعرض عوامل التطور اللغوى على ما بها من تشعب نستطيع أن نتبين أن أكثرها تأثيراً فى تطور الأصوات بصفة عامة نظريتا السهولة والشيوع ، وهما اللتان سنحاول تطبيقهما على الظاهرة التى نحن بصددها .

أما نظرية السهولة ، فتلك التي تنادى بأن الإنسان فى نطقه يميل إلى تلمس الأصوات السهلة التى لا تحتاج إلى جهد عضلى فيبدل مع الأيام بأصوات لغته الصعبة نظائرها السهلة . وممن أيدوا هذه النظرية Curtius whitney . ويعزز هذه النظرية أن الإنسان فى جميع أحواله يميل عادة إلى الناحية السهلة التى لا تكلفه عناء ولا مشقة . ومما لاشك فيه أن الواو والياء من الناحية الصوتية أسهل من اللام والنون والميم . ولكن الفرق بينهما ليس مما يحتاج إلى جهد عضلى كبير ، والذى يمكن أن يكون قد برر الانتقال من النطق باللام أو النون أو الميم إلى النطق بالواو أو الياء ليس عنصر السهولة وحده ، وإنما يضاف إليه أثر شيوع هذه الأصوات فى اللغة العربية . ونظرية الشيوع التى نادى بها Vilhelm Thomsen تقرر أن الأصوات التى يشيع تداولها فى الاستعمال وكذلك الصيغ التى يكثر ورودها فى الكلام تكون أكثر تعرضاً للتطور اللغوى من غيرها .

وقد كان القدماء من علماء العربية يحسون بصحة هذه النظرية ، وإن لم يحاولوا تطبيقها فى تفسير كثير من الظواهر اللغوية ، ولكنهم كانوا يشيرون إلى الفكرة فى ثنايا كتبهم ، ولاسيما فى حديثهم عن الترخيم فى النداء . فابن يعيش يقول ما معناه : إن الترخيم من خصائص النداء ، لأن النداء كثير فى كلامهم والكلمة إذا شاع استعمالها كانت عرضة للاختصار أكثر من غيرها .

وممن آمن كل الإيمان بهذه النظرية وطبقها على اللغة الصينية G. K. Ziph فى كتابه :

Selected Studies of the Principle of Relative Frequency in Language

فالصوت اللغوى إذا شاع استعماله فى الكلام كان عرضة لتطوره

لغوية نسميها حيناً إبدالا ، وحيناً آخر إدغاما ، وقــد يتعرض للسقوط من الـكلام .

ولتطبيق نظرية الشيوع على اللام والميم والنون ، علينا أن نبين نسبة تداولها أو شيوعها فى اللغة العربية . لقد حصرت عدد كل منها فى عشرات من صفحات القرآن الـكريم الذى لاشك أنه يمثل أصدق الأساليب العربية ، وقد اتخذت هذه الصفحات كنماذج يقاس عليها ، ثم استعنت بأهل الرياضة فأجروا لى تلك العملية الرياضية التى تستخدم فى علم الإحصاء ، وفى كثير من العلوم الحديثة لتغنينا عن استقراء جميع أفراد الأصوات الساكنة فى القرآن الـكريم التى تزيد على ثلثمائة ألف من الأصوات . وقد كانت النتيجة التى وصلت إليها أن نسبة شيوع اللام ١٢٧ مرة فى كل ألف من الأصوات الساكنة . والميم ١٢٤ مرة . والنون ١١٢ مرة . فى حين أن صوتا كالظاء يتـكرر ثلاث مرات فقط فى كل ألف من الأصوات .

فاللام والميم والنون ، تـكون مجموعة من الأصوات الساكنة هى أكثرها شيوعا فى اللغة العربية . ولا يبعد أن تـكون هذه الحقيقة فى كل اللغات السامية فمن النظرات الخاطفة أثناء قراءتى فى العبرية والسريانية أستطيع أن أتنبأ بهذه النتيجة .

وشيوع اللام فى اللغة العربية ، يفسر لنا ظاهرة إدغامها فى معظم الأصوات الساكنة حين تـكون أداة تعريف . وكتب القراءات والنحو مملوءة بالظواهر اللغوية لإدغام اللام فى كثير من الأصوات الساكنة . ويقول المبرد فى « المقتضب » حين يعرض للـكلام عن اللام : « واللام

تدغم إذا كانت لام المعرفة فى ١٣ حرفا ، لايجوز فى اللام معهن إلا الإدغام ، فإن كانت اللام غير لام المعرفة جاز إدغامها فى جميع ذلك ، وكان فى بعض أحسن منه فى بعض » .

وتدغم النون أيضاً فى كثير من الأصوات الساكنة . وقد أفرد لأحكامها أبواب فى كتب القراءات ، فهى تظهر حيناً ، وتخفى حيناً آخر ، وتقلب وتدغم ، ولكل مواضعه ، مما فصلته كتب القراءات . والنون عرضة أيضاً للسقوط من الكلام من نحو: لم نك نطعم المسكين . ونون التنوين تسقط فى الوقف والإضافة والتعريف بأل ، إلى غير هذا من الظواهر اللغوية ، التى تعرض للنون فى اللغة العربية .

وربما كان إدغام النون فى اللغة العبرية ، أكثر منه فى العربية . فالمستشرقون يكادون يجمعون على أن أداة التعريف العبرية هى : (هنْ) فى الأصل ، وتدغم نون هذه الأداة فى أوائل الأسماء فتشدد لهذا ، إلا إذا كانت أوائل الأسماء من أصوات الحلق ، مما هو معروف فى قواعد اللغة العبرية . بل لقد أفردت اللغة العبرية الأفعال التى فاؤها نون ، فعولجت علاجا خاصا يشبه أحيانا علاج العربية للفعل المثال ، فتحذف فاؤه فى صيغة الأمر ، وتدغم فى عين الكلمة فى صيغة المضارع ، وغير ذلك من الأحكام التى فصلتها قواعد اللغة العبرية .

أما الميم فربما كانت الظواهر اللغوية التى تعرض لها أقل من أختيها اللام والنون . ولكن هذا لايمنعنا من ضمها إلى تلك المجموعة من الأصوات التى شاع استعمالها ، والتى اشتركت فى صفات صوتية مميزة لها عن غيرها من الأصوات الساكنة .

نخلص من كل هذا الشرح إلى أن الطور الأول للظاهرة التى نحاول تفسيرها هو تحول كل من اللام والنون والميم إلى ياء أو واو . ولسنا نعنى أن كل لام أو نون أو ميم قد تحولت إلى ياء أو واو ، لأن معنى هذا أن اللغة يجب أن تكون خالية من اللامات والنونات والميمات ، وهو ما يخالف الواقع . فهناك عوامل خاصة ، وظروف لغوية خاصة وجدت فى بعض الكلمات دون البعض الآخر ، وفى بعض البيئات دون البعض ، مما أدى إلى حدوث ذلك التغير فى بعض الكلمات فقط ، وأدى إلى بقاء اللام والنون والميم فى كثير من الكلمات . وتلك العوامل الخاصة كما أشرت آنفاً ، يمكن أن تلخص فى كون الصوت منبوراً أو خاليا من النبر وفى النغمة الكلامية ، وغير ذلك من عوامل خاصة نجهلها الآن لبعد العهد بيننا وبين ذلك العصر الذى تم فيه هذا الانقلاب الصوتى .

فالأفعال المعتلة ، وما اشتق منها ، كلمات قديمة بعيدة فى القدم ، ولذا اشترك غالبها بين جميع اللغات السامية . فالغالبية العظمى من الأفعال المعتلة فى اللغة العبرية كما رويت لنا فى العهد القديم لها نظائر عربية .

وإن نظرة عجلى فى المعاجم العربية والعبرية ، مكنتنى من جمع عشرات من الأفعال المعتلة المشتركة بين اللغتين ، ويضيق المقام هنا عن ذكرها .

وقد يتساءل المرء بعد هذا ، هل رويت لنا آثار فى اللغة العربية تؤيد مانذهب إليه من أن الواو والياء كانتا فى الأصل لاماً أو نوناً أو ميماً ؟ وللإجابة عن هذا يجب البحث والتنقيب فى المطولات من المعاجم العربية عن ألفاظ اشترك معناها ، ولم يختلف لفظها إلا فى أنا نجد مكان الياء أو الواو منها لاماً أو نونا أو ميما .

وأنا كفيل لمن يريدون البحث والتنقيب فى قواميسنا على ضوء هذه

النظرية، بأنهم سيعثرون على مئات من أمثال تلك الكلمات . وإنى فى نظرة عجلى عثرت فى قاموس المحيط على مايقرب من مائتى كلمة تؤيد ما أذهب إليه . وليس من المعقول أن اشتراك المعنى بين هذه الكلمات مجرد مصادفة ، فهى من الكثرة بحيث تدع اللغوى يفكر فى سر هذا الاشتراك ، ويحاول الكشف عنه . وسأكتفى هنا بذكر بعض من الأمثلة التى عثرت عليها :

(١) وشر : الخشبة بالمنشار ، إذا نشرها بالمنشار . (٢) الوقص : العيب والنقص (٣) اللكز : الوكز (٤) وعكه : كوعده ، دكه وفى التراب معكه . (٥) الضنك : الضيق. (٦) الدائق : الأحمق . داق ، دوقا ، حمق (٧) العيس: النوق، والعنس : الناقة . (٨) جلخ السيل الوادى كمنع ملأه . جاخ السيل الوادى : اقتلع أجرافه . (٩) غطلت السماء : أطبق دجنها ؛ والليل التبست ظلمته . غطا الليل : أظلم . (١٠) فصى الشىء من الشىء ، يفصيه : فصله . (١١) رخم الكلامُ : لان وسهل والرُخامى (بالضم) : الريح اللينة . الرخو: اللين . والرُخاء (بالضم) : الريح اللينة . (١٢) دجا الليل : أظلم . والدجن : الظلمة .

ولاتقتصر هذه الظاهرة على اللغة العربية ، بل الباحث المدقق فى كلمات اللغات السامية الأخرى سيعثر على أمثال هذه الكلمات التى سقتها هنا . فحرف المضارعة الدال على الغيبة فى اللغة السريانية هو النون ، فى حين أنه الياء فى باقى اللغات السامية . وقد كان هذا موضع جدل بين المستشرقين حين حاول كل منهم تفسيره .

ولقد استطعت بنظرة سريعة فى القواميس العبرية أن أعثر على كثير من أمثلة عبرية كالتى عثرت عليها فى المعاجم العربية أسوق هنا بعضاً منها :

(١) נסך = יסך بمعنى صب

(٢) נצב = יצב وكل منهما بمعنى انتصب

(٣) נקע = יקע وكلاهما بمعنى وقع .

(٤) נרש = ירש بمعنى نصيب شركا

الطور الثانى لظاهرة الإعلال فى اللغات السامية — هو أن كلا من الواو والياء المحدثة من لام أو نون أو ميم قلبت فى بعض الصيغ إلى صوت لين طويل فتحة طويلة أو كسرة طويلة أو ضمة طويلة .

هذا هو الطور الذى عنيت به كتب القدماء من الصرفيين وقد ألفت فيه مؤلفات ضخمة . ولم يخل علاج المتقدمين لهذا الطور من التعسف فى كثير من الأحيان . فواجب اللغوى الحديث أن يعرضــه عرضا جديداً وأن يفسره تفسيراً علمياً مبنيـــاً على طبيعة اللغة . ولن أحاول هنا أن أعالج هذا الطور فى كل الصيغ، فمثل هذا يحتاج إلى بحث أوفى ومجال أوسع ، ولـكنى سأعرض المراحل التى مرت على الفعل الماضى الثلاثى عرضاً جديداً أقرب إلى طبيعة اللغة ليـكون عرضى هذا نموذجا يوضح ما أرمى إليه . وسأستعين فيه بطرف من أقوال بعض المتقدمين من النحاة . فمن ذلك قول ابن يعيش على تصريف ابن جنى « وقد أبدلوا الألف من الواو والياء مع سكونهما وفتح ما قبلهما وذلك قليل غير مطرد قالوا وجل ياجل » . ولولا قوله قليل غير مطرد لوافق كلامه أحدث الآراء فى علم الأصوات .

ويقول ابن جنى فى كتابه سر صناعة الإعراب « على أن من العرب من يقلب فى بعض الأحوال الواو والياء الساكنتين ألفين للفتحة قبلهما ، وقيل فى آية أصلها أية » .

وفى رأيى أنه لابد من سكون الواو أو الياء لينتج ذلك الصوت الذى يسميه

الغربيون Diphthong . وتحول هذا الصوت إلى صوت لين خالص أمر معترف به بينهم تؤيده المقارنة بين العربية وأخواتها السامية ، بل بينها وبين لهجاتها الحديثة أيضاً فمن ذلك (أَوْ) فى العربية صارت או فى العبرية وفى لهجة الكلام عندنا نقول فى (بيْت بيَت ، وحَوْض ، حُوض ، وهكذا مما هو شائع معروف لا يحتاج فى الحقيقة إلى ضرب كثير من المثل .

وسكون الواو أو الياء فى الفعل الماضى الثلاثى كان بسقوط الفتحة القصيرة أو الكسرة القصيرة من عين الفعل ، أو سقوط الفتحة القصيرة من لامه . أما فاء الفعل الماضى الثلاثى فلم يطرأ عليها أى نوع من التغير فى هذا الطور ، وقد رويت لنا دون أن يصيبها تحول إلى صوت لين مثل ولد ، يسر . فاقتصرت ظاهرة الإعلال فى الماضى الثلاثى على عين الفعل ولامه .

والذى يؤيد ما أذهب إليه من أن سقوط صوت اللين القصير من عين الفعل أو لامه شرط أساسى فى انقلاب الواو أو الياء إلى صوت لين طويل ، قول ابن يعيش فى شرحه لكتاب التصريف الملوكى لابن جنى ، وهو مخطوط بدار الكتب برقم ٣ صرف ش — صفحة ٩٧ مانصه [واعلم أن الواو والياء لايقلبان إلا بعد إيهانهما بالسكون ولا يلزم على ذلك باب سوط ، شيخ ، لأنه بنى على السكون ، ولم يكن له حظ فى الحركة فيهون بحذفها ، فلو رمت قلب الواو والياء فى قَوَمَ ، بَيَعَ وهما متحركتان لاحتمتا بالحركة ولم يقلبا فاعرفه] .

هذا كلام جيد حسن ولابد إذن قبل انقلاب الواو والياء أن يصبحا ساكنتين لينتج من كل منهما ذلك الصوت الذى يسمى Diphthong والذى كثيراً مايقلب إلى صوت لين خالص .

وسقوط صوت اللين القصير من لام الفعل لم ينكره المتقدمون ولم يشيروا إلى عدم قياسه ، ولكنهم فى سقوطه من عين الفعل ميزوا الفتحة

على أختيها الكسرة والضمة ، فيقول ابن يعيش على تصريف ابن جنى « فإسكان المفتوح ضرورة وإسكان المضموم والمكسور لغة » . وقد كان المتقدمون على طريقة مستقيمة فى تمييز الفتحة على الضمة والكسرة لأن الفتحة من الناحية الصوتية أكثر وضوحا فى السمع من أختيها وتحتاج للنطق بها زمنا أطول ، فهى أملأ منهما من الناحية الصوتية وأكثر قوة فى الكلام . ولا شك أن الصوت إذا كان أكثر قوة فى الكلام قل سقوطه منه ؛ ولهذا كثر سقوط أختيها من الكلام ، وليس يبرر ذلك أن نعد سقوط الفتحة شاذا كما تفيد عبارة القدماء .

وسقوط صوت اللين القصير من عين الفعل الماضى الثلاثى أو لامه دعت إليه طبيعة نسج اللغة العربية التى تؤثر المقاطع الساكنة على المتحركة . وقد قال القدماء باستحالة أربع متحركات فى الكلمة الواحدة وكراهيته فيما هو كالكلمة . وأضيف على قولهم هذا أنه يندر توالى ثلاث متحركات فى نسج الكلمة العربية ؛ فإذا وجدت فاللسان العربى يؤثر إسقاط الثانية أو الثالثة منها .

وقبل أن أختم مقالى هذا أحب أن أشير إلى ظاهرة يجب أن تسترعى انتباه اللغويين وهى العلاقة بين الفعل الأجوف والناقص ؛ وبين ما اتحدت العين واللام فيه ، وقد تحدث سيبويه عن هذا حديثاً قصيراً جداً فى باب سماه : « باب ماشذ فأبدل مكان اللام الياء لكراهية التضعيف وليس بمطرد » ثم ضرب أمثلة لهذا كتسريت ، وتظنيت ؛ وتقصيت . وقد أشير إلى ذلك أيضاً فى أمالى ابن الشجرى ، حين قال . « وأما ما حذفوا منه وعوضوا فنحو تظننت ، قالوا : تظنيت ؛ فعوضوا من النون الياء » . ثم ضرب أمثلة هى « تتلعّى من اللماعة ؛ وتسرّيت من السرّ . وتقضّى من التقضض ، ولا أملاه ؛ بدلا من أمله ، ودساها من دسّسها ؛ ويتمطى من يتمطّط » .

والحقيقة أن الأمر أكبر من تلك الإشارات التى لا تقنع الباحث الدقيق . وإن نظرة سريعة فى قاموس المحيط ساعدتنى على جمع عشرات من أمثلة ، فيها معتل العين أو اللام يشترك فى المعنى مع فعل مضعف من نفس المادة ، ولا شك فى أن هناك عشرات أخرى يمكن العثور عليها . كما أنى عثرت على كثير من هذا النوع من الأمثلة فى اللغة العبرية مما يجعلنى أرجح شيوع هذه الظاهرة فى اللغات السامية . ويظهر أن الأصل فى كل هذه الأمثلة هو التضعيف ثم سهل مع تطور الزمن بالاستعاضة عن أحد الحرفين المدغمين بالياء أو الواو لخفتهما ، ولهذا ما يبرره من الناحية الصوتية . وأسوق هنا بعضا من الأمثلة فى العربية والعبرية :

(١) الطحّ البسط . طحا كسعى بسط (٢) المّح صفرة البيض والمــاح صفرة البيض (٣) الجبّ والجوب القطع (٤) عسّ طاف بالليل . والعوس الطوفان بالليــل (٥) زحّه نحاه عن موضعه . زاح يزيح بعــد وذهب وأزحته .

أمثلة عبرية :

(١) צרר = צור بمعنى ربط

(٢) משש = מוש بمعنى لمس

(٣) דמם = דמה بمعنى سكت وسكن

(٤) זכך = זכה بمعنى طهر .

يمكننى الآن أن ألخص هذا المقال فى كلمات وهى : للبحث عن الأصل الاشتقاقى لفعل معتل ينظر أولا فى نظير له مضعف . هذا فى معتل العين واللام فقط ، أو يبحث عن نظير له مهموز سهلت همزته ، فإذا لم يكن بين هذين فالأصل الاشتقاقى لحروف العلة يجب أن يكون اللام أو النون أو الميم .

(٦)

مجاورة الأصوات

سبق أن أشرنا إلى الظواهر اللغوية ، التي قد تعرض للأصوات فيما يسمى بالمماثلة (Assimilation) ، أو المخالفة (Dissimilation) ونزيد هنا أن الدافع الأساسي في الميل إلى المماثلة أو المخالفة هو الاقتصاد في الجهد العضلي أثناء النطق . ولا شك أن فناء صوت في آخر ، تلك الظاهرة التي نسميها بالإدغام يترتب عليه دائماً اقتصاد في الجهد العضلي والوصول بالنطق إلى مرماه من أقصر الطرق . فإدغام الثاء في التاء في مثل « لبثتم » ، يوفر علينا انتقال اللسان من مخرج الثاء إلى مخرج التاء ، كما يوفر علينا الجمع بين عمليتين متناقضتين ، ففي الأولى منهما ، نسمع صفير الثاء التي هي من الأصوات الرخوة وفي الثانية نسمع صوتاً انفجارياً للتاء . ووضع اللسان بالنسبة للحنك الأعلى والثنايا مختلف في كلتا العمليتين ، إذ في الأولى يترك فراغاً يتسرب منه الهواء وفي الثانية يلتقي بالحنك التقاء محكما ينحبس معه الهواء . ولكننا في حالة الإدغام نحتاج إلى وضع واحد للسان ، وإلى عملية واحدة وفي هذا اقتصاد محسوس في الجهد العضلي .

بل لقد مالت بعض اللهجات العربية القديمة إلى التخلص من توالي الصوتين المتماثلين في حالة الإدغام ، وأضافت إلى سهولته سهولة أخرى ، بأن قلب أحد المدغمين إلى صوت لين طويل ، أو ما يشبهه ، كما تقدم شرح ذلك في عملية المخالفة .

فظاهرة المماثلة أو المخالفة تهدف دائماً إلى الاقتصاد في الجهد العضلي ، اقتصاداً غير إرادي ، بل يحدث دون أن يشعر المتكلم بحدوثه ، ودون أن يكون له قصد فيه .

وقد يكون الصوت فى ذاته سهل النطق به وهو منفرد لا يجاور غيره من الأصوات ، فإذا جاور غيره ، أو وجد فى موضع خاص من الكلمة استلزم النطق به فى هذا الموضع الخاص جهداً عضلياً أكبر ، مما يؤدى إلى قلب هذا الصوت إلى صوت آخر . ويمكن إرجاع كثير من التطورات الصوتية فى لهجات الكلام قديمها وحديثها إلى الميل إلى الاقتصاد فى الجهد العضلى . فتفخيم الباء فى مثل « بطل » تلك الظاهرة التى نهى عنها القراء ، والتى شاعت فى لهجات الكلام منذ العهود الإسلامية الأولى ، ليست فى الحقيقة إلا اقتصاداً فى وضع اللسان مع الباء والطاء ، وانسجاماً بين صوتى اللين مع الباء والطاء .

وكذلك انقلاب المهموس إلى مجهور لمجاورته لصوت آخر مجهور هو فى الواقع اقتصاد فى عملية الانقباض والانبساط فى المزمار الذى يفتح مع المهموس ويضيق مع المجهور ليتذبذب الوتران الصوتيان .

ومثل هذا يمكن أن يقال فى قلب الباء ميماً إذا وليها ميم ، كما فى « اركب معنا »، لأن الهواء مع الباء يتخذ مجراه من الفم ، ولكن مع الميم يتخذ مجراه من الأنف ، هذا إلى ما فى الباء من صفة الشدة فإذا قلبت الباء إلى ميم اقتصدنا جهداً عضلياً ملموساً .

وإذا استعرضنا أمثلة المماثلة التى سبق شرحها ، نستطيع أن نستنبط منها قوانين عامة ، للتطور الصوتى فى اللغة العربية ، على أن قلة الأمثلة التى رويت لنا فى القراءات القرآنية ، تجعل تلك القوانين قابلة للنقض فى بعض تفاصيلها ، ولعل بحوث المستقبل تكفل لنا تلافى مثل هذا النقص .

وتلك القوانين العامة هى :

١ — إذا التقى صوتان أحدهما مهموس والآخر مجهور ، تغير أحدهما ليصبح الصوتان إما مهموسين أو مجهورين . فصيغة « افتعل » من الفعل

« زاد » هى « ازداد » بدلا من « ازتاد » . والتقاء الثاء بالذال فى مثل « يلهث ذلك » قلب الثاء إلى صوت مجهور وهو الذال ، وهكذا يتم الإدغام فى هذا الموضع . وقد أصبح الصوتان فى كل من المثالين السابقين مجهورين . وكذلك التقاء الدال بالسين فى مثل « عدس » قلب الدال فى النطق العامى ، إلى تاء فأصبح الصوتان مهموسين .

٢ — تميل الأصوات العربية فى مجاورتها إلى الانسجام فى صفتى الشدة والرخاوة . فإذا تجاور صوتان ، أحدهما شديد والآخر رخو ، غلب أن تتغير صفة أحدهما ، ليصبح الصوتان شديدين أو رخوين . فإدغام الذال فى الدال فى مثل « إذ دخلت جنتك » هو فى الحقيقة جعل الصوتين شديدين ، والعكس في مثل « ولقد ذرأنا » لأن الإدغام هنا قد جعل الصوتين رخوين .

٣ — الانسجام بين صوت الفم وصوت الأنف المتناظرين إذا التقيا . فالتقاء الباء بالميم ، أو الميم بالباء ، يغلب أن ينتج لنا إما باءين أو ميمين ، فالحالة الأولى مثل « اركب معنا » ، أما الحالة الثانية ، فلم يعترف بها القراء إذ أوجبوا إخفاء الميم مع الباء فقط ، وحذروا من إدغامها فيها رغم وجود هذه الظاهرة فى بعض لهجات الكلام ، فقد نسمع بعض الناس يقولون فى « امبارح » « ابّارح » .

٤ — قد يستلزم الانسجام بين الأصوات المتجاورة ، والاقتصاد فى المجهود العضلى حين النطق بها ، انتقال مخرج أحد الأصوات من مكانه . وهنا يجب أن نقسم المخارج الصوتية الى مخارج كبرى أو مناطق يحدث بينها الانتقال :

(ا) أصوات شفوية كالميم والباء والفاء .

(ب) أصوات لسانية وهذه يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام :

١ ـ المجموعة الكبرى وأفرادها : الذال . الثاء . الظاء • الدال • الضاد • التاء • الطاء • اللام • النون • الراء • الزاى • السين • الصاد •

٢ ـ أصوات وسط الحنك وهى : الجيم والشين •

٣ ـ أصوات أقصى الحنك وهى الكاف والقاف .

(جـ) أصوات حلقية وهى : الغين . الخاء • العين • الحاء • الهاء • الهمزة •

فالقسم الأول وهو الأصوات الشفوية ، والقسم الأخير وهو الأصوات الحلقية ، لا يكاد ينتقل صوت من أصواتهما إلى مخرج آخر فى منطقة أخرى ، ولكن ينتقل غيرها إليها • وعلى هذا فتكاد تنحصر عملية انتقال الأصوات من مخرجها فى الأصوات اللسانية ، فنها قد تنتقل « النون » إلى مخرج « الميم » وذلك إذا وليها باء كما فى « من بعد » ، ومنها قد تنتقل « الثاء » إلى مخرج « الفاء » كما فى [جدث = جدف] • وهذا النوع من الانتقال يمكن أن يسمى بالانتقال الأمامى •

هذا وقد ينتقل بعض أفراد هذه الأصوات اللسانية ، انتقالا خلفياً ، أى إلى الأصوات الحلقية ، وهو ما حدث فى تطور القاف العربية إلى همزة فى لغة الكلام بمصر •

أما انتقال الأصوات اللسانية بعضها إلى بعض فهو الشائع فى اللغة العربية • ونلحظ بصفة عامة أن انتقال الصوت فيها يقتصر على الانتقال من قسم من أقسامها إلى ما يليه من تلك الأقسام الثلاثة • فبعض أفراد المجموعة الكبرى قد تنتقل من مخرجها إلى أصوات وسط الحنك ، أو العكس • وبعض أفراد أقصى الحنك ، قد تنتقل من مخرجها إلى أصوات وسط الحنك ، أو العكس •

وانتقال الصوت من المجموعة الـكبرى إلى أصوات وسط الحنك انتقال خلفى ؛ ولـكن عكسه انتقال أمامى. وكذلك انتقال الصوت من أقصى الحنك إلى وسطه انتقال أمامي ، ولـكن عكسه خلفى .

ولا نـكاد نلحظ فى الأمثلة القرآنية التى سبق شرحها انتقالا أمامياً إلا فى مثل إدغام « الجيم فى التاء » ، نحو [ذى المعارج تعرج] ، وهو نادر مستقبح عند جمهور القراء. فقد روى عن أبى عمرو الدانى أنه قال إن إدغام الجيم فى التاء قبيح . والذى يمكن أن يبرر هذا الانتقال هو كسرة «الجيم»، التى هى صوت لين أمامى، فهى تجذب ، الصوت الساكن إلى الأمام ، فينتقل مع الـكسرة إلى أول اللسان الذى هو مخرجها أيضاً[1] .

واللهجات العربية الحديثة لم تفرق بين انتقال أمامى وانتقال خلفى ، فكلاهما ورد فى لهجات الـكلام ، بل ربما كان الانتقال الأمامى فيها أكثر . وقد يحدث أن ينتقل الصوت فى لهجات الـكلام من أقصى الحنك إلى المجموعة الـكبرى ، مثل قلب الـكاف إلى التاء وهو شائع كثير وقد سبق أن شرحناه ، أما ما روى فى بعض اللهجات العربية القديمة من قلب التاء كافاً ، فى مثل : « طالما عصيكا » فهو مشكوك فيه ، ولعل الـكاف هى الأصل فى تاء الفاعل ، لأن حركة طرف اللسان أسهل من حركة أقصاه .

لم يبق بعد هذا إلا أن ننبه إلى أن أفراد المجموعة الـكبرى هى التى يغلب أن يصيبها التطور ، وتـكاد تنحصر فى أفرادها ظواهر الإدغام والإبدال .

---

(١) انظر معنى الصوت الأمامى بين أصوات اللين .

وإذا استعرضنا أمثلة الإدغام فى القرآن الكريم كما رواها القراء وجدنا سبعة منها تشتمل على انتقال الصوت من مخرجه ، والانتقال فيها جميعا خلفى ، إذ قد انتقل الصوت من بين أفراد المجموعة الكبرى إلى أصوات وسط الحنك وهذه الأمثلة السبعة هى :

١ ـ نضجت جلودهم .

٢ ـ بأربعة شهداء .

٣ ـ حيث شئتما .

٤ ـ واشتعل الرأس شيبا .

٥ ـ لقد جاءكم .

٦ ـ قد شغفها حباً .

٧ ـ وإذ جئتم .

والانتقال فى الأمثلة الأولى ، يمكن أن يبرره وجود « الضم » الذى هو صوت لين خلفى يميل إلى اجتذاب الصوت الساكن معه إلى الخلف . فكل من « الجيم » فى « جلودهم » و « الشين » فى « شهداء » و « الثاء » فى « حيث » و « السين » فى « الرأس » صوت ساكن مشكل بالضم .

أما الانتقال الخلفى فى الأمثلة الثلاثة الأخرى فيعد من الناحية الصوتية ظاهرة غريبة ولا سيما فى « إذ جئتم » .

(٧)
انتقال النبر

لاحظ المحدثون فى مقارناتهم اللغوية ، وتطور الأصوات ، أن لانتقال موضع النبر فى الكلمة أثراً بيناً فيما قد يصيب أصواتها من تطور . وبمقارنة بعض الكلمات فى الانجليزية الحديثة بما كانت عليه فى قديم الزمن ، لاحظوا أن انتقال النبر فى الكلمة قد أدى الى انضمارها فى بعض الأحيان . والأثر الذى يحدثه انتقال نبر الكلمة ، انتقالا خلفياً يكاد ينحصر فى انكماش الكلمة ، وسقوط مقطعها الأخير كله أو بعضه .

فإذا طبقت ملاحظات المحدثين حول انتقال النبر ، على ما أصاب اللغة العربية من سقوط حركات الإعراب فى لهجات الكلام ، استطعنا أن نفسر هذه الظاهرة تفسيراً علميا مقبولا . فموضع النبر فى الكثرة الغالبة من كلمات اللغة العربية هو المقطع الذى قبل الأخير . ففى « يكتب » ؟ « مستفهمٌ » . نجد النبر على المقطع [تُ] فى يكتب ، وعلى المقطع [هِ] فى مستفهم .

وقد حدث فى لهجات الكلام أن انتقل النبر إلى المقطع الذى قبله ، إذ أصبح فى الكلمتين السابقتين على [يكْ] فى يكتب ، وعلى [تفْ] فى مستفهم . وترتب على هذا الانتقال أن تخلصت الكلمات من أواخرها ، وبذلك سقطت حركات الإعراب .

غير أننا قد نجد بعض كلمات لم يصبها حين تطورت أى تغير فى موضع النبر ، ومثال ذلك الأفعال الثلاثية الماضية ، مثل [كتب، سمع] ، فالضغط فى مثل هذه الكلمات على المقطع الأول وهو [كَ] فى المثل الأول ؟ [سَ] فى المثل الثانى ، سواء نطق بالكلمتين نطقا فصيحاً أو نطقاً عامياً . وذلك لأن قاعدة النبر التى شرحناها آنفا لا تتأثر بمثل هذا التغيير فى الأفعال الثلاثية ، ولذا لا يختلف موضع النبر فى الفعل الثلاثى موقوفا عليه أو فى حالة الوصل .

الفصل الحادي عشر

أثر العادات الصوتية فى تعلم اللغات الأجنبية(1)

تتكون عند المتكلمين بأية لغة من اللغات صفات كلامية ، يتميزون بها عن غيرهم من الشعوب . وتقوى تلك الصفات عند الفرد ، وترسخ قدمها كلما تقدمت به السن . فهى فى الأطفال مرنة قابلة للتغير والتشكل ، ولكنها فى الكبار صعبة التغير وإن لم يكن هذا مستحيلا .

وتلك الصفات الكلامية يسميها المحدثون عادات لغوية ، لأنها بعد أن تنتهى مرحلة خاصة فى نمو الطفل ، تصبح عنده ككل العادات المكتسبة ، لا اختيار له فى تكوين أية صفة من تلك الصفات الكلامية . فليس للمرء اختيار فى كيفية النطق بصوت من أصوات لغته ، أو فى كيفية تكوين الجمل فى تلك اللغة ، فالمسألة ليست إلا مجرد تقليد . فقد سمع الأبناء آباءهم فقلدوهم ، كما أخذ الآباء والأجداد عن الأجيال قبلهم . وهكذا تتوارث الأجيال تلك الصفات الكلامية ، دون أن يكون لأى جيل من الأجيال ، اختيار أو إرادة فى تكوين المظاهر اللغوية على نحو خاص .

على أنه لو اقتصر الأمر على مجرد التلقى والتقليد ، لأدى هذا إلى أن لغة الناس فى العصر الحاضر ، تشبه تمام الشبه لغة أسلافهم فى العصور الغابرة ، ولكنا نعلم أن هناك اختلافا كبيراً بين لغة السلف والخلف . ومرجع هذا الاختلاف هو التطور المستمر للغات البشر .

فعوامل التطور اللغوى التى سبق أن أشرنا إليها ، يجب أن تضاف إلى الوراثة اللغوية ، لنستطيع تفسير أى مظهر من المظاهر اللغوية .

---

(1) هذا الفصل مقتطف من سلسلة محاضرات ألقاها المؤلف : الأولى فى معهد التربية للمعلمين ، والثانية فى دار العلوم ، والثالثة فى كلية الآداب بجامعة الإسكندرية .

فالمرء إذن يتكلم وينطق بأصوات خاصة ، لها مميزاتها ، ويكوِّن جمله بطريقة خاصة ، لها قواعدها . ويختلف ذلك من لغة لأخرى ، وهو لا يشعر شعوراً إرادياً ، ولا يفكر حين الكلام فى كيفية النطق بأصواته ، أو تكوين جمله ، بل يصدر كل هذا عنه دون تكلف أو تعمد ، وذلك هو ما سماه القدماء التكلم بالسليقة .

أما الصفات الكلامية التى قد يحتاج إلى تفكير وقصد ، والتى تختلف باختلاف الأفراد فى شعب من الشعوب ، فليست من موضوع بحثنا ، ولا يمكن أن تسمى عادات لغوية . فإذا صبغ أسلوب كاتب من الكتاب بصبغة خاصة ، أو بدا على أحد المتكلمين صفة خاصة فى كلامه لا يشترك معه فيها أحد من أفراد بيئته ، فمثل هذا يعدّ صفات فردية للمرء اختيار فى تكوينها .

والذى يعنينا هنا ، هو تلك الصفات العامة التى يشترك فيها جميع أفراد بيئة من البيئات اللغوية ، والتى لا اختيار لهم فى تكوينها ، بل اكتسبوها اكتساباً وعت عندهم ، فتكونت منها عاداتهم اللغوية . ولا بد من مرور أجيال قبل أن يصيب تلك العادات اللغوية أى نوع من التغير أو التطور .

ومظاهر العادات اللغوية ثلاثة :

١ ــ بنية الكلمة Morphology

٢ ــ تكوين الجملة Syntax

٣ ــ الصفات الصوتية Phonetics أو Phonology ويعنينا هذا المظهر الثالث ، وهو المظهر الصوتى . وهذا المظهر يكاد يكون أوضح مظهر للعادات اللغوية ، وأكثرها رسوخاً عند الأفراد ، فهو أول ما يسترعى أسماعنا حين نريد تعلم لغة من اللغات ، وهو آخر ما نستطيع تقليده فى تعلمها . ويتضمن المظهر الصوتى مخارج الأصوات وقد تقدم شرح اختلافها من لغة لأخرى ، وتفاعل المجهورات والمهموسات حين تتوالى فى كلمة واحدة أو كلمتين ، وقد تقدم شرح ما يترتب على مجاورة الأصوات بعضها البعض من تطور . ومثل

هذا التفاعل يكاد يخضع فى كل لغة إلى قانون خاص ، له أثره فى تعلم اللغات الأخرى .

كما يتضمن المظهر الصوتى أمراً آخر ، له أثر واضح فى تعلم اللغات ، ويختلف من لغة لأخرى ، ويخضع فى كل منها لقانونه الخاص ، وذلك هو « النبر » الذى شرحناه آنفاً حين أشرنا إلى مواضع النبر فى اللغة العربية . وكذلك يتضمن المظهر الصوتى موسيقى الكلام التى يسميها المحدثون (Intonation) .

وللمصريين كسائر الأمم عادات لغوية خاصة بهم . وتلك العادات اللغوية المصرية ، كونتها لغة كلامنا ، التى لقنها الطفل فى مراحل نموه ، وتكلم بها غلاماً فشاباً فرجلا . فهى اللغة التى تكلم بها سليقة ، وهى من أجل ذلك اللغة التى كونت فى نطقه وفى كلامه تلك الصفات الكلامية التى يتميز بها المصرى ، والتى جعلت له طابعاً خاصاً ، له أثره فى تعلمه أية لغة من اللغات الأخرى .

ورغم تعدد اللهجات المصرية ، فإنها تشترك فى كثير من العادات اللغوية . ولهذا يمكن أن نعد المصريين على العموم أصحاب عادات لغوية متميزة عن غيرهم من الشعوب . ولقد تكونت لنا لغة نموذجية ، أخذت تقتحم على اللهجات الإقليمية معاقلها ، وتصرعها واحدة بعد الأخرى . وتلك اللغة استمدت الكثرة الغالبة من مظاهرها ، من اللهجة القاهرية ، أو لهجة المتعلمين فى القاهرة ، لأنها العاصمة التى يتطلع إليها دائماً أبناء الأقاليم ، محاولين تقليد أهليها فى معظم المظاهر الاجتماعية ، ومن بينها لغة الكلام . ومهما يكن من الأمر فاللهجات المصرية ، وعلى رأسها اللهجة القاهرية ، هى التى كونت فينا تلك الظواهر اللغوية التى أصبحت عندنا بمثابة العادات المكتسبة ، لا سلطان لنا عليها ، ولا اختيار لنا فى تكوينها ، بل لقناها تلقيناً وأصبحنا نتكلم بها سليقة .

ولم تدرس اللهجات الإقليمية فى مصر دراسة علمية منظمة حتى الآن ،

وأرجو ألا يمر زمن طويل قبل أن نرى خريطة لبلادنا، قسم فيها القطر المصرى إلى مناطق لغوية ، بعد دراسة تلك اللهجات دراسة علمية صحيحة .

فدراستى هنا لما أسميه بالعادات اللغوية فى مصر ، مبنية على اللهجة النموذجية التى انتظمت القاهرة والمدن الكبرى . ولقد تكشفت لى عدة نواح مشوقة فى أثناء دراستى للهجة النموذجية المصرية ، رغم أن دراستى ليست إلا بدءاً فى ميدان من الدراسة طويل ، يجب أن نعنى به فى المعاهد المصرية .

فدراسة اللهجات الحديثه إذا نظر إليها من الناحية الأكاديمية البحتة ، تعدمن أهم المصادر لدراسة اللهجات العربية القديمة . فاللهجات الحديثة ليست إلا نتيجة تطور للقديم منها . وقد خضع هذا التطور لظروف البيئة المصرية ، ولغتها التى كانت تنتظم البلاد قبل أن تهاجر إليها اللهجات العربية . وقد كون الصراع الذى كان بين اللهجات العربية الغازية ،واللهجات المغزوة ، النواة الأولى فى عاداتنا اللغوية التى تطورت مع توالى السنين ، حتى أصبحت على الصورة التى نراها الآن . ولكن اللهجات الحديثة قد احتفظت لنا ببعض خصائص اللهجة العربية القديمة ، فلم تستطع يد الزمن أن تبدل منها . وتلك الصفات التى احتفظت بها ستكون لنا خير عون فى الكشف عن خصائص اللهجات العربية القديمة التى تخبط فى روايتها مؤلفو العرب ، بل لم يرووا عنها الا النادر ، متأثرين بعوامل سياسية واجتماعية .

ومن الناحية العملية البحتة يجب ألا يغيب عن أذهاننا أن عاداتنا اللغوية الحاضرة ، هى فى الحقيقة مرحلة تاريخية فى لغتنا ، وينبغى لهذا أن توصف وصفاً علمياً دقيقاً ، بل وتسجل نماذج منها فوق اسطوانات تحفظ كسجلات تاريخية .

ومن الناحية العملية البحتة أيضاً ، تعد عاداتنا اللغوية ، الأساس الذى نبنى عليه تعلم أية لغة من اللغات الأجنبية . وأساتذة التربية فى مصر لن يستطيعوا أن يصفوا لنا الطريقة المثلى لتعلم اللغات الأجنبية ، ما لم يمدهم رجال اللغة بنتائج دراستهم لعاداتنا اللغوية .

فمن الضرورى إذن دراسة عاداتنا اللغوية لتسهل لنا مهمة تعليم اللغات الأجنبية فى مصر، ومعلمونا لا يكادون يعرفون شيئاً عنها . والمدرس الآن يتبع طريقة ارتجالية فى تصليح أخطاء تلاميذه ، معالجاً الخطأ فى كل كلمة أو صوت على انفراد ، غير مدرك أن هناك قانوناً عاماً ، إذا عرفه وضع أصبعه على السر فى معظم ما يمكن أن يزل فيه تلميذه . فتلاميذنا ينطقون اللغات الأجنبية بل حتى العربية الفصيحة أحياناً ، بعد أن يشكلوها بما يناسب عاداتهم الكلامية التى تأثروا بها فى كل بيئاتهم ، حتى بين جدران المدرسة . والمدرس مصرياً كان أو أجنبياً لا يفطن لسر أخطاء تلاميذه .

ولست بمستطيع هنا التحدث بإسهاب عن الصفات الكلامية التى يتميز بها المصريون ، بل سأكتفى بضرب أمثلة من اللغة الإنجليزية ، شارحاً مظنة الخطأ حين ينطق بها المصرى ، ومبيناً أن مرجع هذا الخطأ ، إنما هو تأثر المصرى بعاداته اللغوية . على أنى فى أمثلتى سأكتفى بشرح الأخطاء الصوتية فى تعلم اللغة الإنجليزية .

وقد التقطت كثيراً من الكلمات التى وردت فى الكتاب المقرر على السنة الثالثة الإبتدائية ، والذى يسمى Reader One ، وسأشرح هنا نوع الخطأ الذى يمكن أن نسمعه من الطفل المصرى حين ينطق بهذه الكلمات ، والسر فى هذا .

(أولا)

حين نقارن العادات الصوتية فى مصر بعادات اللغة الإنجليزية ، نجد أن الإنجليزية تشتمل على أصوات ساكنة ، لا نظائر لها فى لغة كلامنا . وتلك الأصوات الساكنة ، هى أول ما يعترض الطفل المصرى من صعوبات فى النطق ببعض الكلمات الإنجليزية ، وتلك الأصوات هى :

(P) : وهذا الرمز يشير إلى مهموس الباء . لأن الباء فى كلامنا مجهورة دائماً ، فإذا همست أدى همسها إلى ذلك الصوت الإنجليزى الذى يرمز إليه

بالرمز (p) . فإذا عرف المدرس هذا ، وحاول أن يعلم تلاميذه كيف يهمس بالباء المصرية ، دون أن يلجأ إلى الاصطلاح العلمى بطبيعة الحال ، أمكنه التغلب على الصعوبة التى تلازم الطفل المصرى فى نطقه الإنجليزية فى جميع مراحل التعليم تقريباً .

(V) : ويرمز هذا إلى مجهور الفاء عندنا . إذ لا فرق بين هذا الصوت الإنجليزى والفاء عندنا ، إلا فى أن الفاء صوت مهموس ، نظيره المجهور هو (V) . فالعملية هنا عكسية ، أى يجب أن يتعلم أطفالنا كيف يجهرون بصوت الفاء فى كلامهم .

(th) هذا الرمز المركب يرمز إلى الصوتين العربيين ؛ الذال والثاء . وقد سبق أن شرحنا أن هذين الصوتين قد تطوراً فى لغة الـكلام ، إذ انتقل مخرجهما إلى الوراء قليلا . وينطق بهما الآن فى بعض الأحيان زاياً وسيناً ، وهو ما يميل إليه الطفل المصرى فى نطقه اللغة الإنجليزية . والتغلب على هذا يخدم لنا غرضين : هما أن يتعلم الطفل كيف ينطق بهذين الصوتين فى العربية الفصحى ، وفى الإنجليزية . ولا فرق بين الذال والثاء إلا فى أن الأولى مجهورة والثانية نظيرها المهموس . فإذا علم الطفل بطريقة علمية ، كيف ينطق بهما نطقاً صحيحاً ، سلم كلامه بالإنجليزية من صفة تلازمه مرحلة طويلة فى تعلمها .

(J) ؛ هذا الرمز يشير إلى صوت كبير الشبه بالجيم العربية الفصيحة ، ولهذا يشق على القاهريين ، لأن الجيم العربية المعطشة قد تطورت فى كلامهم إلى الجيم القاهرية التى سبق شرحها . ومعرفة المدرس لمخرج كل من الصوتين وطريقة النطق لـكل ، يسهل عليه مهمة تعليم الأطفال النطق بهذا الصوت . وبهذا يخدم غرضين : تعليمهم النطق بصوت عربى فصيح ، وبصوت إنجليزى كثير الشيوع فى اللغة الإنجليزية .

(R) . يضعف تـكرار الراء فى اللغة الإنجليزية إلى حد لا تـكاد تسمع

معه فى معظم لهجاتها . ولهذا تجنب التفرقة بين الراء فى كلامنا والراء فى معظم اللهجات الإنجليزية .

(L) : اللام فى كلامنا يغلب أن تكون مرققة لا غلظ فيها ، ولهذا دعت كتب القراءات إلى تغليظها فى مواضع خاصة سبق شرحها [1] . أما اللام الإنجليزية فهى مغلظة إذا كانت متطرفة أووليها صوت ساكن مثل (field.well) ولكنها مرققة فى غير ذلك . ويصعب عادة على الطفل المصرى تغليظ اللام ، بأن يصعد اللسان معها نحو الحنك الأعلى كما فى الأصوات المطبقة .

(ثانيـا)

تختلف القواعد التى يخضع لها النبر فى لغة كلامنا عنها فى اللغة الإنجليزية ، وقد أدى هذا إلى زلل الطفل المصرى فى نطق كثير من الكلمات الإنجليزية . فالنبر فى لغة كلامنا موضع من ثلاثة ، لأنه يقع على المقطع الأخير من الكلمة إذ انتهت بصوتين ساكنين مثل (نزلْتْ ، فتحتْ) ، أو كان المقطع الأخير مكونا من :

صوت ساكن — صوت لين طويل — صوت ساكن

مثل (كتابْ . رمضانْ)

فإذا لم يكن المقطع الأخير على هذا النسج ، غلب أن يكون النبر على المقطع الذى قبل الأخير مثل الكثرة الغالبة فى كلامنا، أمثال : (يعلمْ . يلعب . يحارب منزلْ . ملك . مجتهد) .

فى مثل هذه الكلمات نلحظ أن النبر يقع على المقطع الذى قبل الأخير وهو فى الكلمات السابقة على الترتيب :

(علْ . يلْ . حا . منْ . م . ت)

(١) أنظر هذا فى موضعه آنفا .

ولا بد أن يكون المقطع الذى قبل الأخير حين يقع النبر عليه :

١ — إما مقطعاً ساكناً ، كما فى « يعلّمْ » .

٢ — أو مقطعاً متحركا ، وصوت اللين فيه طويل كما فى « يحاربْ » .

٣ — أو مقطعاً متحركاً ، وصوت اللين فيه قصير ، بشرط ألا يسبق بمقطع آخر متحرك أيضاً ، كما فى : [ملكْ مجتهدْ] .

أما إذا كان المقطع الذى قبل الأخير متحركاً ، وصوت اللين فيه قصير ، وقبله مقطع متحرك أيضاً ، فيكون النبر على المقطع الثالث حين نعد المقاطع من الخلف مثل : عنبة . بلحة . عجلة .

عِ . بَ . ءَ

هذا هو الموضع الثالث للنبر فى لغة الكلام عندنا ، وهو قليل الشيوع نسبياً . فالنبر عندنا أحد مواضع ثلاثة ولكل شروطه : فهو على المقطع الأخير من الكلمة بشرط أن يكون هذا المقطع أحد النسجين التاليين :

١ — صوت ساكن + صوت لين قصير + صوتان ساكنان .

٢ — صوت ساكن + صوت لين طويل + صوت ساكن .

فاذا لم يكن المقطع الأخير من هذين النسجين ، كان النبر على المقطع الذى قبل الأخير بشرط أن يكون نسجه واحداً من الأحوال الآتية :

١ — صوت ساكن + صوت لين قصير + صوت ساكن .

٢ — صوت ساكن + صوت لين طويل .

٣ — صوت ساكن + صوت لين قصير (غير مسبوق بمثله) .

ولكنا نرى النبر على المقطع الثالث من آخر الكلمة ، حين يكون هذا المقطع الذى قبله من النسج التالى :

صوت ساكن + صوت لين قصير

وعلى هذا فالنبر في الـكلمة المصرية قد يـكون على المقطع الأخير بشروط خاصة ، فإذا لم تتوفر هذه الشروط، كان النبر على المقطع الذى قبل الأخير بشروط خاصة كذلك ، فإذا لم تتوفر هذه كان النبر على المقطع الذى قبله

ويرمز للنبر فى كتب الفوناتيك برمز خاص ، يوضع عادة على صوت اللين من المقطع، ففى الـكلمة الإنجليزية «Torment» التى يختلف استعمالها اسماً أو فعلا باختلاف موضع النبر ، تـكتب حين تـكون اسماً « T'orment » ، وحين تـكون فعلا « Tormént »

وقد ورد فى كتاب السنة الثالثة الابتدائية كلمات إنجليزية تنتهى بصوتين ساكنين ، ولهذا يميل الطفل المصرى إلى نبر المقطع الأخير منها كما تعود فى عادات لغته الـكلامية ، فهو ينطق بالـكلمات الآتية هـكذا :

Youngést. Happiést, Hundréds, Gardeners

أى أنه يحمل النبر على المقاطع الأخيرة وهى على الترتيب :

ést, ést, réds, nérs

مخالفاً بهذا الموضع الحقيقى للنبر فى هذه الـكلمات الإنجليزية والطفل المصرى لا يعدو فى عمله هذا أن تأثر بموضع النبر فى عاداته اللغوية .

(ثالثا)

يستحيل على نسج الـكلمة فى اللهجة المصرية ، أن يبدأ بصوتين ساكنين ، كما يستحيل أن يتوسط نسجها ثلاثة أصوات ساكنة متوالية أو أن تنتهى بمثل هذا .

فالـكلمة فى لهجة كلامنا تبدأ بصوت ساكن واحد ، ولا يتوسطها أكثر من صوتين ساكنين متواليين، كما لا تنتهى بأكثر من صوتين ساكنين متواليين أيضاً .

فإذا صادف الطفل المصرى كلمة إنجليزية تبدأ بصوتين ساكنين ، أو يتوسطها ثلاثة أصوات ساكنة متوالية ، تعثر فى النطق بمثل هذه الـكلمات،

لأنها تخالف نسج الكلمة فى لغته . ونراه يحاول التغلب على هذا ، بزيادة فى مقاطع الكلمة الإنجليزية ، فمثلا قد يقول فى :

child, bread. grandfather, burnt

على الترتيب :

teshild, bered, grandefather, burnet

(رابعاً)

ليس بين مقاطع الكلمة المصرية مثل النسج التالى :

صوت لين طويل + صوتان ساكنان

(ne:md) named—Cla:mp) lamp(١)

ولكن مثل هذا النسج شائع فى اللغة الإنجليزية . ولهذا يتعثر الطفل المصرى حين يصادف مثل هذا النسج فى كلمة إنجليزية ، ويحاول الطفل التغلب على هذه الصعوبة بأن يقلل من طول صوت اللين فهو يقول فى :

على الترتيب .

(nemd)—(lamp)

فإذا ولى صوت اللين الطويل ثلاثة أصوات ساكنة ، كانت الصعوبة أكبر كما فى asks[a:sks] . ففى مثل هذه الحالة يقلل الطفل المصرى من طول صوت اللين ، ويضيف صوت لين قصير قبل الصوت الساكن الأخير وبذلك يزيد مقاطع الكلمة . فهو يقول فى مثل هذه الكلمة (askes)

(خامساً)

التجانس بين الأصوات المجهورة والمهموسة حين تتوالى من ضروريات لغة الكلام عندنا . فإذا اجتمع صوتان أحدهما مجهور ، والآخر مهموس

---

(١) الكلمات التى بين الأقواس مكتوبة بالرسم الفوناتيكى .

مالت ألسنتنا إلى قلب أحد الصوتين بحيث يصبح الصوتان ، إما مهموسين أو مجهورين . وليس من الضرورى أن يتوالى الصوتان فى كلمة واحدة ، بل قد يكون توالیهما فى كلمتين شديدتى الاتصال إحداها بالأخرى ، ففى مثل (big tree) قد اجتمعت الجيم والتاء فى كلمتين ، والصوت الأول وهو الجيم مجهور ، فى حين أن الثانى وهو التاء مهموس ، لهذا يميل الطفل المصرى فى مثل هذه الحالة ، إلى قلب الأول إلى نظيره المهموس وهو الكاف، ليصبح الصوتان المتواليان مهموسين .

ولهذا قد نسمع مثل هذه العبارة فى فم الطفل المصرى (bik tree) وهو نوع من التأثر الرجعى الذى سبقت الإشارة إليه، وهو مطرد فى كلامنا نلحظه حتى فى نطقنا لبعض الكلمات العربية أحيانا ، إذ نسمع كثيراً من المصريين ، يقولون فى كلمة « أسباب » « أزباب » ، ويقولون فى « أكبر » « أجبر » وليس لهذا من سر سوى ميلنا إلى الانسجام ، بين همس الأصوات وجهرها ، بحيث لا يلتقى فى الكلمة إلا مهموسان أو مجهوران . وعلى هذا إذا نظرنا إلى مثل الكلمة الإنجليزية Placed التى وردت فى مقرر السنة الثالثة الابتدائية ، نجد أن الطفل المصرى قد يتعثر فيها من نواح عدة :

أولاها : أنه يجهر بالصوت (P) فتصبح (B) .

ثانيتها : أنه يقلل من طول صوت اللين بعد اللام ، لأنه قد وليه صوتان ساكنان .

ثالثتها : أن هذين الصوتين المتواليين ، أولهما مهموس وثانيهما مجهور ، ولذلك يجهر الطفل المصرى بالمهموس .

رابعتها : أنه قد يصعب عليه البدء بصوتين ساكنين .

لهذا كله قد نسمع هذه الكلمة فى ألسنة أبنائنا (Blezd) أو (Belezd)

تلك هى أمثلة ، أردت بها إيضاح ما نحن بصدده ، من أنه لا بد من معرفة الأساس الذى نبنى عليه تعلمنا اللغات الأجنبية ، وهو عاداتنا الصوتية ، والقوانين التى تخضع لها . وفى مدارسنا قد تعالج تلك الأخطاء علاجاً فردياً ، وقد تهمل فيشب عليها المتعلم منا ، فإذا رحل إلى بيئة اللغة الأجنبية ، وبدأ يتحدث أمامهم ، كان موضع السخرية أو الرثاء من أهل اللغة .

ويستطيع المعلم بعد دراسة عاداتنا الصوتية أن يحكم على نوع الخطأ الذى يمكن أن يزل فيه الطفل المصرى بمجرد النظر إلى الكلمة . فإذا كتبت أمامه أية كلمة من أية لغة من لغات العالم ، كتابة فوناتيكية بطبيعة الحال ، استطاع القول فى الحال أن الطفل المصرى حين ينطق بهذه الكلمة ، يغلب أن يتعثر فى موضع كذا وكذا ، فتصدق نبوءته بعد تجربة النطق بها عند أطفالنا .

هذا وأسهل اللغات على المصرى هى أقربها شبهاً بعاداتنا اللغوية . وكلما تقاربت العادات اللغوية بين لغتين ، سهل على أهل إحدى هاتين اللغتين ، تعلم الأخرى والنطق بها نطقاً صحيحاً . فيجب إذن للحكم على سهولة تعلمنا إحدى اللغات الأجنبية ، أن نقارن عاداتنا اللغوية بعادات تلك اللغة ، من كل ناحية ، فنزن الفروق بين اللغتين ، من حيث الأصوات ، وبنية الكلمات وتركيب الجمل ، وعلى هذه الأسس فقط يكون الحكم صائباً .

(تم الكتاب)

أهم المراجع العربية

١ – ابن جنى :

(ا) الخصائص .

(ب) سر صناعة الإعراب .

٢ — المبرد : المقتضب .

٣ — سيبويه : الـكتاب .

٤ — ابن يعيش : شرح المفصل .

٥ — ابن الجزرى :

(ا) النشر فى القراءات العشر .

(ب) التمهيد .

٦ — أبو عمر الدانى :

(ا) التيسير فى القراءات السبع .

(ب) جامع البيان فى القراءات السبع .

٧ — ابن الفحام الصقلى : التجويد لبغية المريد .

٨ — أبو بـكر بن أحمد حماد :

إتحاف العباد فى معرفة النطق بالضاد .

أهم المراجع الأفرنجية

1) D.C. Miller :
The Science of Musical Sounds.

2) Sir Richard Paget :
Human Speech.

3) W. H. T. Gairdner :
The Phonetics of Arabic.

4) G. Noel-Armfield :
General Phonetics.

5) Leonard Bloomfield :
The Study of Language.

6) Otto, Jespersen :
Language : (Its nature, development and origin)

7) B. Dumville:
The Science of Speech.

8) D. Jones:
Outline of English Phonetics.

9) W. Perrett:
Some questions of Phonetics.

10) L. Soames :
Introduction To Phonetics.

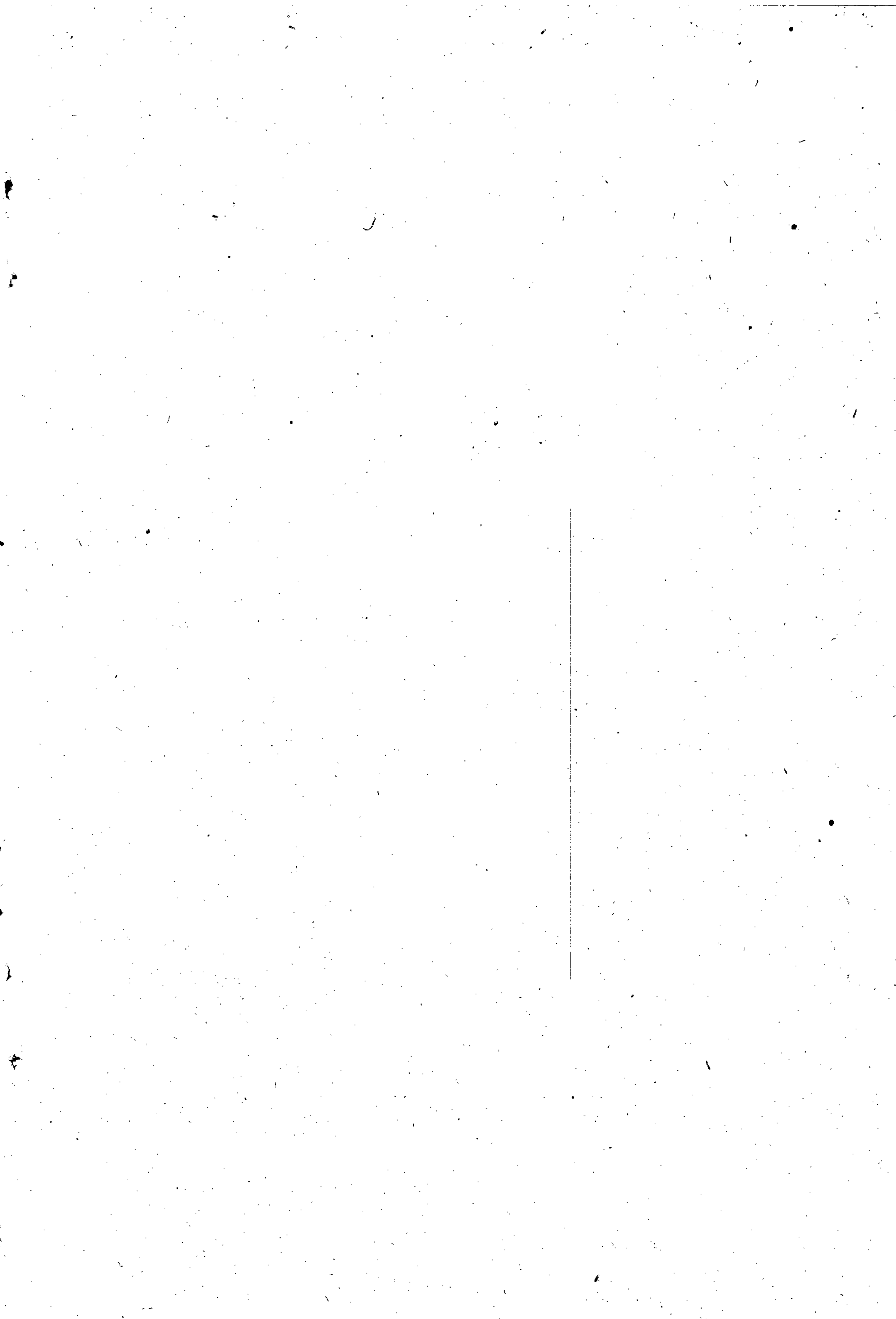
11) Henry Sweet :
A Primer of Phonetics.

12) W. D. Whitney :
a) Language and Study of Language.
b) The Life and Growth of Language.

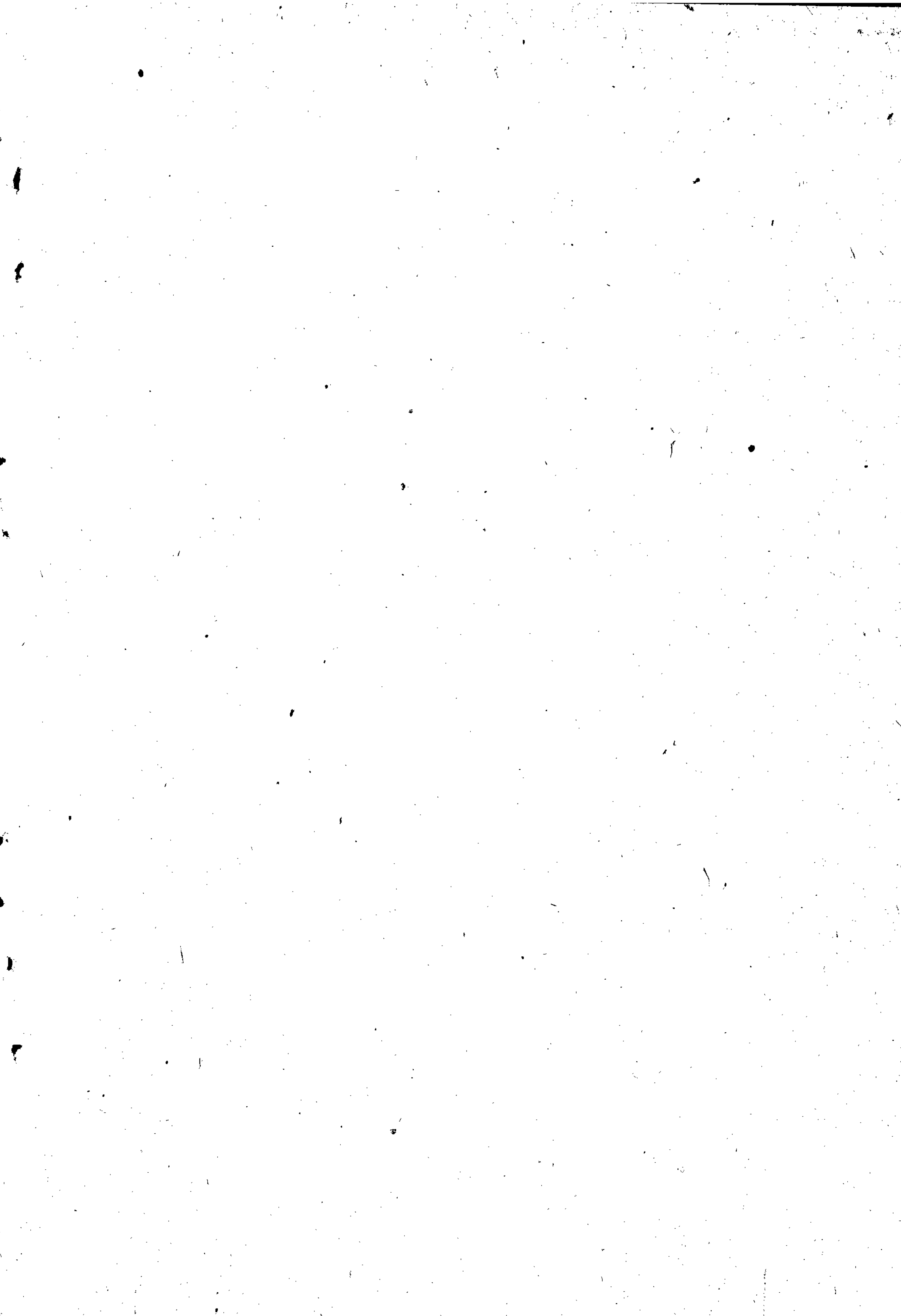
13) V. E. Negus.
The Mechanism of the Larynx.

14) A. Werner :
Language—Families of Africa.

15) H. Fletcher :
Speech and Hearing in Communication.




فهرس



الفهرس